

أ.د. مشتاق بشير الغزالي

# السيرة النبوية

في ضوء نقد المرويات الإسلامية ورد الشبهات الإستشراقية





**السيرة النبوية**  
**في ضوء نقد المرويات الإسلامية**  
**ورد الشبهات الإستشراقية**

**دار الولاء**  
للمنوعة النشر



الزوبس، شارع الزوبس، بيروت - لبنان  
Mob: 00961 3 689 496 | TeleFax: 00961 1 545 133  
info@daralwalaa.com | daralwalaa@yahoo.com  
P.O. Box: 307/25 | www.daralwalaa.com

ISBN 978-614-420-599-0

## السيرة النبوية

في ضوء نقد المرويات الإسلامية وردّ الشبهات الإستشراقية

المؤلف: أ. د. مشتاق بشير الغزالي.

الناشر: دار الولاء لصناعة النشر.

الطبعة: الأولى بيروت - لبنان ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م

إخراج فني وتنفيذ:

**eight**  
press &  
production

www.eightproduction.com | 00961 3 017 565

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

أ. د. مشتاق بشير الغزالي

# السيرة النبوية

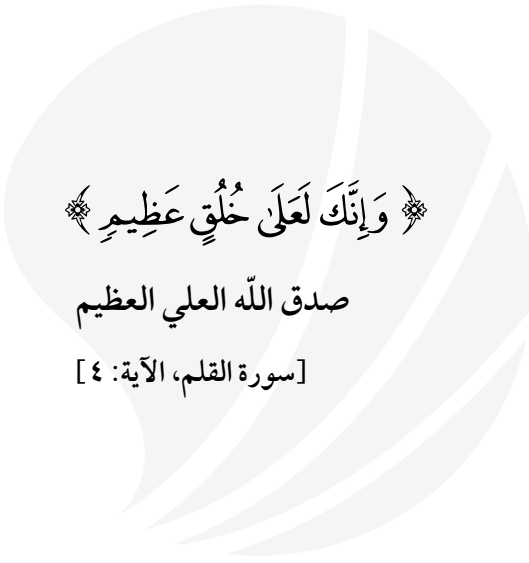
## في ضوء نقد المرويات الإسلامية

### وردّ الشبهات الإستشراقية



دار الولاء  
لصناعة النشر

الحمد لله رب العالمين  
والصلاة والسلام على  
سيدنا محمد وآله الطيبين  
الطاهرين



﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

صدق الله العلي العظيم

[سورة القلم، الآية: ٤]



## الفهرس

الإهداء.....	١١
المقدمة.....	١٣
الفصل الأول: الاستشراق ونقد مرويات السيرة ومصادرهما.....	١٩
أخبار السيرة ومصادرهما.....	١٩
نقد المستشرقين لمصادر السيرة ومروياتها.....	٢٠
طرائق الإضافة والحذف من رواية السيرة بحسب رؤية المستشرقين.....	٢٣
أحوال رواية السيرة قبل التدوين.....	٢٦
نقد المستشرقين لتأخر تدوين رواية السيرة.....	٢٨
الفصل الثاني: حياة النبي ﷺ حتى بعثته بالنبوة.....	٣٥
نسب النبي محمد ﷺ.....	٣٥
ولادة النبي محمد ﷺ المباركة.....	٣٨
إرضاع النبي محمد ﷺ بعد ولادته.....	٤٠
عودة النبي ﷺ الى أمه وجدّه في مكة.....	٤٥
النبي ﷺ في بيت أبي طالب.....	٤٧
حياة النبي ﷺ الأولى مرحلتي الشباب والرجولة.....	٥١



- زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة ؓ ..... ٥٦
- المقدمات التي سبقت نزول الوحي ..... ٦١
- الفصل الثالث: البعثة بالنبوة والصراع مع قريش حتى الهجرة ..... ٧٣
- نزول الوحي على النبي ﷺ في غار حراء ..... ٧٣
- المستشرقون والوحي المنزل على النبي ﷺ ..... ٧٧
- أول من آمن بالدعوة ..... ٧٩
- انطلاق الدعوة الإسلامية ..... ٨٣
- الهجرة إلى بلاد الحبشة ..... ٩٣
- مقاطعة بني هاشم في مكة ..... ٩٦
- وفاة أبي طالب وخديجة ؓ ..... ٩٨
- بنو هاشم بعد وفاة زعيمهم أبي طالب ..... ١٠١
- البحث عن موطن للدعوة خارج مكة ..... ١٠٥
- عرض الدعوة على القبائل الوافدة على مكة ..... ١٠٩
- اللقاء مع جماعة من أهل المدينة (يثرب) ..... ١١٠
- بيعة العقبة الأولى ..... ١١٢
- بيعة العقبة الثانية ..... ١١٤
- أسباب اعتناق الأوس والخزرج الإسلام ..... ١١٦
- الفصل الرابع: التنظيمات في المدينة والصراع مع اليهود حتى سنة ٥ هـ ..... ١٢١
- الهجرة إلى المدينة المنورة ..... ١٢١
- هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ..... ١٢٥

تنظيمات النبي ﷺ في المدينة .....	١٢٨
أولاً: بناء المسجد .....	١٢٨
ثانياً: المؤاخاة .....	١٣١
ثالثاً: وثيقة المدينة .....	١٣٣
الصراع مع يهود المدينة حتى نهاية سنة ٥ هـ .....	١٣٧
إجلاء بني قينقاع .....	١٤٣
إجلاء بني النضير .....	١٤٥
معاقبة بني قريظة .....	١٤٩
الفصل الخامس: الصراع المسلح مع قريش وحلفائها حتى سنة ٥ هـ .....	١٦١
معركة بدر .....	١٦٧
معركة أحد .....	١٧٤
أحداث معركة الخندق .....	١٨٢
الفصل السادس: التطورات والأنشطة العسكرية بعد سنة ٥ هـ .....	١٩٥
صلح الحديبية .....	١٩٦
نتائج صلح الحديبية .....	١٩٩
فتح حصون خيبر والمناطق المجاورة .....	٢٠٠
جيش المسلمين الى مؤته .....	٢٠٥
الانتصار الكبير فتح مكة .....	٢١٠
معركة حُنين .....	٢١٧
جيش المسلمين إلى تبوك .....	٢٢١

٢٣١	الفصل السابع: إصلاحات النبي ﷺ في المدينة.....
٢٣٢	الصوم.....
٢٣٤	المحافظة على حياة الانسان.....
٢٤٠	المساواة بين افراد المجتمع.....
٢٤٤	نظام الزواج الإسلامي.....
٢٤٩	زوجات النبي ﷺ.....
٢٥٦	الأهداف والمقاصد من زواج النبي ﷺ المتعدد.....
٢٦٥	الفصل الثامن: الأحداث والتطورات الأخيرة حتى وفاة النبي ﷺ.....
٢٦٥	عام الوفود.....
٢٦٧	تبليغ آيات البراءة.....
٢٦٩	حجة الوداع.....
٢٧٣	البيعة لعلي بن أبي طالب ﷺ في غدير خم.....
٢٧٩	عودة النبي ﷺ إلى المدينة (أيامه الأخيرة).....
٢٨٢	وفاة النبي ﷺ وسقيفة بني ساعدة.....
٢٨٩	قائمة المصادر.....

## الإهداء

إلى شجرتين ما زلتُ استظلُّ بهما  
الحبيبة الغالية (أمي) أدام الله تعالى أنفاسها الزكية الطاهرة  
رفيقة دربي (زوجتي أم أولادي) عنوان الوفاء والتضحية  
إليهما أهدي هذا التاج محبةً واعتزازاً. . .  
اللهم إن كان في هذا العمل أجراً وثواباً من عندك فاجعلهُنَّ  
شريكتاي فيه. . .

(مشتاق)



## المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي ﷺ الصادق الأمين وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين . . .

بفضل الله تعالى وتوفيقه ونحن نشarf على إتمام هذا العمل المبارك الذي طالما شعرنا بالمسؤولية الكبيرة للشروع بإنجازه، فمنذ ما يقرب من عشرين عام وأنا مواظب على تدريس مادة السيرة النبوية لطلاب الجامعات، كثيرة هي المحطات التي توقفت فيها انتقداً ما ورد في المرويات الإسلامية وأتأمل مضامينها التي لا يقبلها اي عقل منصف متحرر يبحث عن الحقيقة.

ان القراءة والبحث في أحوال الخبر السَّيري والتأمل في أحوال الرواة الأوائل مصدر هذا الخبر والأجواء التي أحاطت بهم، الوقوف على مستواهم المعرفي والثقافي، وقدرتهم على الفهم الدقيق لكل ما شاهدوه وسمعوه مباشرةً وهم يُحيطون بالنبي ﷺ، ثم قدرتهم على التعبير عنه وإيصال معناه وفحواه وفكرته ودوافعه جميعها إلى الناس، مع أنهم لم يكونوا بمستوى واحد من الفهم والقدرة على كل ذلك، ولم يكونوا على مستوى واحد من القرب والإحاطة والرفقة المستمرة للنبي ﷺ، ولم يكونوا كذلك بمستوى واحد من الرغبة الصادقة بخدمة الدعوة فقد تباينوا في أوقات اعتناقهم للإسلام والطريقة التي دفعتهم لذلك فضلاً عن مستوى التضحية الذي بذلوه، يضعنا أمام مسؤولية كبيرة ويدفعنا الف مرة نحو إعادة كتابة السيرة النبوية المطهرة.

هذا الخبر المُتداول شفهيّاً من قبل الحفظة والرواة سرعان ما تحول إلى رواية مُدونة على يد المؤرخون مع بدايات العصر العباسي أي بعد أكثر من مائة وثلاثين

عاماً من وفاة النبي ﷺ، لكن هؤلاء (الرواة والمؤرخون) لم يكونوا جميعهم على قدر واحد من المسؤولية في نقل هذه الاخبار وتدوينها، فبعضهم حمل في داخله أهواء وميولاً غير نبيلة أسقطها على ما نقله أو ما دونه منها بقصد أو من دون قصد، وبعضهم كان أداة بيد من أراد التلاعب والتزوير في تلك الأخبار مقابل حفنة من الأموال أو طلباً لرضا صاحب السلطة أو خوفاً منه، وبين هذا وذاك كان هناك مَنْ يسعى لنقل الحقائق بالرغم من كل الظروف الصعبة المحيطة به.

يجب الاعتراف أننا اليوم إزاء تراث سيّري مليء بالمُدخلات والإضافات مع ما فيه من الحقائق، ومن واجبنا أن نعمل على رفع تلك المُدخلات والإضافات ونثبت ما فيه من حقائق مستعينين بكل الأدوات والوسائل التي تتوافر لدينا. اعتمدت في البحث والتقصّي على منهج علمي موضوعي يقوم على المزج بين النص والعقل، فلم أكتفِ بالنصوص المنقولة في كتب السيرة والتاريخ والحديث بما فيها المرويات المعتمدة من دون أن أقوم بإخضاع مضامينها للعقل. لقد استفدنا كثيراً من الهيكل العام للسيرة الذي بيّنته آيات القرآن الكريم، فكان هذا الهيكل أساس حقيقة السيرة الذي لا يقبل أي نص تراثي منقول يتعارض معه.

من الطبيعي أن القارئ الكريم سيجد تفسيرات كثيرة لأحداث السيرة تطرح بشكل جديد ومختلف عن التفسيرات السابقة، فالكاتب هنا يتعامل مع مرويات السيرة بمنهج نقدي يسعى لفهم الدوافع الحقيقية من وراء كل رواية، كما تمت الإشارة إلى آراء كبار المستشرقين ومواقفهم من مفاصل مهمة في السيرة على وفق منهج عرض الآراء ونقدها، لذلك وسمنا عنوان الكتاب بـ (السيرة النبوية المطهرة). . في ضوء نقد المرويات الإسلامية وردّ الشبهات الإستشراقية).

تضمن هذا الكتاب ثمانية فصول، جرى التركيز في بدايتها على جهود المستشرقين في نقد مرويات السيرة ومصادرها، الذين درسوا طبيعة الرواية وطريقة تشكيلها والدوافع الحقيقية للرواة في تعبيرهم عنها، فكانت لهم آراء منطقية ومقبولة في هذا الشأن. ثم انتقلنا الى موضوعات السيرة التي بدأناها بنسب النبي ﷺ وميلاده وحياته الأولى قبل البعثة، ثم نزول الوحي وانطلاق الدعوة،

تتبعنا تلك الأحداث بطريقة متسلسلة حتى الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة. ثم تأتي أحداث السيرة وتطوراتها بعد الهجرة وهي أحداث متشابكة وتطورات سريعة ومتداخلة ما يصعب على القارئ متابعتها بدقة لذلك ارتأينا أن نقسم هذه المرحلة من أحداث السيرة إلى قسمين نتناول في كل قسم الموضوعات الآتية:

القسم الأول: الأحداث التاريخية التي شهدها النبي ﷺ في دعوته منذ الهجرة إلى المدينة وحتى نهاية السنة الخامسة منها. وتنقسم إلى الموضوعات الآتية:

الأول: التنظيمات الأولى في المدينة.

الثاني: الصراع مع يهود المدينة حتى نهاية السنة الخامسة من الهجرة.

الثالث: الصراع مع قبيلة قريش وحلفائها حتى نهاية السنة الخامسة من الهجرة.

القسم الثاني: الأحداث التاريخية التي شهدها النبي ﷺ في دعوته بعد السنة الخامسة للهجرة وحتى وفاته، وتنقسم إلى الموضوعات الآتية:

الأول: الصراع مع قريش وحلفائها حتى فتح مكة.

الثاني: الصراع مع اليهود خارج المدينة.

الثالث: الصراع مع القبائل والقوى شمال شبه الجزيرة العربية.

الرابع: التشريعات والإصلاحات التي أمر بها النبي ﷺ قبل وفاته.

الخامس: أحداث وتطورات السنة الأخيرة من حياة النبي ﷺ.

لقد تنبهنا إلى أن هنالك حاجة ملحة لكتاب منهجي في مادة السيرة النبوية يقدم الحقائق على أساس المزج بين الرواية والعقل كالمنهج الذي اعتمدناه في هذا الكتاب، بالرغم من أن جميع أقسام التاريخ في الكليات والجامعات العراقية والعربية تدرس هذه المادة، فضلاً عن أقسام العلوم الإسلامية بكل مسمياتها، لذلك فإننا نقدم هذا الكتاب ليكون مرجعاً مفيداً لطلاب هذه الأقسام العلمية، فضلاً عن كونه مفيداً كذلك للقارئ الكريم في الحصول على صورة واضحة للسيرة النبوية العطرة.



إننا لا ندّعي الكمال فيما قدمناه هنا فالكمال لله تعالى وحده، لقد قدمنا رؤيتنا المتواضعة لمجريات السيرة وأحداثها والتفسيرات التي نراها مناسبة ومقبولة ومنطقية بمنتهى الأمانة العلمية والإنسانية من دون أي ميول أو تحزب، لعلنا قد وفقنا في بعض المواضع أو أخفقنا في مواضع آخر من دون قصد الإساءة، الحكم الأول والأخير للقارئ الكريم.

أخيراً نسأل الله تعالى أن يكتب لنا في كل حرفٍ وضعناه بهدفٍ نبيلٍ صادق حسنة ومغفرة وأجر عظيم، اللهم لم أشرع بهذا العمل إلا تقرباً إليك ورغبةً في رضاك وعفوك ومغفرتك، اللهم تقبله مني وأنت خير المتقبلين يا أرحم الراحمين يا الله.

أ. د. مشتاق بشير الغزالي

الخميس ١٣ / ٢ / ٢٠٢٠

## الفصل الأول:

# الاستشراق ونقد مرويات السيرة ومصادرها

- أخبار السيرة ومصادرها
- نقد المستشرقين لمصادر السيرة ومروياتها
- طرائق الإضافة والحذف من رواية السيرة بحسب رؤية المستشرقين
- أحوال رواية السيرة قبل التدوين
- نقد المستشرقين لتأخر تدوين رواية السيرة



## الفصل الأول:

### الاستشراق ونقد مرويات السيرة ومصادرها

#### أخبار السيرة ومصادرها

كانت ولا زالت أقوال رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ وأفعاله ومجمل سيرته العطرة موضع اهتمام المسلمين عامتهم، للاعتماد عليها في التشريع، وتنظيم شؤون حياتهم، فضلاً عن شرف الاقتداء بها. والسيرة قبل أن تُدون كانت عبارة عن مرويات يتناقلها الرواة مشافهةً، مرت بمراحل صعبة قبل أن يكتمل شكلها المتداول بين الناس، لأن عملية التدوين تأخرت كثيراً، فكان المسلمون يتناقلون أخبارها عن طريق المشافهة والسماع لدوافع مختلفة، ومُختلف فيها. وكان لهذا المفصل المهم من تاريخ المسلمين نصيب وافر في دراسات المستشرقين، وعرضه لأرائهم وأفكارهم التي يستحق منا التوقف والنظر.

إن التأخر في تدوين السيرة قد عرّض أخبارها لبعض المؤثرات، وهذه حقيقة لا بد لأي باحث منصف أن يعترف بها، فالناقل لمضامين هذه المرويات هم من البشر، والبشر معرضون للخطأ والسهو، كما أن لهم ميولاً متعددة سواء أكانت فطرية أم منهجية، أم في ضمن اتجاهات المعرفة العامة والمعرفة الشخصية للرواية الإسلامية وما دار في فلكها من مصادر آخر. بالمحصلة النهائية لا بد من الاعتراف بوقوع إضافات على مضامين أخبار السيرة بقصد أو من دون قصد.

لكن ماهي نسبة هذه المؤثرات في وقائع السيرة المنقولة عن طريق الرواية

الشفهية؟ وكيف تسنى لهذه المؤثرات أن تلج مادة السيرة وتغير من بعض حقائقها، وتطبع مضمونها بالحذف والإضافة، وكيفيات الفهم والتعبير التي طالما جاءت مجتزأة من سياقها، ومنظومتها الكلية؟ ثم كيف دُونت؟ وهل استمرت عمليات الحذف والإضافة على مضامينها؟ وماهي نسبة الحقائق في أخبارها التي وصلت إلينا؟.

### نقد المستشرقين لمصادر السيرة ومروياتها

ان عملية نقد مصادر السيرة ومروياتها ليست اطروحة قديمة العهد، اذ يشير المستشرق البريطاني المتخصص بالسيرة مونتجمري وات إلى أن ملاحظات المستشرق وليم ميور<sup>(١)</sup> حولها في كتابه المعنون (حياة محمد من مصادرها الأصلية) كانت أول الملاحظات الاستشراقية الناقدة وبأسلوب علمي<sup>(٢)</sup>. ثم يضيف الى أن أوسع الدراسات بعد ميور كانت كتاب (حوليات الإسلام) للمستشرق الايطالي كياتاني الذي بالغ كثيراً في التشكيك بما نقلته المصادر<sup>(٣)</sup>.

ثم مجموعة الأبحاث التي قدمها جولد تسيهر عن طريق كتابه (دراسات محمدية)، والتي أكد فيها وقوع حالات الوضع في الأحاديث، وكذلك النتائج التي صرح بها المستشرق فرانز بهل ومفادها أن رواية السيرة لم تسلم من الإضافات والتعديلات، ولاسيما تلك الأخبار التي تخدم المصالح الخاصة بل والسياسات العامة، وإرادات مقدمات المذاهب والكتل الفكرية ولاسيما تلك التي كانت في بدايات تكوينها المعرفي وإنتاجها الفكري<sup>(٤)</sup>.

(١) للمزيد من التفاصيل فيما يخصّ المستشرق وليم ميور وكتابه حياة محمد من مصادرها الاصلية وملاحظة انتقاداته لمصادر السيرة ينظر: الغزالي، مشتاق بشير، « نظرة تحليلية في كتاب حياة محمد للمستشرق وليم ميور» بحث منشور في مجلة السدير، كلية الآداب/ الكوفة، العدد الاول، (العراق، ٢٠٠٣)، ص ٨٤-٩٩

(٢) وات، مونتجمري، محمد في مكة، ترجمة شعبان بركات، (منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٥٢)، ص ٩.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

كما عبر المستشرق مونتجمري وات عن رأيه الصريح عن طريق المنهج التاريخي الذي اعتمده إذ قال: «يجب على الباحث اليوم بعد اطلاعه على نزعات المؤرخين الأوائل ومصادرهم أن يكون باستطاعته أن يحسب حساب التحريفات»<sup>(١)</sup>.

وليس هذا فقط بل ان الدراسات الاستشراقية الاخيرة الصادرة جاءت لتؤكد هذا المعنى وبشكل قاطع، فالمستشرق الفريد لويس بريمار صاحب كتاب (تأسيس الإسلام بين الكتابة والتاريخ) وهو من الدراسات الاستشراقية الحديثة المهمة، يفتح كتابه بعبارات مثيرة قال فيها: «مضى الزمن الذي كان فيه الباحثون من امثال ارنست رينان يعتقدون بان حياة نبي الإسلام معروفة جيداً بالنسبة لنا مثله مثل حياة أي مصلح ديني من مصلحي القرن السادس عشر. الان اكتشفنا ان الامور ليست بمثل هذه البساطة ولا هي واضحة الى مثل تلك الدرجة. ولا نقول ذلك لكي ننكر ان النبي كان له وجود في وضع التاريخ... ولكن موثوقية المعرفة التي يمكن ان نمتلكها عن محمد تتوقف على الطريقة التي رويت بها سيرة حياته»<sup>(٢)</sup>.

تبدو الإشارة هنا واضحة من بريمار إلى ان درجة مصداقية الرواية تعتمد على مدى خلو مرجعيتها من الدوافع والمحرضات الذاتية-الشخصية، ومؤثرات الميول والانتماءات العامة، ومن ثم فإن رواية السيرة لا تتمتع بالموثوقية التامة المطلقة.

كما ان المستشرق بيترسن صاحب كتاب (علي ومعاوية في الرواية العربية المبكرة) وهو من الدراسات الاستشراقية المهمة المتخصصة في دراسة الرواية العربية المبكرة لم يختلف عن اطروحات من سبقه من المستشرقين فهو يرى أن الرواية التي وضعت ورتبت في العصر العباسي ونقلت سيرة النبي محمد ﷺ تم

(١) وات، محمد في مكة، ص ٩.

(٢) بريمار، الفريد لويس دي، تأسيس الإسلام بين الكتابة والتاريخ، ترجمة عيسى محاسبي، (دار الساقبي، بيروت، ٢٠٠٩)، ص ١٣.

التعامل معها على أنها وقائع حقيقية<sup>(١)</sup>، ثم يعقب على ذلك قائلاً «ولكن هذا الأمر يتعذر الدفاع عنه»<sup>(٢)</sup>. وإشارته هنا واضحة إلى أن رواية السيرة غير جديرة بالثقة.

كما يأتي المستشرق إيرنست ليكمل هذه الفكرة - فكرة تحريف رواية السيرة - بكل صراحة إذ يقول: «ان هنالك تدخل في صياغة المرويات التاريخية الخاصة بسيرة النبي»<sup>(٣)</sup>.

إذن القدر المعتدّ وغير القليل من الدراسات الاستشراقية يرى أن رواية السيرة قد أصابها شيء من التحريف، ونحن لا ننكر أبداً واقعية هذا الرأي وانحيازنا الموضوعي إليه، إن اعترافنا بوجود إضافات في رواية السيرة<sup>(٤)</sup> لا يُشكل منقصة على السيرة إطلاقاً، بل يدفعنا نحو تنقية التراث وغربلة المرويات والوقوف على الحقائق فقط، لأن طبيعة الإضافات والتحريفات طالت الجزئيات والفروع فقط من دون الإخلال بالهيكل العام من السيرة التي أسهمت في حفظه آيات القرآن الكريم، لقد كانت المصالح الشخصية هي العنوان الأبرز في المُدخلات والإضافات والمحذوفات من السيرة النبوية، فوصل إلينا مزيج مما هو فعلاً سيرة حقة لرسول الله ﷺ وأخرى ملفقة.

(١) بيترسن، أيلرنغ ليدوك، علي ومعاوية في الرواية العربية المبكرة، ترجمة عبد الجبار ناجي، (مكتبة دار المجتبى، بيروت، ٢٠٠٩)، ص ٦٣.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) إيرنست، كارل، على نهج محمد ﷺ إعادة التفكير في الإسلام في العالم المعاصر، ترجمة حمزة الحلايقة، (الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٨)، ص ١١١.

(٤) أحد أهم الدراسات الإسلامية المتخصصة في أحوال السنة النبوية المباركة قبل أن تدون هو محمد عجاج الخطيب يقول: «وبعد استشهاد علي رضي الله عنه... نشأت الأحزاب والفرق التي اتخذت شكلاً دينياً، وكان له أبلغ الأثر في قيام المذاهب الدينية في الإسلام. وقد حاول كل حزب أن يدعم ما يدعي بالقرآن والسنة، ومن البديهي أن لا يجد كل حزب ما يؤيد دعواه في نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف، فتأول بعضهم القرآن وفسروا بعض نصوص الحديث بما لا تحتمله، إلا أن هذا لم يحقق ما يرمون إليه، ولم يجد بعضهم إلى تحريف القرآن أو تأويله سبيلاً، لكثرة حفاظه، فتناولوا السنة بالتحريف وزادوا عليها، ووضعوا على رسول الله ﷺ ما لم يقل، ونشطت حركة الوضع مع الزمن، حتى اختلط الحديث الصحيح بالموضوع» ينظر: الخطيب، محمد عجاج، السنة قبل التدوين، (دار الفكر، بيروت، لا.ت)، ص ١٨٨.

### طرائق الإضافة والحذف من رواية السيرة بحسب رؤية المستشرقين

يحدد المستشرقون طريقتين حصلت عن طريقهما المدخلات والإضافات على رواية السيرة وهما:

**الطريقة الأولى:** تتضح هذه المُدخلات والإضافات عن طريق ما دعا إليه المستشرق وات للتمييز بين الفعل والدافع في داخل رواية السيرة. إذ نبه على ضرورة ملاحظة هذه الإضافات المغرضة المقصودة من خلال نسبة الدوافع غير واقعية التي لا يمكن الركون إليها والاعتداد بها لأفعال محددة في ضمن سياق الرواية<sup>(١)</sup>، وقد استعان بمثال لتوضيح هذه الفكرة قال فيه: «وهكذا لا يفكر احد بنكران ان عائشة غادرت المدينة قبيل مصرع الخليفة عثمان، اما معرفة ما اذا كانت دوافعها شريفة ام دنيئة ام لا مبالية فان هذا موضع نقاش حاد»<sup>(٢)</sup>، إذن الفعل الذي أشار إليه وات هو: خروج زوجة رسول الله ﷺ السيدة عائشة من المدينة قبيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان، وهو خبر لا يختلف في وقوعه الرواة والمؤرخون، لكن الاختلاف بحسب زعم المستشرق وات في دوافعها للخروج من المدينة، لماذا خرجت؟ حيث قال: «اما معرفة ما اذا كانت دوافعها شريفة ام دنيئة ام لا مبالية «تأتي الإضافة هنا التي يفترضها المستشرق وات للخبر نفسه: بان المؤرخ في تدوينه لهذه الرواية سوف يستبعد الدوافع المذكورة انفاً ويقترح هو دوافع من عنده لهذا الخبر تنسجم مع معرفته وتقييمه لمجمل أفعال هذه الشخصية.

ثم يأتي على ذكر مثال آخر أكثر وضوحاً عن كيفية توظيف الأفعال لخدمة المصالح الشخصية الفردية أو الجماعية الخاصة بفتة أو قبيلة أو غيرها، فيقول: «وكذلك قول محمد عن سعد بن معاذ حين كان يصدر حكمه حول قضية بني قريظة (قوموا لسيدكم)، يمكن ان تستخدم هذه لتبرير القول بان الأنصار كان بإمكانهم حكم قريش. وهكذا استخدمت مثل هذه القصة بطرق مختلفة للتأكيد

(١) ينظر: وات، محمد في مكة، ص ١١.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.



على شرعية تولى الأنصار الخلافة والزعامة بعد النبي»<sup>(١)</sup>.

**الطريقة الثانية:** من ناحية أخرى فإن المستشرق كارل إيرنست نبه على أن الإضافات والتعديلات لم تقتصر على الدوافع الشخصية والمذهبية فحسب، بل جاءت من أجل تمجيد وتقديس منزلة النبي محمد ﷺ، عن طريق الربط بين الإيمان بمحمد بوصفه نبياً، وبين الجانب التاريخي لهذه المرويات، وتأثير ذلك في مضامين رواية السيرة<sup>(٢)</sup> كما شدد كارل إيرنست على أن هذه المرويات تمثل رأي طرف واحد، فالرواة والمؤرخون الأوائل تمسكوا بالجانب الذي أثار اهتمامهم أكثر من غيره من حياة النبي، لذلك كانوا غير موضوعيين في صياغة سياق رواية السيرة<sup>(٣)</sup> ويلخص رؤيته بالعبارات الآتية: «فإن ما لدينا بشكل رئيسي عبارة عن روايات تتناول وصف معاركه على غرار الملاحم العربية القديمة، وتمجيد منزلة النبي بأسلوب النظم والنثر، وتفسير القرآن التي تحاول شرح آياته بالرجوع الى حياة محمد بالإضافة الى القصص التي تربط محمد بالأنبياء السابقين. وباختصار فإن النواحي التي يُعرف من خلالها محمد تقتصر على المتطلبات الثقافية والدينية لديانة ما»<sup>(٤)</sup>.

وفي السياق نفسه أكد المستشرق الفرنسي هنري ماسيه على أن انتشار الإسلام أسهم في احتكاك المسلمين بأفكار ومدارس جديدة، هذه قد اسهمت في التطور الاجتماعي والفكري لرواة السيرة أنفسهم، فشرعوا بتعديل بعض الأحاديث والمرويات لجعلوها ملائمة لحاجات العصر من الناحية التشريعية<sup>(٥)</sup>.

(١) وات، مونجمري، محمد في المدينة، ترجمة شعبان بركات، (منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٥٢)، ص ٥١٥. مما يدعم آراء وات هنا قول عبدالعزيز الدوري، نصه: «كما ان مغازيه ويقصد مغازي رسول الله ﷺ وغزوات اصحابه كانت مصدر اهتمام واعتزاز لدى المسلمين وكانت مواضيع محببة في مجالس السمر. وكانت المشاركة في مغازي الرسول وفعالياته الاخرى عاملاً في رفع المنزلة الاجتماعية وعنصرأ في تحديد العطاء في الديوان » ينظر: الدوري، عبدالعزيز، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، (دار المشرق، بيروت، ١٩٨٣)، ص ١٩-٢٠

(٢) إيرنست، على نهج محمد ﷺ، ص ١١١.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٥) ماسيه، هنري، الإسلام، ترجمة بهيج شعبان، (منشورات عويدات، ط ٣، بيروت، ١٩٨٨)، ص ١٢١.

لقد غاب عن بعض المستشرقين وفي مقدمتهم كارل إيرنست حقائق مهمة وهم يحاولون التأكيد على تشابك الجانب التاريخي والجانب الإيماني -الاعتقادي وتأثير ذلك في واقعية السيرة ومصادقية روايتها، إذ تخيلوا أن المؤرخين المسلمون قد غيبوا الواقعية التاريخية لإظهار البنية الدينية للسيرة، وهذا وهم كبير قد وقعوا فيه، إذ أهملوا كلياً مراعاة فاعلية التكوين القيمي المبدئي الأخلاقي التي حرص الإسلام على بثها في نفوس المسلمين، وسلوكيات المجتمع الإسلامي الذي بدوره حرص بإصرار على التمسك بروح الواقعية والمصادقية التي هي أصدق تعبير عن روح الإسلام وجوهره الحقيقي. أو ما يشير إليه المستشرق ماسيه من أن الاحتكاك أسهم في رقي الفكر الإسلامي، متناسياً حالة السبات والجمود التي أصابت كل الحضارات الإنسانية المحيطة بالمسلمين في العصر الإسلامي الأول عصر الازدهار والقوة.

نعم نحن اتفقنا مع بعض الآراء الاستشراقية في أن هنالك إضافات ومحذوفات من مضمون رواية السيرة، لكن في الوقت نفسه لابد من الإشارة إلى أن هنالك فريقاً آخر من الرواة كانوا يمثلون التوجهات الحقيقية للإسلام، وهذا الفريق يدعو إلى المعرفة والعلم ويحث على الاستزادة منهما، ويدعو الإنسان إلى استعمال البصر والنظر والعقل والفكر لدراسة أحوال البشر في الماضي والحاضر والمستقبل والتمعن في ظواهر العالم والتفكر فيها، وبذلك أوجد الإسلام دوافع وحوافز قوية ووضع إطاراً عاماً لآفاق الفكر<sup>(١)</sup>، نقول إن هذا الفريق من الرواة كانوا يمثلون هذه التوجهات الصادقة والأمانة النابعة من روح هذا الدين وجوهره، وبذلك تمتعوا بحرصهم وأمانتهم لنقل مضامين رواية السيرة بأوثق صورة. ومن ثم لا يمكن ان ننظر إلى رواية السيرة من زاوية واحدة فقط.

الأمر الآخر الذي لابد من الالتفات إليه هو وجود مضامين متقاطعة لرواية السيرة، وهذا التقاطع لا يُفسر إلا في ضوء أن هنالك فريقاً آخر من الرواة أخذ على عاتقه نقل

(١) العلي، صالح احمد، دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، (مؤسسة الرسالة، بيروت، لا. ت)، ص ١٤.

حقائق السيرة في مواجهة ذلك الفريق الذي أشار إليه المستشرقون في أنه أضاف إليها وعدل فيها، لذلك وجدنا هذا التقاطع في مضمون رواية السيرة ليؤكد لنا حقيقة مهمة وهي: ان هنالك من كان يسعى لنقل الحقائق كما هي دون إضافات.

### أحوال رواية السيرة قبل التدوين

إن الإسلام مرحلة فاصلة أساسية في تاريخ الفكر العربي، اذ جاءت الدعوة الإسلامية بأفكار أساسية تكرر ذكرها في القرآن الكريم وكان لها أبلغ الأثر في توجيه المسلمين<sup>(١)</sup>، من أبرز هذه الأفكار العلم، فقد وردت مفردة (علم) ومشتقاتها في (٦٢٤) موضعاً في القرآن الكريم<sup>(٢)</sup>. وبرزت روح الحث والتشجيع على طلب العلم ونشره عن طريق الآيات القرآنية والاحاديث النبوية كقوله تعالى ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾<sup>(٣)</sup>، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾<sup>(٤)</sup>، وقول رسولنا الكريم ﷺ: (مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم، أوشك ان تضل الهداة)<sup>(٥)</sup>.

فكان التوجيه الأول للمسلمين من رسول الله ﷺ هو الحث على كتابة آيات القرآن الكريم، إذ نُقل عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: (لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن)<sup>(٦)</sup>. هذا القول المنسوب لرسول الله ﷺ لو صحَّ فعلاً فإنه دعوة

(١) آفاية، محمد نور الدين، الغرب المتخيل صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠)، ص ٤٥-٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١.

(٣) سورة المجادلة، الآية (١١).

(٤) سورة فاطر، الآية (٢٨).

(٥) ابن حنبل، أحمد بن محمد (ت-٢٤١هـ/٨٥٥م)، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧)، ج ٢، ص ٥٢، ح- (١٢٦٠٠). رويت أحاديث نبوية مباركة كثيرة دالة على هذا المعنى من تقدير النبي محمد ﷺ للعلم، جمعها صالح أحمد العلي وعرضها بشكل منظم ومفيد. ينظر: العلي، دراسات في تطور الحركة الفكرية، ص ١٠-١٢.

(٦) السجستاني، أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث (ت-٣١٦هـ/٩٢٨م)، المصاحف، تحقيق: آرثر جفري، (المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٣٦)، ص ٤؛ الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت-٤٦٣هـ/١٠٧١م)، تهذيب المعجم، تحقيق يوسف الغش (د. مط. بلا. م، ١٩٧٤)، ص ٢٩-٣١.

لتدارس القرآن وحفظه وكتابته في مراحل التنزيل في عهده وحياته، في مُدَّة زمنية محدودة لا أن يستمر مع تعاقب الأزمنة والعصور لأنه سيخلق أجيالاً جاهلة بعلوم الطب والفيزياء والأحياء والتاريخ والجغرافية وغيرها.

لقد قامت الحركة الفكرية عند المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ، على السماع والحفظ، ولم تشجعهم الخلافة على كتابة آرائهم وتدوينها، فكان الحرص على أن تبقى الكتابة في حدود القرآن الكريم فقط<sup>(١)</sup>. ولسنا هنا بصدد استعراض العوامل التي أدت إلى تعطيل الكتابة والتدوين، ولكن ضرورات تكامل فكرة الموضوع اقتضت الإشارة إليها باختصار.

فضلاً عما ذكرناه من عدم رغبة الخلافة بانتشار التدوين، ورغبتها أن تقتصر الكتابة على نص القرآن الكريم هنالك عوامل أخر ردها بعض المؤرخين ومنها: «منع الخطر المحتمل من اهتمام الناس بهذه الكتب وتعلقهم بها وانصرافهم إليها... فتشغل الناس عن القرآن الكريم ودراسته»<sup>(٢)</sup> بحسب اعتقادهم.

ويضيف صالح أحمد العلي: «والكتب التي يؤلفها البشر بما فيها العلماء، قد تتحاشى الصعوبات التي في قراءة القرآن الكريم، فتكون أقرب إلى فهم الجماهير وميولهم ورغباتهم، فيزداد انتشارها بين الناس، وتعظم مكانتها عندهم وتأثيرها عليهم، مما قد يؤدي الى ان تصبح هذه الكتب مصدراً لفهم الإسلام دون القرآن»<sup>(٣)</sup> ومع اننا على خلاف الرغبة في منع انتشار التدوين، وعدم الاعتقاد بما قدموا من أعذار تركزت في الانصراف والانشغال عن القرآن الكريم أو اختلاط التدوين به، ولكن في تقديرنا هذا لم يكن ليُشكل خطراً في الإسلام لاختلاف الطبعيتين الربانية في القرآن الكريم، والبشرية في أقوال النبي ﷺ وأخباره.

ويواصل العلي في استعراض مسوِّغات تعطيل الكتابة والتدوين، فيذكر: «ان

(١) العلي، دراسات في تطور الحركة الفكرية، ص ١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥-١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦.

العلم المعتمد على المشافهة والحفظ والسماع يجنب العالم مشاكل الكتابة وصعوبة ضبطها، لاسيما وان التدوين يقيد العلم ويحصره ويضيّقه، لان الكاتب يشعر ان كتابته ستكون مستمسكاً مادياً وحجة عليه، يحاسب بموجبها على اقواله مما يدفعه الى الحذر والتردد من اجل تدقيق الكلمات التي يستعملها، والافكار التي يعرضها، والمعلومات التي يدونها، فاذا ظهرت له بعد ذلك اخطاء، فانها سترتبط به وتعلق عليه وهو في عجز وعدم استطاعة من جمع النسخ المكتوبة المتداولة بين الناس»<sup>(١)</sup>.

على الرغم مما لنا من ملاحظات على ما ذكره صالح أحمد العلي من مسوّغات تعطيل التدوين، واننا نتفق مع بعضها ونقول إن هنالك عوامل آخر أسهمت في هذا التعطيل، كقصور أدوات الكتابة وعدم توفر الورق اللازم لاستيعاب تفاصيل الأحداث<sup>(٢)</sup>.

هذه الأمور وغيرها التي أسهمت في تعطيل تدوين رواية السيرة، وابقائها في ضمن حدود التداول الشفهي عن طريق المشافهة والسماع والحفظ، لم يسع المستشرقون لدراستها بشكل جدي وطرح ارائهم حولها. هم ركزوا كثيراً على اقرار حالة الشك في رواية السيرة، وبحثوا في الكيفية التي عن طريقها تمت الإضافات، متفقين على أن التدوين لم يتم إلا بعد وفاة النبي ﷺ بأكثر من قرنٍ ونص القرن.

### نقد المستشرقين لتأخر تدوين رواية السيرة

نبدأ مع الحدود الزمنية لتدوين أخبار السيرة، التي نتفق نحنُ والمستشرقون على أنها تأخرت كثيراً. البداية مع المستشرق بيترسن الذي أكد على ان الرواية التي نقلت سيرة النبي محمد ﷺ قد تأخر تدوينها بشكل كبير، لم تُدوّن إلا في حدود

(١) العلي، دراسات في تطور الحركة الفكرية، ص ٢٢.

(٢) لمعرفة اهمية ادوات الكتابة ولاسيما الورق ودورها في تعطيل التدوين وكيفية وصوله للعرب في نهاية العصر الاموي. ينظر: الداوقني، حسين علي، «معركة طلس والصراع الحضاري بين العرب والصين» بحث منشور في مجلة دراسات للاجيال، العدد الثالث، (بلا، ١٩٨٧)، ص ١٢٢-١٢٤.

العصر العباسي<sup>(١)</sup>. كذلك المستشرق بريمار أشار الى الحدود الزمنية التي انطلقت فيها عملية التدوين هذه قائلاً: «ينبغي العلم... بأن حياة محمد لم تكتب الا بعد موته باكثر من قرن ونصف القرن وربما اكثر»<sup>(٢)</sup>.

اذا انتقلنا للحديث عن رؤية المستشرقين لطبيعة هيكلية الرواية، فان المستشرق بريمار يعتقد بان في: «الكتابات التاريخية الإسلامية القديمة... الحادثة نفسها تروى عموماً على شاكلة سرديات متقطعة صادرة عن عدة اخباريين مختلفين، وكل واحدة من هذه... مزودة بسلسلة اسنادها تضمن صحتها بحسب منظور القدماء»<sup>(٣)</sup>.

كما أنه عرف الاسناد (السند) تعريفاً قيماً قال فيه: «الاسناد يعني ذكر قائمة اسماء الاشخاص الذين تناقلوا الخبر جيلاً عن جيل رجوعاً الى المصدر الاول للمعلومة»<sup>(٤)</sup>. ثم يعلق على ذلك قائلاً: «وهذه التقنية في العرض الشكلي للروايات تتوخى اعطاءنا الانطباع بموثوقية تناقلها الشفهي المتواصل عن طريق الاشخاص، انتهاءً الى الشخصية الاولى التي تعتبر حجة... ولكن ينبغي العلم بأن الممارسة المنتظمة للإسناد لم تترسخ كتقليد متبع الا على نحو تدريجي»<sup>(٥)</sup>.

وتتفق رؤية وات مع رؤية بريمار في أن سند الرواية ضبط وانتظم لاحقاً بعد أن أخذت الممارسة مداها الزمني، ولكنه يعيب على الاخباريين الأوائل أنهم لم يذكروا في جميع الحالات الإسناد الكامل أو سلسلة الرواة وصولاً إلى شاهد العيان للحادثة<sup>(٦)</sup>.

أما جولد تسيهر ففي كتابه (مذاهب التفسير الإسلامي) يسلط الضوء على

(١) بيترسن، علي ومعاوية، ص ٦٣.

(٢) بريمار، تأسيس الإسلام، ص ١٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧.

(٥) المصدر والصفحة نفسها.

(٦) وات، محمد في المدينة، ص ٥١٦.

الرواة أنفسهم، ودرجة الثقة بما نقلوه، ويستشهد بأحدهم، وهو أبو عبد الله القرشي المعروف بعكرمة<sup>(١)</sup> مولى ابن عباس الذي قال عنه: «وان عكرمة مولى بن عباس المتوفي (١٠٥هـ- ٧٢٤م) صار عالماً ممتازاً على وجه الخصوص... لان ابن عباس كان يضع في رجله الكبل ولا يفك قيده حتى يتم اخذ تفسيره. وهذه سمة من المبالغة كثيراً ما تذكر في سبيل الوسم بالمثابرة على التلقي والدرس. ومع ذلك يبدو ان هذا الرجل الذي كان موضع ثقة ابن عباس... قد اساء استغلال علاقته بابن عباس، فنشر باسمه ما لم يسمعه منه اصلاً»<sup>(٢)</sup>.

ثم يأتي المستشرق ماسيه ليلفت النظر إلى الأصول العرقية للرواة، ويؤكد على أنهم ليسوا عرباً، وان ذلك موضع استغراب كبير<sup>(٣)</sup>، مستنداً إلى قول ابن خلدون الذي يورده بالشكل الآتي: «انه لشيء يُلفت النظر ان يكون معظم المشهورين عند المسلمين بمهاراتهم في العلوم هم اجانب. والامثلة التي تناقض ذلك قليلة جداً... فقد كان بينهم اشخاص يحفظون الاحاديث عن ظاهر قلب ومعظمهم ينتمون الى العنصر الفارسي»<sup>(٤)</sup>.

وبالانتقال إلى توثيق هذه المرويات في كتب السيرة، نلاحظ الاختلاف بين إشادة المستشرق فلهاوزن وثنائه، وبين عدم رضا المستشرق بريمار على طريقة توثيق بعض المؤرخين أو المحدثين منهم، قوله: «وفي هذه الكتب نلاحظ ان الطبيعة المشتتة الاصلية للروايات تظل هي هي. ولكنها -أي الروايات- اصبحت منفصلة بعضها عن بعض بسلاسل الاسناد التي تعلن كل مرة عن رواية جديدة غير السابقة.

(١) هو أبو عبد الله القرشي، كان لحصين بن أبي الحر العبدي فوهبه لابن عباس، وقد حدث عن ابن عباس، وزوجة الرسول عائشة، وأبي هريرة وسلسلة طويلة من الصحابة والتابعين. للمزيد ينظر: الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت- ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م)، سير اعلام النبلاء، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١)، ج٤، ص ١٣-٣٦.

(٢) ماسيه، الإسلام، ص ١٢١.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) جولد تسيهر، اجنتس، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبدالحليم النجار، (مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٥)، ص ٩٤-٩٥.

وعندما تكون هناك روايات متعددة ومختلفة المصادر عن الواقعة الواحدة، نجد انفسنا امام يوميات متعددة الاصوات... فمصنف المسند<sup>(١)</sup> يكتفي عندئذ بعرض الروايات متقارنة حتى لو كانت متباينة أو متناقضة، بيد ان عرضها على هذا النحو المتقارن لا ينم عن نزعة حيادية، وذلك لاننا نستطيع غالباً ان نستشف وراءها ميول المصنف ومقاصده<sup>(٢)</sup>.

أما فلهاوزن فيثني قائلاً: «ابن اسحاق وهو مولى، وابو معشر وهو مولى ايضاً، والواقدي، وهم لم يكونوا يجمعون مادة الروايات من مصادرها الاصيلية، كما فعل الرواة قبلهم، بل انما وصلت اليهم الروايات من حفظ رواية العلماء لها، وهؤلاء نظروا فيها ونخلوها وكتبوها من جديد، ومزجوا بينها ولكنهم... ربطوا ربطاً اوسع وادق مما كان قبلهم، وهم في الوقت نفسه رتبوها ترتيباً زمنياً مطّرداً، بحيث خرج على ايديهم من الروايات المفككة لأخبار الاحداث الكبرى المتفرقة تاريخ متصل»<sup>(٣)</sup>.

وعلى وجه الاختصار لسنا بصدد دعوة إلى تكذيب منطق المستشرقين في دراسة رواية السيرة النبوية العطرة، وموقفهم منها لما اشتملت عليه تلك الدراسات من وجهات نظر معتبرة جديرة بالعناية والتقدير الى جانب تلك الهنات المشار إليها والتي ينبغي الانتباه لها، كما لسنا مندفعين لدعوة القارئ الكريم الى تصديق روايات المؤرخين الإسلاميين بشأن السيرة المحمدية المطهرة، لما رافق رواياتهم من الادخال حذفاً وازضافة بدوافع شتى، وربما من الطبيعة البشرية في اسقاط ثقافتها ومعارفها على ما يصدر عنها من رأي أو رواية، ولكننا سنبدل جهدنا في تقصي الحقيقة ورفع ما نعتقد أنه من الإضافات المُدخلة على واقع السيرة ونأمل ان نقدم رؤية جديدة لأحداث وتفصيل واسباب كل ما يرتبط بها بكل موضوعية وحيادية.

(١) هو مسند أحمد بن حنبل وهو من بين اشهر كتب الحديث النبوي الشريف عند المسلمين.

(٢) بريمار، تأسيس الإسلام، ص ١٧.

(٣) فلهاوزن، يوليوس، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام الى نهاية الدولة الاموية، ترجمة محمد عبدالهادي ابو ريده، (لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، القاهرة، ١٩٦٨)، ص (ث).





## الفصل الثاني:

# حياة النبي ﷺ حتى بعثته بالنبوة

- نسب النبي محمد ﷺ
- ولادة النبي محمد ﷺ
- إرضاع النبي محمد ﷺ بعد ولادته
- عودة النبي ﷺ إلى أمه وجدّه في مكة
- النبي ﷺ في بيت أبي طالب
- حياة النبي ﷺ الأولى مرحلتها الشباب والرجولة
- زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة ؓ
- المقدمات التي سبقت نزول الوحي



## الفصل الثاني:

### حياة النبي ﷺ حتى بعثته بالنبوة

#### نسب النبي محمد ﷺ

لقد أجمعت كتب التاريخ والأنساب على ثبوت نسب النبي محمد ﷺ الى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، مع اننا لا نملك من سلسلة النسب المتصلة إلا تلك الواصلة حتى عدنان وهي على النحو الآتي: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معن بن عدنان<sup>(١)</sup>.

هو ينتمي الى بيت شريف رفيع المنزلة بين قومه، جده عبد المطلب كان من أشرف مكة، احتفر بئر زمزم وكان بداية لعظم شأنه بين قومه، إذ كانت هذه البئر مندثرة ومطمورة، فاستخرج منها بعض الحلي والجواهر وقدمها لتزيين باب

(١) ابن اسحاق، محمد بن اسحاق بن يسار المظلي (ت-١٥١هـ/٧٦٨م)، سيرة ابن اسحاق (المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي)، تحقيق: محمد حميد الله، (معهد الدراسات والابحاث للتعريب، الرياض، لا. ت)، ج١، ص ١؛ الكلبي، أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب (ت-٢٠٤هـ/٨١٩م)، جمهرة النسب، تحقيق: ناجي الحسن، (مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦)، ج١، ص ١٧، ابن هشام، محمد بن عبد الملك (ت-٢١٨هـ/٨٣٣م)، السيرة النبوية، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (مكتبة محمد علي، القاهرة، ١٩٦٣)، ج١، ص ١؛ الطبري، جعفر محمد بن جرير (ت-٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، (دار المعارف، ط ٢، القاهرة، ١١١٩)، ج٢، ص ٢٣٩.

الكعبة<sup>(١)</sup>. ازداد قدره وعظم عند العرب ولا سيما بعد يوم الفيل على إثر موقفه من هجوم ابرهة الحبشي على مكة ونيته تهديم الكعبة، ف قيل: إن عبد المطلب تفاوض معه لثنيه عن مهاجمة مكة، قبل أن يتكفل الله تعالى بحمايتها وحفظها من التدمير والخراب<sup>(٢)</sup>، كما جاء في التصريح القرآني عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ \* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ \* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ \* تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ \* فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾<sup>(٣)</sup>.

أما قصة نذره أن يذبح أحد أبنائه فهي من الأخبار التي ذكرتها كتب التاريخ وأكدت وقوعها بالرغم مما احتوته من سياق ومضمون لا يقبله العقل والمنطق، ولا ينسجم مع الحقيقة الثابتة من أن آباء النبي ﷺ واجداده ممن آمنوا بالله تعالى وهم على دين ابراهيم الخليل ﷺ.

نقل بعض المؤرخين قصة الذبح هذه فجاء فيها: «كان عبد المطلب بن هاشم قد نذر حين لقي من قريش في حفر زمزم ما لقي: لئن وُلد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة، فلما توافى له بنوه عشرة، وعرف انهم سيمنعونه، جمعهم ثم اخبرهم بنذره الذي نذر، ودعاهم الى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟ قال: يأخذ كل رجل منكم قدحاً، ثم ليكتب فيه اسمه، ثم ائتوني به، ففعلوا، ثم أتوه فدخل على هُبَل في جوف الكعبة، وكانت هُبَل أعظم أصنام قريش بمكة، وكانت على بئر في جوف الكعبة، وكانت تلك البئر هي التي يُجمع فيها ما يُهدى للكعبة، وكان عند هُبَل سبعة أقدح، كل قدح منها فيه كتاب... فقال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بَنِي هَؤُلَاءِ بِقِدَاحِهِمْ هذه... ثم ضرب صاحب القداح، فخرج القدح على عبد الله فأخذ عبد المطلب

(١) ابن اسحاق، سيرة بن اسحاق، ج١، ص ٢-٦، ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٩٣-٩٦؛ محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت-٢٣٠هـ/٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، (دار التحرير، القاهرة، ١٩٦٨)، م١، ج١، ص ١-٢؛ ابن كثير، اسماعيل بن عمر (ت-٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، (دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨)، ج٢، ص ٣٠٣-٣٠٦.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ج٢، ص ١٣٧-١٣٨، ابن سعد، الطبقات، م٢، ج١، ص ٥٥-٥٦.

(٣) سورة الفيل، الآية (١-٥).

بيده وأخذ الشفرة ثم أقبل الى أساف ونائلة وهما وثنا قريش تنحر عندهما ذبائحها ليذبحه... فقالت له قريش وبنوه: واللّه لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه...» ولم يكن هنالك من حل سوى افتدائه بمائة من الأبل. وترد هذه القصة عند باقي المؤرخين بسياق مشابه لما ذكره ابن اسحاق والطبري مع بعض الاختلافات البسيطة<sup>(٤)</sup>.

ان الحديث عن شخصية عبد المطلب وما تمتع به من سمات مميزة جعلته يعتلي صفوة قومه ويتقدمهم، يدفعنا إلى التأمل كثيراً في مسألة نذره بذبح أحد أولاده العشرة!! إن أي رجل عاقل لا يُقدم على إلزام نفسه بنذر كهذا ولا يقوم بذبح أحد ابنائه، فكيف بهذا الرجل اذا كان مؤمناً باللّه تعالى عاقلاً يتقدم قومه في المشورة والقرار. قد يلمح بعضهم ان ثمت تشابهاً بين ما جرى في هذه القصة، وبين قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام حينما اراد ذبح ولده إسماعيل عليه السلام، لكن شتان ما بينهما، إذ إن سيدنا إبراهيم عليه السلام نبي يوحى إليه من عند الله تعالى، وقد أمره الله تبارك وتعالى بذلك امتحاناً واختباراً له على طاعته، في حين ان عبد المطلب ليس بنبي ولم يوح له بذلك بل وفق ما جاء في الرواية أن ذلك من قراره واختياره وهذا فرق كبير بين الحالتين. ناهيك عن الفرق الكبير في قيمة الفداء ومصدر تقرير هذه القيمة، بحسب المذكور في الرواية تقديم عبد المطلب مائة من الأبل فداءً لولده عبد الله استناداً إلى مشورة كاهنة رجعوا إليها في البحث عن حل بديل عن الذبح، في حين ان ابراهيم عليه السلام حينما أراد الشروع بالذبح لم يوقفه إلا أمر الله تعالى، عندما أمره بفدائه بكبش واحد فقط، وهنا اختلفت القيمة ومصدر الحل. اذن الفرق كبير بين القصتين وليس هنالك من أية علاقة بينهما.

إننا نعتقد أن آباء النبي محمد ﷺ ابتداءً من سيدنا آدم عليه السلام وصولاً إلى عبد الله بن عبد المطلب مؤمنون بالله تعالى موحدون له استناداً إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ نَقُومُ \* وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدِينَ \* إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(٥)</sup> إذ نقل عن النبي ﷺ

(٤) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج١، ص ١٠-١١، الطبري، تاريخ الرسل، ج٢، ص ٢٤٠-٢٤٢.

(٥) سورة الشعراء، الآية (٢١٨-٢٢٠)

قوله: «لم يزل ينقلني من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا»<sup>(١)</sup>.

كما ان سنن عبد المطلب الكثيرة التي سنّها في عصره كانت محل إقرار وقبول في التشريع الإسلامي ومنها: إقراره بقطع يد السارق، والنهي عن التعري عند الطواف حول الكعبة، كما حرم الخمر والزنا ونكاح المحارم، ونهى عن وأد البنات وكان يدعو إلى ترك الظلم والبغي ويحث على مكارم الأخلاق<sup>(٢)</sup>. وبغض النظر عن حجم الاستجابة من أهل مكة لهذه السنن والدعوات فهي تمثل حالة وعي إنساني كبير لا تصدر إلا عن قلب مؤمن بالله تعالى.

### ولادة النبي محمد ﷺ المباركة

إنها الولادة التي غيرت مجرى تاريخ العرب وواقعهم المريع، بل مازالت تغير في مجرى تاريخ الإنسانية حتى قيام الساعة، إنها ولادة الحبيب المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ. هنالك أقوال متعددة في اليوم الذي ولد فيه النبي ﷺ وأرجحها الثاني عشر أو السابع عشر من شهر ربيع الأول في سنة (٥٦٩م) الذي عرف بـ(عام الفيل)، بذلك يكون عمره الشريف عند وفاته في السنة الحادية عشرة من بعد الهجرة الموافقة لسنة (٦٣٢م) قد بلغ ثلاثاً وستين سنة<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن سعد، الطبقات، م، ١، ج١، ص ٥، المفيد، محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم أبي عبد الله (ت- ٤١٣ هـ/ ١٠٢٢م)، أوائل المقالات، تحقيق: ابراهيم الأنصاري، (دار المفيد، ط٢، بيروت، ١٩٩٣)، ص ٤٥-٤٦؛ الطبرسي، أبي علي الفضل بن الحسن (ت- ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م)، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين، (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٥)، ج٤، ص ٩٠، السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي البكر (ت- ٩١١ هـ/ ١٥٠٥م)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، (دار المعرفة، بيروت، لا. ت)، ج٥، ص ٩٨؛ الكاشاني، محمد محسن الفيض (ت- ١٠٩١ هـ/ ١٦٨٠م)، التفسير الصافي، تحقيق: حسين الأعلمي، (مكتبة الصدر، ط٢، طهران، ١٩٩٦)، ج٢، ص ١٣١.

(٢) البيهقي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح (ت- ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧م)، تاريخ البيهقي، (دار صادر، بيروت، لا. ت)، ج٢، ص ١٠-١١؛ الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت- ٣٨١ هـ/ ٩٩١م)، الخصال، تحقيق: علي أكبر غفاري، (مؤسسة النشر الإسلامي، ط٢، قم، ١٩٨٣)، ج١، ص ٣١٢-٣١٣.

(٣) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج١، ص ٢٥، ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٠٣.

لقد ولد النبي ﷺ يتيم الأب، توفي والده عبد الله وهو لا يزال في بطن أمه، كانت ولادته في دار أبيه عبد الله بمكة وقيل في دار عمه إبي طالب عند شعب بني هاشم، وهو موضع تجتمع فيه دور الهاشميين، كان هذا الموضع لهاشم بن عبد مناف ثم أصبح لأبنائه وأحفاده وعرف بهذه التسمية<sup>(١)</sup>.

ينقل عن ولادته المباركة قول أمه آمنه بنت وهب لما حملت به: لم أشعر بالحمل ولم يصبني ما يصيب النساء من ثقل الحمل، لقد رأيت في نومي كأن آتياً أتاني وقال لي: قد حملت بخير الأنام، فلما حان وقت الولادة خف ذلك علي حتى وضعتته وهو يتقي الأرض بيديه، وسمعت قائلاً يقول: وضعت خير البشر. إنك قد ولدت سيد الناس فسميه محمداً، فلما جاء عبد المطلب نظر إليه وقد بلغه ما قالت أمه، فأخذه ووضعته في حجره ثم قال: الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان، قد ساد في المهد على الغلمان. ثم عودته بأركان الكعبة. ولقد سماه جدّه عبد المطلب باسم محمد استجابة لطلب أمه على الرغم من أن هذا الاسم لم يكن من الأسماء المتداولة والشائعة عند العرب قبل مولده المبارك<sup>(٢)</sup>.

إن الله تعالى قد أكرم بني البشر ببعث الأنبياء محمّلين بتلك الرسالات السماوية المتضمنة الخير والهداية وسبل النجاة والسعادة، لذا فمن الطبيعي أن لا يكون ميلاد أي نبي حدثاً عادياً. هكذا كان ميلاد المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ فقد تحدثت كتب التاريخ عن وقوع حوادث عجيبة في يوم ولادته، مثل: ارتجاج إيوان كسرى، وسقوط أربع عشرة شرفة منه، وانخمد نار فارس التي كانت تُعبد، وجفاف بحيرة ساوه، وتساقط الأصنام المنصوبة في الكعبة على وجوهها، والرؤيا المخيفة التي رآها انوشيروان، والنور الذي خرج مع النبي ﷺ عند مولده<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٠٣، ابن سعد، الطبقات، ٢، ج١، ص ٦١-٦٢.

(٢) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج١، ص ٢٢، ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٠٤.

(٣) البيهقي، أبي بكر أحمد بن الحسين (ت-٤٥٨ هـ/١٠٦٥ م)، دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلعي، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨)، ج١، ص ١٢٦-١٢٩، بن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص ٣٢٦-٣٢٨.



## إرضاع النبي محمد ﷺ بعد ولادته

تشير المرويات الى أن النبي محمد ﷺ حينما ولد كان بحاجة ماسة الى مرضعة، وهذا الأمر يوحى إلى ان السيدة آمنة لم تكن قادرة على إرضاعه وسدّ حاجاته الغذائية اي انها كانت تعاني من مشاكل صحية، فكانت تلك ثاني الخسائر الثقيلة التي خسرها النبي ﷺ وهو لا يزال رضيع صغير عمره لا يتجاوز بضعة ايام، فالتمسوا له مرضعة غير أمه، فكانت السيدة ثوية وهي جارية عند عمه أبي لهب.

لقد كانت السيدة ثوية مكلفة بإرضاع رضيعين آخرين هما عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ويدعى ابا سلمة، وحمزة بن عبد المطلب، فضلاً عن ابنها الرضيع مسروح، وبذلك يكون هؤلاء الثلاثة إخوة للنبي ﷺ في الرضاعة. إلا ان هذا الأمر لم يستمر طويلاً، وقد يكون لذلك أسباب مرتبطة بكون السيدة ثوية جارية مملوكة لا تتحرك ولا تؤدي الأعمال إلا بموافقة سيدها وزوجته. كما ان عبد المطلب تمكن من الحصول على مرضعة اخرى للنبي ﷺ هي السيدة حليلة السعدية بعد عملية بحث وتقصي عن ذلك<sup>(١)</sup>.

حليلة السعدية هي من بني سعد بن بكر بن هوازن وزوجها الحارث بن عبد العزى وفدا على مكة طلباً للحصول على طفل رضيع على امل الكسب المالي ليساعدهم ذلك على مواجهة العوز والفقر وضنك العيش، كانت حليلة كحال العديد من نساء البادية المحيطة بمكة اللواتي يأتين الى مكة على امل الحصول على طفل رضيع، فكان النبي محمد ﷺ من نصيبها، ومن شدة حاجته للغذاء يُذكر أنه ﷺ قد أقبل عليها بمشيئة الله تبارك وتعالى فما ان وضعت في حضنها، حتى تعلق به منذ اللحظات الأولى<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن سعد، الطبقات، م، ٢، ج١، ص ٦٧-٦٨، البيهقي، دلائل، ج١، ص ١٣٠؛ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد (ت- ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م)، امتاع الأسماع، تحقيق: محمد عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٩٩)، ج١، ص ٩-١٠.

(٢) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج١، ص ٢٦، ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٠٤-١٠٦؛ ابن سعد، الطبقات، م، ٢، ج١، ص ٦٩.

ترد الإشارة في معظم المرويات الى ان السيدة حليلة السعدية لم تقبل بإرضاع النبي ﷺ كونه يتيم الاب، وكانت تلتمس الحصول على طفل رضيع غيره بغية الحصول على أجر جيدة من أبيه، فلما لم تجد ضالتها قبلت به!! هذا الكلام الذي نجده في معظم المرويات الإسلامية التي تؤكد على ان المرضعات يرفضن القبول بالأطفال الرضع الأيتام لأنهن لن يحصلن على أجور جيدة، من خلال ما ذكر عن السيدة حليلة السعدية بانها ظنت لن تحصل على ما كانت ستحصل عليه من اموال لو ان ابيه كان على قيد الحياة، لذا فان قبولها بالنبي ﷺ جاء لعدم حصولها على طفل رضيع غيره، نجيب على ذلك فنقول: إن النبي ﷺ كان ينتمي لأشرف الأسر المكية وأنبهها بل ان المسؤول المباشر عنه الذي يقوم مقام ابيه هو جده عبد المطلب، وهو من كبار سادات مكة آنذاك، فضلاً عن ذلك فإن النبي ﷺ وعلى امتداد سنوات حياته ما أن يراه الناس حتى يزدادوا تعلقاً به وحُباً له وهذا الأمر يقيناً من كرامات الله تعالى لنبيه محمد ﷺ. فكيف لنا ان نصدق ما قيل عن إعراض حليلة السعدية عنه في بداية الأمر، فلما لم تجد غيره من الاطفال الرضع قبلت به!! لذلك لا يمكننا القبول بهذا السياق الذي اشارت إليه بعض المصادر الإسلامية.

نقطة لافته للانتباه هنا يجب الإشارة إليها وهي: لماذا أهل مكة كانوا يبعثون بأطفالهم الرضع إلى البادية؟ ووفقاً لابن إسحاق في المغازي والسهيلى بالروض الأنف: ان ذلك كان جزءاً من عادات قريش ولاسيما الاسر الميسورة في مكة أن يبعثوا أطفالهم الرضع الى البادية لينعموا بجو صحي بعيد عن الأوبئة التي كانوا يقولون انها منتشرة في مكة، فضلاً عن تمكنهم من فصاحة اللسان والتعود على خشونة العيش. ان طلب فصاحة اللسان من البادية يأتي كون مكة مركزاً دينياً وتجارياً تلتقي فيها مختلف القبائل والأجناس ما يؤثر في اللهجات والعادات، لذلك كانوا يرسلون أطفالهم إلى البادية ليكونوا بعيدين عن تلك الأوبئة واللهجات المختلفة وتصبح ألسنتهم فصيحة وينشؤون بجو صحي<sup>(١)</sup>.

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج١، ص ٢٧؛ السهيلى، عبد الرحمن (ت- ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م)، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، (دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٧)، ج٢، ص ١٦٧-١٦٨.

هذا التصور لا يتعدى كونه تفسيراً غير دقيق ولا يمكن قبوله بهذا الشكل. إن العادات القديمة في مكة لا يمكن أن تشمل كل الأطفال بحجة انهم كانوا يريدون أن ينشئوهم في جو صحي، فكيف للأم أن تترك ابنها الطفل الرضيع ينتقل إلى مكان آخر بعيداً عنها لا تراه عاماً أو عامين أو أكثر من ذلك!! كيف لغريزة الأمومة أن لا تتحرك في مواجهة هذه العادات لو افترضنا صحتها، كيف للأم أن تصبر وتستسلم هكذا دون اعتراض أو رفض لعملية ابعاد طفلها الرضيع الذي لا يتجاوز عمره شهراً أو شهرين، فيرسل إلى البادية حيث قساوة الحياة وصعوبتها.

إننا إزاء حقيقة لا يمكن إنكارها وهي إرسال الأطفال الرضع إلى البادية، ولكن في الوقت نفسه إزاء تفسير غير دقيق لهذا الفعل. إننا نعتقد ان هذه العادات لم تشمل كل الأطفال في مكة، إنما فقط اولئك الذين لم تتوافر لديهم الممرضات في داخل مكة، أما بسبب أن الأم المباشرة لذلك الطفل الرضيع كانت عاجزة وغير قادرة عن أداء وظيفتها في غذائه، أو أن الأم قد توفيت عند الولادة ففقد الطفل الرضيع مصدر غذائه بفقد أمه، وكذلك من لم تتوافر لديه المرضعة البديلة من نساء مكة، عندها تبدأ عملية البحث عن مرضعة بديلة من خارج مكة من نساء البادية القريبة كجزء من عادات ذلك المجتمع. هذا السبب قد يحمل في طياته الكثير من المقبولية، وإلا لا يمكن القبول بالتفسيرات السابقة بأي حال من الأحوال فالأم لا تتخلى عن ابنها الرضيع مع قدرتها على إرضاعه مهما كانت الأسباب.

من الأدلة على راحة ما قلناه: ان النبي ﷺ لم يبق في ديار حليلة السعدية عند بني سعد بن بكر سوى عامين، فلما جاء موعد فطامه وأخذ يعتاد على تناول طعامه والقدرة على الاكل، تقول الروايات أن حليلة السعدية عادت به إلى اهله في مكة تعبيراً عن انتهاء مهمتها<sup>(١)</sup>، ومن هذا الأمر نستدل كذلك على أن الإرسال لأجل تأمين الغذاء فقط وليس الفصاحة والتعود على خشونة العيش، لان التمكن من فصاحة اللسان والتعود على خشونة الحياة تستلزم البقاء في البادية لسنوات اخرى عديدة.

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج١، ص ٢٧، ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٠٦.

نعود مرةً أخرى إلى تلك اللحظات الصعبة على السيدة آمنة بنت وهب وهي تفارق طفلها الرضيع متوجهاً إلى البادية مع السيدة حليلة وزوجها، يقيناً أنها لم تكن باللحظات السهلة على أمه وعلى جده عبد المطلب وعلى عمه أبي طالب اللذين طالما رأوا فيه صورة أبيه عبدالله، وطالما وجدوا فيه النور والمحبة. واخيراً كان الوداع المؤلم لأهله وهم يرون طفلهم الرضيع يتعد عنهم برفقة اسرة غريبة ومكان بعيد خارج مكة يقيناً أنها من المواقف الصعبة.

هناك في ديار حليلة السعدية تجمع المرويات على ان مقدم النبي ﷺ عليهم كان مقدّم خير وبركة، فبعد تلك المعاناة والفقر والحاجة حلت البركة عليهم والعطاء الإلهي بوفرة الأمطار والاعشاب محل الجذب والقحط حتى انهم وتوافر عليهم الخير الكثير حتى أنهم شعروا بذلك الفارق<sup>(١)</sup>.

تكونت هذه الأسرة التي حل بينهم النبي ﷺ من السيدة حليلة السعدية وزوجها الحارث بن عبد العزى، فضلاً عن أبنائهم اخوة النبي من الرضاعة وهم عبد الله وأنيسة وحذافة التي تعرف بالشمياء وكانت اكثرهم وصلاً وقرباً من النبي ﷺ مع انهم كانوا جميعاً متعلقين به وهو متعلق بهم<sup>(٢)</sup>. كانت هذه الأسرة هي الحاضنة الأولى له وكل الدلائل تشير إلى أنهم منحوه الرعاية بمحبه وشغف كبيرين، لم يكن ذلك مجرد وظيفة وعمل يقومون به، انما كان هنالك الكثير من الحب والعاطفة التي منحت له. هذا الامر ليس غريباً على شخص النبي ﷺ فهو ممن يجعلون الناس تُقبل على محبتهم، ولا ننسى كذلك أن الأمر مرتبط بمشيئة الله تعالى وارادته ان خصص له هذه الأسرة الطيبة. انه امر ملفت للنظر ان الله تعالى جعل البيئات المحيطة بالنبي ﷺ منذ ولادته وحتى بلوغه مرحلة النجاح في الدعوة بيئات داعمة له ومانحة اياه مستويات عالية من العاطفة والمحبة،

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج١، ص٢٦-٢٧، البيهقي، دلائل، ج١، ص١٣٤.

(٢) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج١، ص٢٥، ابن هشام، السيرة، ج١، ص١٠٤-١٠٥، ابن سعد، الطبقات، م٢، ج١، ص٦٩، ابن كثير، البداية، ج٢، ص٣٣٣، المقرئ، امتاع الأسماح، ج١، ص١١-١٢.

بدءً بأسرة السيدة حليلة السعدية، ثم أسرة عمه أبي طالب، ثم زوجته السيدة خديجة عليها السلام.

أمّا عن المدة التي قضاها مع تلك الأسرة فالمرويات الإسلامية تختلف في تحديدها منها ما ذكره ابن إسحاق أن المدة التي مكث بها النبي ﷺ مع هذه الأسرة في بادية بني سعد سنتان وبعد هاتين السنتين أعيد إلى أمه والتمست حليلة أن يعود معها لمدة أخرى فاقتنعت أمه آمنة وعاد معها سنة أخرى، وهكذا يرى ابن إسحاق أن أمه قبلت بذلك خشية أن يصاب بالأوبئة التي كانت موجودة في مكة آنذاك فعاد إلى بادية بني سعد إلا أنه لم يلبث سوى شهرين أو ثلاثة فأعيد إلى أمه خشية أن يتعرض إلى أخطار البادية هناك<sup>(١)</sup>.

وفقاً لما ذكره ابن إسحاق تكون مدة إقامته سنتين وبضعة أشهر، إلا أن روايات آخر تشير إلى أن مدة بقاءه استمرت أربع سنوات على مرحلتين أو مرحلة واحدة، أما الآراء المختلفة عما ذكر هنا فترجح أن بقاء النبي ﷺ عند بني سعد استغرق خمس سنوات، أكد ذلك ابن سعد وغيرهما من المؤرخين<sup>(٢)</sup>، وعلى أية حال لنا رأي مختلف عن كل ما قيل في مسألة مدة البقاء.

قلنا في بداية الحديث إن سبب بعثه إلى البادية كان لعدم توافر المرضعة في مكة، فلو توافرت المرضعة في مكة لما بُعث به إلى البادية أصلاً هذا ما نراه وما نعتقد به، ولكن عندما لم تتوافر المرضعة في مكة بُعث به إلى البادية. إذن سبب بعثه هو أن ينال غذاءه من الحليب، وهذا ما قامت به السيدة حليلة السعدية لمدة نعتقد أنها لم تتجاوز العامين، فمن المعلوم أن الطفل بعد مدة أقصاها عامان يكتفي من الرضاعة استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾<sup>(٣)</sup>، ﴿وَحَمْلُهُ

(١) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، جـ ١، ص ٢٧.

(٢) ابن سعد، الطبقات، م ٢، ج ١، ص ٧٠، اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٠؛ المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، (دار الهجرة، ط ٢، قم، ١٩٨٤)، ج ٢، ص ٢٧٥؛ المقرئ، امتاع الأسماع، ج ١، ص ١٢.

(٣) سورة لقمان، الآية (١٤).

وَفَصَّلَهُ، ثَلَاثُونَ شَهْرًا<sup>(١)</sup>، وحين يبدئ بتناول طعامه كالبالغين بعد تشكل الأسنان لديه والقدرة على مضغ الطعام، ينتفي السبب الذي أرسل الى البادية لأجله، وعليه فإننا نعتقد أن النبي ﷺ قد أعيد إلى حضن أمه السيدة آمنة بعد إنقضاء مدة الرضاع وهي عامين لا أكثر.

### عودة النبي ﷺ الى أمه وجدته في مكة

بعد أن أعيد إلى مكة وأصبح في رعاية أمه، لم ينقطع التواصل بين النبي ﷺ والطفل الصغير وبين أفراد تلك العائلة التي نشأ في كنفها، فحالة التعلق من كلا الطرفين من السيدة حليلة وأبنائها من جهة، ومن النبي محمد ﷺ من جهة أخرى تدفعنا لأن نفترض وجود زيارات متبادلة كانت تتم، أما من جهة هذه الأسرة فتزوره في مكة، وأما من جهة النبي ﷺ وأمه لزيارة تلك الأسرة في ديارهم، هذا الأمر يعكس لنا حالة التعلق الشديد بينهما، وكذلك الوفاء الذي كان متجذراً ومتأصلاً في نفس النبي ﷺ منذ صغره، لذلك يمكن أن تكون تلك الزيارات المتبادلة بينهما قد فُسرَت أو فهمت على أساس أنها عودة النبي ﷺ للإقامة مع تلك الأسرة لمدة أخرى، أو تمديد لبقائه في البادية، وهكذا فإن عدم فهم الأحداث بشكلها الصحيح يؤدي إلى تعدد التفسيرات وخروجها عن السياقات المنطقية المقبولة. فالقول في مدة بقاءه في بادية بني سعد لما يقرب من خمس سنوات هو قول غير منطقي وغير مبرر يتقاطع مع موقف أمه السيدة آمنة، وجدته عبدالمطلب فالقبول بمضمون هذه المرويات يعني ذلك عدم اكتراث أهله به ولا رغبتهم باستعادته وتولي مسؤولية رعايته وهذا خلاف الحقيقة تماماً.

بعد أن أعيد النبي ﷺ إلى أمه السيدة آمنة وقد تجاوز من العمر العامين، وأصبح في كنفها حتى بلغ السادسة، لا تقدم لنا المرويات التاريخية تفصيلات عن هذه المرحلة من عمره الشريف، وليس أمامنا إلا ان نفترض طبيعة هذه السنوات الأربع التي قضاها الى جوار أمه قبل أن تتوفى، إذ لاشك انهما كانا يخرجان في رحلات

(١) سورة الأحقاف، الآية (١٥).

خارج مكة، رحلات إلى ديار العائلة التي تربى في حجرها وتغذى من حليبها ديار بني سعد بن بكر، أو رحلات إلى أماكن آخر قريبة أو بعيدة عن مكة، كخروجهم إلى المدينة المنورة (يثرب) بصحبة أم أيمن وهي جارية عند السيدة أمّنة.

لقد ذكرت هذه الرحلة في المصادر التاريخية على أنها المحطة الأخيرة التي جمعت النبي ﷺ بأمه، كانت زيارة إلى قبر أبيه عبد الله في المدينة على بُعد أكثر من (٤٥٠) كيلومتر من مكة وبصحبة أم أيمن، استغرقت هذه الرحلة قرابة ثلاثون يوماً، نزلوا هناك بضيافة بنو النجار<sup>(١)</sup>. وبالرغم من اكتفاء المؤرخين بذكر هذه الرحلة فقط فإننا نعتقد بوجود رحلات أخرى عديدة خرج فيها النبي ﷺ برفقة أمه إلى المدينة أو إلى أماكن آخر وإن لم نجد ذلك مذكوراً في المرويات.

تخللت هذه الزيارة الوقوف على قبر أبيه المدفون في المدينة، ولا شك أن لهذا المشهد وقع عظيم على قلبه بالرغم من صغر سنه، عند الانتهاء من هذه الزيارة في طريق العودة الى مكة يتعرض النبي ﷺ إلى موقف مؤلم، لقد أصيبت السيدة أمّنة بمرض شديد أدى الى وفاتها، فدفنت في موضع ما بين مكة والمدينة وهو أقرب الى المدينة يدعى الأبواء، ليعود الى مكة تصحبه أم أيمن<sup>(٢)</sup>، يقيناً كان الألم والحزن كبيرين على قلبه وهو لازال في السادسة من عمره، أصبح الان يتيم الأب والأم فتحولت رعايته المباشرة وحضانه الى جده عبد المطلب الذي لم يكن قبل وفاة السيدة أمّنة بعيداً عن تلك المسؤولية، ولكن الان ازدادت، كانت أم أيمن تعين عبد المطلب وتساعد في رعاية النبي ﷺ، فقد أخذت على نفسها هذه المهمة وقامت بها بأفضل ما يرام وحرص عبد المطلب على أن يعوض حفيده عن ذلك الفقد العظيم، فأغدق عليه من حنانه وعطفه وتقريبه له من دون كل الأبناء، وكان محمد ﷺ وهو صغير العمر يحظى بمكانة كبيرة لدى جده عبد المطلب<sup>(٣)</sup>، إلا ان

(١) ابن سعد، الطبقات، م٣، ج١، ص٧٣، البيهقي، دلائل، ج١، ص١٨٨.

(٢) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج١، ص٤٢؛ ابن هشام، السيرة، ج١، ص١٠٩؛ ابن سعد، الطبقات، م٣، ج١، ص٧٣.

(٣) ومما ذكر في المرويات الإسلامية حول هذا الشأن: «انه كان يوضع لعبد المطلب جد الرسول ﷺ فراش في ظل الكعبة، فكان لا يجلس عليه احد من بنيه اجلالاً له وكان رسول الله ﷺ يأتي حتى يجلس عليه فيذهب =

عبد المطلب لم يطل به المقام ولم تستمر رعايته وحضائته سوى عامين فقط. كان النبي ﷺ قد تعلق بجده عبد المطلب تعلقاً شديداً، فلما دنا أجل عبد المطلب وعلم انه على فراش الموت بعث إلى أبي طالب وهو احد ابنائه، ولم يكن اكبرهم سناً، ولم يكن اكثرهم مالاً، فكان أخوه الحارث أكبر سناً منه وأخوه العباس أكثرهم مالاً، لكننا نعتقد أن السنوات الثمان التي قضاها النبي ﷺ جعلت عبد المطلب يلاحظ ويدرك حجم العاطفة الكبيرة التي كان يكنها أبي طالب لابن أخيه، ويقيناً أن هذه المحبة التي لاحظها عبد المطلب قد دفعته لاختيار أبي طالب وصياً عليه وتسليمه مسؤولية العناية به وحفظه ورعايته، فأوصاه بذلك<sup>(١)</sup>.

### النبي ﷺ في بيت أبي طالب

يمكن النظر إلى اختيار دار أبي طالب وأسرته بيئة حاضنة لرسول الله ﷺ، ليس للعاطفة والمحبة الكبيرتين عند أبي طالب لابن أخيه فحسب، بل ان مشيئة الله تعالى قد هيأت الأجواء المناسبة ليكون النبي ﷺ في ضمن هذه الأسرة الطيبة، فكما ان الله تعالى قد تدخل في قصة نبي الله موسى ﷺ وأعادته لحضن أمه بعد أن رمته في البحر خوفاً على حياته، أعاده إليها بقدرته تبارك وتعالى حتى ينشأ معها وفي حضنها، وهكذا فإن إرادة الله تعالى ومشيئته هي الغالبة فوق كل شيء، اعتقد ان الله تعالى اراد ان ينشأ النبي ﷺ مع أسرة فيها الحنان والعاطفة والدفء حتى يتزود ويتغذى منها كأحد أبناء تلك الأسرة، لقد اختار الله تعالى له هذا البيت المملوء بالمحبة والعطاء الإنساني، أبا طالب وزوجته فاطمة بنت اسد سيدة الدار وصولاً إلى أصغر أفراد هذه الاسرة جعفر (الطيّار) وعلي بن أبي طالب ﷺ. هذه الأسماء الكبيرة البارزة يقيناً ما كانت لتجتمع في مكانٍ واحدٍ إلا بإرادة الله

= اعمامه يؤخرونه فيقول جده عبد المطلب: دعوا ابني فيمسح على ظهره ويقول: ان لبني هذا لشأناً» ورد ذكر هذا النص من قبل ابن اسحاق في سيرة ابن اسحاق، ج١، ص٤٣، ابن هشام، السيرة، ج١، ص١٠٩؛ الشَّهيلي، الروض الآنف، ج٢، ص١٨١-١٨٢.

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج١، ص٤٧؛ ابن هشام، السيرة، ج١، ص١١٦، ١٠٩؛ ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٧٤-٧٥، المقرئ، امتاع الأسماع، ج١، ص١٤.



ومشيئته، لقد شكلوا البيئة القريبة والمحيطية بالنبى ﷺ في سنوات نشأته الأولى فكانوا خير بيئة وخير رعاة له، فلم يظهر عليه في كل مراحل العمرية ما يشير إلى أنه كان يعاني من نقص في عاطفة الأبوين، لأنهما عوضاه عن ذلك النقص بمقدار كبير من الحب والحنان، والأمر يدعو إلى الدهشة هو أن تجتمع كل هذه العناوين البارزة وكل هذه العلامات المضيئة في أسرة واحدة، كأبي طالب وفاطمة بنت أسد وجعفر الطيار وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، الذين أخذوا على عاتقهم رعاية النبي ﷺ ومساندته على الدوام. من هنا بدأت لدينا المرحلة الانتقالية المهمة للنبي ﷺ داخل بيت عمه أبي طالب وهو بعمر الثامنة، لتبدأ وتنشأ علاقة وثيقة ومتينة بين النبي ﷺ وعمه، هذه العلاقة التي سيكتب لها أن تكون علاقة إنسانية عظيمة يضحي العم فيها بكل شيء من أجل علو ابن أخيه ونجاحه.

تذكر المرويات بعض اللامحات التي تعبر عن قيمة تلك العلاقة، نخص بالذكر هنا ما روي عن شكل الرعاية والحب الذي أكنه أبو طالب لابن أخيه، إذ قيل: إنه كان لا ينام إلا وابن أخيه إلى جواره ولا يخرج إلا وقد خرج معه، وكان أبو طالب يخصصه بالطعام الطيب<sup>(١)</sup>. لقد أخذت العلاقة الوطيدة بينهما تنمو وتتطور يوماً بعد آخر، حتى وجدنا أبا طالب شديد التعلق بابن أخيه إلى درجة عدم القدرة على مفارقتها حتى في رحلات عمله التجارية، إذ كان أبو طالب يعمل في التجارة شأنه في ذلك شأن باقي رجال مكة، وهذا العمل يتطلب منه السفر خارج مكة مع القوافل التجارية فيقضي أسابيعاً وأشهرًا في عمليات البيع والشراء قبل العودة، كانت تلك الرحلات التجارية محفوفة بالمخاطر وفيها الكثير من الازهاق مما لا يقدر على تحمله إلا الرجال الأشداء. وبالرغم من ذلك كله كان أبو طالب يصطحب معه النبي ﷺ وهو صبي صغير ما بين التاسعة والثانية عشرة، يصحبه معه في تلك الرحلات المرهقة لشدة تعلقه به كما قلنا سابقاً. لقد نقلت المرويات التاريخية تفاصيل إحدى تلك الرحلات التي لا نعتقد أنها كانت الوحيدة التي أصطحب أبو

(١) ابن سعد، الطبقات، ٣م، ١ج، ص ٧٥-٧٦.

طالب فيها ابن أخيه الصغير<sup>(١)</sup>. لقد جرت العادة أن الرجال حينما يخرجون لعمل شاق ويتطلب ذلك العمل قطع مسافات طويلة أو حينما يخرجون لحرب في كل الحالات فأنهم يتوقعون ان يتعرضوا لبعض الأخطار، كهجمات اللصوص وقطاع الطرق، فالقوافل التجارية التي يخرج فيها الرجال مهددة بالخطر فضلاً عن مشاق السفر وقطع مسافات طويلة ومن ثم فإن الرجال حينما يخرجون في هكذا رحلات لا يصطحبون معهم النساء والأطفال، لان من شأن النساء والأطفال ان يعيقوا حركتهم ويعطلوا دفاعهم عن أموالهم وممتلكاتهم، بل يعطلوا حركتهم وسرعة هروبهم من تلك المخاطر إن تطلب الأمر ذلك. اصطحب أبو طالب النبي ﷺ في تلك الرحلة التجارية التي وصل فيها إلى مناطق متعددة من ارض الشام كبصرى ومدين والمدن الأخرى الواقعة ما بين الحجاز والشام، فشهد تلك المدن التي تقع على هذه الطرق التجارية، ومروا بالتجمعات البشرية التي تدين بأديان سماوية أخرى كاليهودية والمسيحية، كما شاهد النبي ﷺ تلك المشاهد التي لاشك في انها غير مألوفة لديه كونه يراها لأول مرة، أجراس الكنائس والرهبان والنصارى والطقوس التي كانوا يقومون بها، وهي تختلف تماماً عما كان يراه في مكة من أفعال الوثنيين وعبادتهم للأصنام والأوثان، هذه المشاهدات تؤكد مجمل الدراسات الاستشراقية<sup>(٢)</sup> على أنها قد أثرت في شخصية النبي ﷺ بما يسهم في تكوينه المعرفي عن الأديان والنبوة، ما دفعه للتعلم على يد أحد القساوسة أو الرهبان وجاء بدين الإسلام!! إن أهم خصائص التأثير أن يستقي المتأثر فكره وعقيدته ونمط سلوكه ممن تأثر به، وحقيقة لا نجد ذلك فيما جاء به النبي محمد ﷺ من شريعة احتوت على مقومات متينة وناضجة ومقبولة أكثر بكثير من مقومات الشرائع السابقة ولاسيما في كتابه القرآن الكريم، الذي ظهر

(١) فيذكر ابن اسحاق: «ان ابا طالب خرج في ركب الى الشام تاجراً فلما تهيأ للرحيل واجمع السير صب له رسول الله ﷺ فأخذ بزمام ناقته... فرق له ابو طالب وقال: «والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا افارقه ابداً»، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص٥٣، كما ذكر هذا النص كل من ابن هشام، السيرة، ج١، ص١١٦، الطبري، تاريخ، ج٢، ص٢٧٧، البيهقي، دلائل، ج٢، ص٢٧.

(٢) منها على سبيل المثال: جولدتسيهر، ايجناس، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف موسى واخرون، القاهرة، ص١٢.

بصورة متقدمة جداً في الشكل والمضمون عن الكتب السماوية السابقة، فأين هو موقع تلك المشاهدات وتلك المؤثرات؟.

هنا نجد أنفسنا إزاء تساؤل في غاية الأهمية، انطلاقاً من حالة الإيمان الراسخ بان النبي ﷺ لم يسجد لصنم قط منذ أن ولد وحتى مبعثه المبارك، السؤال: ما هو دور البيئة الحاضنة له في ذلك؟ هل ساعدته على أن لا يسجد للأصنام؟ هل شاركتها تلك البيئة في الإعراض عن السجود للأصنام بعد أن أصبح جزءاً منها وهو بعمر الثامنة، ثم تدرج بمراحل عمره الأخرى قبل أن يُبعث بالنبوة، ما هو دورها وموقفها من النبي ﷺ وهو أحد أفراد تلك العائلة؟ أن أي عاقل منصف لا يمكن أن ينكر المستوى العالٍ من الطهارة والنقاء والمحبة التي احاطت بالنبي ﷺ لسنوات طويلة متمثلةً ببيت أبي طالب.

يجب أن يكون لدى كل مسلم يقين وإيمان راسخان بأن البيئة التي نشأ فيها النبي ﷺ وتربى فيها وقضى سنواته الأولى، هي بيئة صالحة وخالية من أشكال التنجيس التي كانت شائعة في مكة ومجتمعها آنذاك، هي بيئة طاهرة مطهرة بإرادة الله وبتوجيهه ومشيبته تبارك وتعالى. ولست أفهم موقف بعض المسلمين وهم يؤمنون بطهارة النبي ﷺ وعدم سجوده لصنم قط، يقولون في عمه أبي طالب الذي احتضنه ورعاه كان يتعبد الأصنام ويشرك بالله الواحد الأحد!!.

إن شخصية أبي طالب كان لها مستوى عالٍ من التأثير في رسول الله ﷺ، نستشف ذلك من حجم العلاقة الوطيدة بينهما، وعلى هذا الأساس لا يستبعد أن تكون بعض خصال النبي ﷺ وأخلاقه المميزة في السلوك والمعاملة والحديث هي مما اكتسبها من عمه أبي طالب. إن مرافقة النبي ﷺ الصغير لعمه في أسفاره وتنقلاته ومجالسه ومعاملاته مع الناس في القضايا التجارية والقضايا العامة الأخر تجعل منه مطلعاً على طبيعة أبي طالب ومدرراً لخصال شخصيته من صدق الحديث وأداء الأمانة وطيب التعامل مع الناس، ومن ثم أخذ منه الكثير. إننا إزاء صورة مميزة تمتع بها أبو طالب - للأسف - أسهمت بعض المرويات المزورة في تشويهها بنسبة الشرك وعبادة الأصنام إليه بدوافع متعددة على رأسها الدوافع السياسية.

### حياة النبي ﷺ الأولى مرحلتي الشباب والرجولة

لا تقدم لنا مصادر السيرة معلومات تفصيلية عن مرحلة الشباب من عمر النبي ﷺ، سوى أحداث متفرقة كمشاركته في حرب الفجار، وهي الحرب التي وقعت بين قبيلتي قيس (عيلان) من هوازن وقبيلة كنانة، إذ كان لقريش حلف مع كنانة فدخلت هذه الحرب لنصرة حليفها. إن سبب هذه الحرب يعود إلى قيام البراص بن قيس وهو من كنانة بقتل عروة الرحال من هوازن والاستيلاء على القافلة التجارية حين مرت بأراضي كنانة وهي تعود للنعمان بن المنذر، وكان يقوم على حمايتها أحد أفراد قبيلة قيس عيلان، فأدى ذلك إلى نشوب الحرب التي عرفت بحرب الفجار، كونها وقعت في الأشهر الحرم التي لا يجوز فيها الاقتتال وسفك الدماء، ولكنهم تقاتلوا في الأشهر الحرم ولذلك عرفت حربهم بحرب الفجار، ثم انتهت بالصلح بين الطرفين<sup>(١)</sup>.

كل المرويات الإسلامية التي ذكرت هذه الحرب تحدثت عن اشتراك النبي ﷺ فيها إلى جانب أعمامه، ولكنها لم تتفق حول عمره الشريف في ذلك الحدث، وعلى ما يبدو أن النبي ﷺ لم يكن قد تجاوز العشرين. أما عن الدور الذي قام به في تلك الحرب، فالمرويات تختلف في ذلك: منها من ذكرت أنه كان يرمي بالسهم مع أعمامه، ومنها من قالت إنه كان يناولهم السهام ولا يرمي، أو إنه كان يرد السهام عن أعمامه، ومنها من المحت إلى أنه شارك فعلياً بالقتال في الحرب، وهكذا اختلفت المرويات في التفاصيل ولكنها اجمعت على مشاركة النبي ﷺ في الحرب<sup>(٢)</sup>.

أما نحن فنرى بان النبي ﷺ قد عاصر وقوع تلك الحرب، لكننا لا نعتقد بمشاركته فيها، لأن تلك الحرب لم تكن لتمثل قضية إنسانية مشروعة يصح القتال فيها كقضايا الدفاع عن الأرض أو عن العرض، هذه الحرب مثلت حالة

(١) ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١١٩-١٢٠، ابن سعد، الطبقات، م٣، ج١، ص ٨٠-٨١؛ السهيلي، الروض الآنف، ج٢، ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٢٠، ابن سعد، الطبقات، م٣، ج١، ص ٨١.

نزاع وصراع لمصالح شخصية، كما ان هذا النزاع بين كنانة وهوازن وحلفائهما قد خلف وراءه دماء سالت من كلا الطرفين، لذا فان القول بمشاركة النبي ﷺ فيها قول باطل وغير منطقي وغير مقبول، لأنه عُرف منذ صغره بالابتعاد عن المنكرات والمظالم ومفاسد مجتمعه فكيف يشارك بحرب تسيل فيها الدماء البريئة لأجل مصالح شخصية!! إننا نؤكد معاصرة النبي ﷺ لأحداث هذه الحرب قبل بلوغه العشرين من عمره الشريف، كما نؤكد عدم مشاركته بها انطلاقاً من إيماننا بأنه لا ينتصر لطرف دون آخر في نزاع وصراع لا يمثل مرضاة الله تعالى.

بالانتقال إلى الحدث الآخر الذي أكدت المرويات الإسلامية معاصرة النبي ﷺ له، وهو حلف الفضول، الذي يعد من الأحداث البارزة التي وقعت في عهده قبل البعثة، قام هذا الحلف على مساعدة المظلوم والانتصار له حتى يستعيد حقه. فكانت أهدافه إنسانية مرموقة وهي تتوافق مع المبادئ الإسلامية التي انتشرت لاحقاً بعد البعثة، تشير المرويات إلى أن اصحاب هذه الفكرة اجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان لعقد هذا الحلف، وكان النبي ﷺ من بين من حضروا هذا الاجتماع وشهد أجوائه المباركة، كان يذكره باستمرار بكل خير كما جاء عند ابن هشام أن النبي ﷺ قال: «لو اني دعيت الى هذا الحلف في الإسلام لأجبت»<sup>(١)</sup>. نعتقد ان هذا الحلف بما فيه من مبادئ إنسانية ذات قيمة عليها هي التي دفعت النبي ﷺ إلى حضور هذا الحدث المهم في دار عبد الله بن جدعان والإشادة به على الدوام.

أما الأعمال والمهن التي قام بها النبي ﷺ حين كان صغيراً قبل زواجه من السيدة خديجة عليها السلام، فلم تكن مختلفة عن الاعمال التي كان الصبية والشباب يمارسونها في مكة، فقد عمل في رعي الاغنام لقاء أجور بسيطة في مكة، ذكر ذلك لبعض أصحابه انه كان يرعى الاغنام لأهل مكة بالقراريط، وهي إشارة إلى القيمة المادية البسيطة جداً التي كان يحصل عليها لقاء ذلك العمل، أسهم هذا الأمر في

(١) ابن هشام، السيرة، ج١، ص ٨٧، اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ١٧، ابن الاثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (ت- ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧)، ج١، ص ٥٧٠.

بناء شخصيته، لأن الاعتماد على النفس ومساعدة الأسرة في قوتها يؤدي الى ذلك. إن العمل برعي الأغنام لم يستمر طويلاً فسرعان ما بلغ النبي ﷺ مبلغ الشباب والقوة فأخذ يمارس الأعمال الشائعة في مكة، أعمال التجارة من البيع والشراء والخروج في ضمن القوافل التجارية<sup>(١)</sup>.

إن سنوات عمره الشريف الممتدة ما بين العشرين والخامسة والعشرين شهدت دخوله عالم التجارة، وكان من الطبيعي أن يبدأ بالأعمال التجارية البسيطة في داخل مكة، بعدها تطور في عمله فأصبح يشارك في القوافل التجارية المتوجهة الى مدن واسواق بعيدة عن مكة. أن مرويّات السيرة لا تتحدث كثيراً عن بداية العمل التجاري للنبي ﷺ إلا تلك الإشارة التي تحدثت عن خروجه للشام مُتاجراً بأموال السيدة خديجة عليها السلام، بعد أن اتفق معها على ذلك بحضور عمه أبي طالب، ان المرويّات تتحدث عن ذلك وكأن النبي ﷺ لم تكن له تجارب سابقة في العمل التجاري، فكانت البداية بأموال تلك السيدة.

إن طبيعة العمل التجاري تقتضي قيام المشتغل بهذا العمل التدرج في مراحلهِ، مرحلة بعد أخرى، فلما يصل إلى الخبرة والمعرفة التجارية وفهم أساليب العمل والقدرة على ممارسته بكل جزئياته، حين ذاك يتمكن من بلوغ المرحلة الأخيرة التي نعتقد انها تمثل المتاجرة بالأموال خارج حدود مكة والوصول إلى مدن الشام أو اليمن. هذا الأمر يجعلنا نفترض أن النبي ﷺ بعد أن بلغ العشرين من عمره الشريف بدأ يعمل في التجارة داخل حدود مكة، ومكة كانت مدينة قادرة على أن تستوعب الأعمال التجارية وأن تمنح المشتغلين بالتجارة الفرصة للكسب والربح خلال عمليات البيع والشراء والمبادلة، إذ إن أعداد الوافدين إليها أعداداً كبيرة مع ما يحملونه من بضائع متنوعة، ثم بعد ذلك تأتي المرحلة الثانية التي اكتسب فيها المشتغل الخبرة والمعرفة الكافية التي تؤهله للخروج بقوافل التجارة إلى مدن الشام واليمن.

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ١٠٤؛ السهيلي، الروض الأنف، ج٢، ص ١٨٢؛ المقرئ، امتناع الأسماع، ج١، ص ١٦.

يبدو إن السنوات التي قضاها النبي ﷺ وهو يعمل في التجارة قبل أن يلتقي مع السيدة خديجة ؓ أسهمت في أن يتعرف الناس على خصاله ومعاملاته التجارية القائمة على الصدق والأمانة وحسن التعامل، حتى عُرف بهذه الصفات الحميدة في داخل مكة، فكانت تلك مقدمات جيدة للحصول على وظائف أكثر أهمية بعد أن حاز على ثقة الناس، فمن الواضح أن بعض أصحاب الأموال في مكة ممن لا يتمكنون من الخروج والسفر ومتابعة تجارتهم بأنفسهم، وعلى وجه الخصوص من النساء، يستعينون بمن ينوب عنهم بتلك الأعمال التجارية والخروج مع القوافل إلى مدن بعيدة. وفي هذه الحالة تتم الاستعانة بمن عرف بالأمانة لقاء أجر متفق عليه<sup>(١)</sup>.

كان النبي محمد ﷺ قد نجح في أعماله التجارية قبل أن يلتقي بالسيدة خديجة ؓ، ومن المنطقي ان نفترض مع ما عرف من أمانته وصدقه أن يبادر بعض أصحاب الأموال إلى دعوته للعمل معهم والخروج للتجارة بأموالهم لقاء أجر محدد، إلا أن المرويات الإسلامية لم تتحدث إلا عن الاتفاق مع السيدة خديجة ؓ، كما أن طبيعة الخبر جاء بصيغة أن أبي طالب هو من سعى لتشغيل ابن أخيه عند السيدة خديجة ؓ، وهذا الكلام غير دقيق لأن أصحاب الأموال في مكة الغير قادرين على الخروج للأعمال التجارية بأنفسهم خارج مكة هم من يبحثون عن الأمان لتشغيلهم، وهذا الامر وفق تقديرنا ينطبق على اتفاق العمل الذي حصل للنبي ﷺ مع السيدة خديجة ؓ، فلا اعتقد انها كانت ستجد أفضل من النبي ﷺ حرصاً وأمانةً وصدقاً، وحين نطالع ما ذكره ابن اسحاق نجده متوافقاً مع هذا المعنى اذ قال: «انه لما بلغ خديجة ما بلغها من صدق حديثه وعظم امانته وكرم اخلاقه بعثت اليه فعرضت عليه ان يخرج في مالها تاجراً الى الشام وتعطيه افضل ما كانت تعطي غيره من التجار»<sup>(٢)</sup>.

اما حول الأجر الذي منحه السيدة خديجة ؓ للنبي ﷺ لقاء عمله معها، تذكر بعض المرويات ان أبا طالب قد طلب منها زيادة في الأجر الممنوح لابن

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ٥٧، ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١١٨-١١٩؛ السهيلي، الروض الأنف، ج٢، ص ٢١٩.

(٢) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ٥٩.

أخيه، وأن لا يتساوى أجره مع أجور غيره: «قال أبو طالب يا بن أخي قد بلغني ان خديجة استأجرت فلاناً بـكرين اي بجملين ولسنا نرضى لك بمثل ما اعطته، فهل لك ان تكلمها؟ قال: ما احببتُ، فخرج اليها فقال هل لك يا خديجة ان تستأجري محمداً، فقد بلغنا انك استأجرت فلاناً بـكرين ولسنا نرضى لمحمد دون اربع ابكار، فقالت خديجة: لو سألت ذاك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف لحبيب قريب»<sup>(١)</sup>.

إن الزيادة في الأجر فوق المستوى العام للأجور بنسبة (١٠٠٪) أمر لا يمكن تصديقه وقبوله، فهذه نسبة عالية جداً غير واردة في التعاملات التجارية، فضلاً عن سياق الرواية الذي يؤكد أن الزيادة جاءت بطلب من النبي ﷺ وعمه أبي طالب، وهذا لا ينسجم كذلك مع خصائص شخصيتهما القائمة على البساطة والتواضع والسهولة في التعامل. إن المضمون العام لهذه الرواية يبرز فيه الجانب المادي وهذا بعيد كل البعد عن توجهات النبي ﷺ ومقاصده، وعليه فأن ما ورد في هذه الرواية ضعيف جداً وغير مقبول.

بعدها خرج النبي ﷺ صوب الشام في أول تجارة بأموال السيدة خديجة عليها السلام، بصحبة غلام لها يدعى ميسرة يقوم على مساعدته، فكان خروجه مع إحدى القوافل التجارية من مكة، وكانت له خلال تلك الرحلة محطات عديدة مرَّ خلالها بأسواق كثيرة باع فيها واشترى، وفي مجمل تعاملاته التجارية كان النبي ﷺ كما عرف عنه صادقاً في عمله أميناً في معاملته، في حين كان ميسرة يراقبه مع إعجابه الشديد بما يراه ويسمعه. لقد أثمرت تلك الرحلة عن أرباح جيدة حققها النبي ﷺ، وعند عودته إلى مكة حاملاً معه الأخبار السارة للسيدة خديجة عليها السلام، قدم لها كشفاً حسابياً عن تلك المعاملات التجارية وأرباحها، ولما استمعت الى كلام ميسرة حول النبي ﷺ ازدادت إعجاباً به، وبأمانته وازدادت ثقتها به. هذه التجربة المشتركة يبدو انها خلقت شيء من المودة بإرادة الله تعالى ومشيتته بين النبي محمد ﷺ والسيدة خديجة عليها السلام<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن سعد، الطبقات، م٣، ج١، ص٨٣.

(٢) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص٥٩-٦٠، ابن هشام، السيرة، ج١، ص١٢١-١٢٢.



### زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة ؓ

بسبب النوايا الصادقة والمودة العالية التي نشأت بينهما على إثر ذلك العمل التجاري المشترك الذي تكلم بالنجاح ولما بلغ النبي ﷺ الخامسة والعشرين من عمره الشريف نضجت في ذهنيهما معاً فكرة الزواج، التي لا يمكن القطع الآن في مسألة من بادر إلى طرحها، كون المصادر تختلف في تحديد الطرف الذي عرض فكرة الزواج على الطرف الآخر، كما لا اجد ان البحث في هذه المسألة من الجدوى ما يجعلنا نحقق وندقق فيها كثيراً، مع اعتقادنا الراسخ أن الله تبارك وتعالى شاء وأراد لهذا الزواج ان يتم. لقد هيأها الله تعالى لتكون خير رفيقة وسند للنبي ﷺ حينما يُبعث بأمر النبوة ويبدأ بالدعوة، هو كان بحاجة الى امرأة حكيمة ناضجة تسهم معه فيما سيكلف به من أمر عظيم وخطير، فلم يكن بحاجة إلى امرأة صغيرة السن قليلة العقل والخبرة لا تتمتع بالحكمة، فيزيد ذلك من الأعباء والهموم عليه، وتعرقل مسيرته نحو نشر الدعوة الإسلامية. بإرادة الله تعالى نمت المودة والألفة بين قلوبهما في وقت سريع، وتبادرت فكرة الزواج لديهما في آن واحد، لذلك نحن لا نفضل البحث والتقصي في مسألة من كان صاحب فكرة الزواج هذه، لأننا نعتقد الخوض في تفاصيلها لا يؤدي الى نتيجة حتمية وكذلك قد يخدش الصورة الجميلة للسيدة خديجة ؓ، إذ لا يمكن مساقرة المرويات التي تقول إن السيدة خديجة ؓ هي التي أرسلت إلى النبي ﷺ رفيقتها نفيسة بنت منبه لتبلغه برغبتها الزواج منه حينما سألته: «ما يمنعك ان تتزوج؟ فقال: ما بيدي ما أتزوج به، قالت: فأنكفت ذلك، ودُعيت الى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟ قال: فمن هي، قالت: خديجة، قال فأنا افعل»<sup>(١)</sup>.

هذه الصياغات الحوارية التي لا يتعدى أطرافها شخصان أو ثلاثة، غالباً ما تكون مليئة بالمبالغات التي قد تُصنع في ضمن سياقاتها أدوار مهمة لبعض الشخصيات، ولعلنا نتحدث هنا عن نفيسة بنت منبه كيف انها أسهمت في إتمام هذا الزواج أو انها تصورات من وحي خيال الرواة والإخباريين حينما تجد حواراً بين النبي ﷺ

(١) ابن سعد، الطبقات، ٣م، ١ج، ص ٨٤.

والسيدة خديجة ؓ كالذي نقله ابن إسحاق: «خديجة قد بعثت الى النبي وقالت له يا بن عم اني قد رغبت فيك لقربتك مني وشرفك في قومك وبسطتك فيهم وامانتك عندهم وحسن خلقك وصدق حديثك»<sup>(١)</sup>. السؤال هنا من نقل هذا الحوار الذي دار بينهما؟ واقع الحال لا يمكن الاعتماد على هكذا نصوص تتضمن حواراً خاصاً بين النبي ﷺ والسيدة خديجة ؓ، لأنه ببساطة حديث ثنائي وخاص جداً، فكيف وصل مضمونه الى التداول بين عموم المسلمين قبل ان يتم تدوينه!! ثم كيف للرواة وعلماء المسلمين ان يستسيغوا التداول والتباحث ونشر تلك الحوارات الخاصة التي لا تتحقق منها أية فائدة للمسلمين سوى الاطلاع على خصوصيات حياة النبي ﷺ، الخصوصيات التي لا يقبل اي إنسان أن يتداولها الناس عن نفسه وأهل بيته.

في اعتقادي أن نشر هذه الحوارات وتداولها في المجالس العامة حتى وإن كانت أخبار حقيقية، لا يمكن ان تنال رضا النبي ﷺ وقبوله، فضلاً عن كون مضامينها قد تحمل بعض الدوافع الشخصية للتقليل من قيمة السيدة خديجة ؓ، ومن المهم هنا التأكيد على ان المبادرة في فكرة الزواج لا تشكل للمسلمين والمتطلعين لأخبار النبي ﷺ وسيرته أية أهمية، من بادر في طرح فكرة الزواج ومن عرضها على الثاني، ليس لذلك اية قيمة ويجب عدم البحث في هذه الجزئيات من حياة النبي ﷺ الخاصة احتراماً له، فكل منا لا يرغب في أن يبحث الناس ويتداولوا في خصوصياته العائلية، فكيف الحال ببنينا وسيدنا محمد المصطفى ﷺ. نؤكد مرة أخرى على أن هذا الزواج دخل في ضمن المشيئة الإلهية وتم بإرادة الله تعالى حتى لا يدخل إلى بيته إلا الصالحين من عباده وخديجة ؓ خير الصالحين من عباده.

تم هذا الزواج حينما بلغ عمره الشريف الخامسة والعشرين، وهذا موضع اتفاق الرواة والمؤرخين، إلا أن الاختلاف في مقدار عمر السيدة خديجة ؓ، لقد كانت تكبر النبي ﷺ بمقدار غير متفق عليه من السنوات، ونحن نعتقد أن عمرها

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ٦٠.

كان بحدود الثلاثون عاماً<sup>(١)</sup>، وبذلك يكون الفارق بينهما بحدود خمس سنوات. إن النبي ﷺ بزواجه من امرأة تكبره عمراً قد خالف القواعد والتقاليد السائدة في عصره التي تقوم على أن الرجل يتزوج ممن تصغره عمراً، وهذا المسار المعاكس للتقاليد السائدة قد يفسر لنا حاجته إلى امرأة تتمتع بالحكمة والعطاء والدعم العالٍ لخياراته وأدواره المستقبلية، هو لم يكن بحاجة إلى امرأة تستنزف طاقاته الذهنية والجسدية نحو تلبية حاجاتها وطلباتها كما هو حال القسم الأكبر من النساء. إن المرأة التي يمكن أن تشكل إضافة وقوة لزوجها بمساندتها ودعمها له هي التي بلغت من العمر والخبرة والعقل ما أهلها لذلك العطاء، وبقينا هذا الأمر لا يتحقق مع امرأة صغيرة السن قليلة الخبرة بالحياة وتقلباتها، كثيرة التطلع للمشاركة بمتعتها فتشغل الزوج وتستنزف طاقاته.

إن السيدة خديجة عليها السلام حين ارتبطت برسول الله ﷺ كانت امرأة ناضجة لديها من الحكمة والخبرة ما يؤهلها للمشاركة معه في الأدوار القادمة بالدعم والتشجيع، ولعلنا نتلمس ذلك النضج حين نطالع مرويات السيرة وهي تخبرنا أن النبي ﷺ كان يُكثر من التردد إلى غار حراء في مكانٍ منعزل يتعبد الله تعالى ويقضي الليالي هناك. هي لم تعترض ولم تكن عائقاً أمامه عندما كان يتوجه نحو غايته في غار حراء رغم أنه كان يقضي العديد من الليالي وحيداً لم يصطحب معه أحد، رغم ذلك هي لم تُظهر اعتراضاً عليه وعلى استمراره في ذلك لسنوات، كما هو حالها لم تعترض على مساره في الدعوة بالرغم من كونه كان معرضاً لنفسه وعياله للأخطار، أن مجمل مواقفها كانت داعمة ومساندة لمسيرته قبل انطلاق الدعوة وبعدها.

أما عن نسبها فهي السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهي امرأة تنتسب إلى قبيلة قريش بنسب واضح وصريح، فأبوها خويلد كان من زعماء قومه وقد ولد لخويلد ثلاث بنات هن خديجة عليها السلام زوجة النبي، وهالة ورفيقة، كما كان لخويلد ثلاثة أبناء هم العوام وهو والد الزبير بن العوام، وحزام وهو والد حكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد.

(١) ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٢١، ابن كثير، البداية، ج٢، ص ٣٦.

هنالك اراء مختلفة تتعلق بحياة السيدة خديجة ؓ قبل زواجها من النبي ﷺ وبعده، في مسائل تخص تحديد عمرها عند الزواج، أو عدد أبنائها منه، أو كونها أرملة أم باكر عند زواجه منها؟ ان القسم الاول من المصادر الإسلامية تؤكد على إنها كانت كبيرة السن أرملة سبق لها أن تزوجت مرتين، كان زواجها الأول من عتيق بن عائد المخزومي، أما زواجها الثاني فكان من أبي هالة بن زرارة بن نباش التميمي<sup>(١)</sup>. اما القسم الثاني من المصادر الإسلامية فانها تنفي اي زواج سابق للسيدة خديجة ؓ قبل النبي ﷺ وتؤكد على انها كانت باكرًا وأن عمرها كان بحدود الخامسة والعشرين كما هو مقدار عمر النبي ﷺ.

اما فيما يخص ابنائهما فقد جاء في القسم الاول من المصادر الإسلامية ان السيدة خديجة ؓ انجبت من النبي ﷺ غلامين هما القاسم وعبدالله، توفي الأبناء وهم صغار قبل البعثة النبوية المباركة، وكان القاسم قد عاش حتى تمكن من السير على قدميه، اما عبد الله فقد توفي صغيراً، ومن البنات أنجبت أربع هُنَّ: زينب التي تزوجت من أبي العاص بن الربيع وبقيت معه حتى السنة الثامنة للهجرة حيث توفيت ودفنت في البقيع، ورقية التي تزوجت من عتبة بن أبي لهب ثم طلقها بعد البعثة فتزوجها عثمان وبقيت معه إلى أن توفيت في المدينة في السنة الثانية للهجرة ودفنت في البقيع، وأم كلثوم التي كان من المقرر أن تتزوج من عتيبة بن أبي لهب ففارقها بعد البعثة بسبب أمر الدعوة فتزوجها عثمان بن عفان بعد وفاة أختها وبقيت معه حتى وفاتها في السنة التاسعة للهجرة ودفنت في البقيع، وَاخِر البنات السيدة فاطمة ؓ التي تزوجها علي بن أبي طالب ؓ بعد سنة واحدة من الهجرة إلى المدينة وأنجبت منه الحسن والحسين وزينب صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم توفيت بعد وفاة النبي ﷺ بمائة يوم<sup>(٢)</sup>. في المقابل هنالك من

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ٥٩-٦٠؛ ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٢٢؛ السهيلي، الروض الأنف، ج٢، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٢) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ٦٠-٦١؛ ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٢٢-١٢٣؛ السهيلي، الروض الأنف، ج٢، ص ٢٤١، ابن كثير، البداية، ج٢، ص ٣٥٩-٣٦٠.

يعترض على هذا السياق <sup>(١)</sup> فيرى أن زينب ورقية وأم كلثوم هُنَّ بنات هالة بنت خويلد أخت السيدة خديجة عليها السلام فلما توفيت هالة تولت السيدة خديجة عليها السلام رعايتهن فاصبحن ربائب النبي ﷺ.

إننا لا نعتقد ببعض ما ورد في الرأي الاول وكذلك بعض ما ورد في الرأي الثاني، فبنات هالة لا يمكن أن يتخلى عنهن ابناء عمومتهم من بني مخزوم وفق العادات العربية السائدة، ولذلك أرجح بثقة عالية ان زينب ورقية وأم كلثوم بنات السيدة خديجة عليها السلام ولكن من أزواجها السابقين المخزومي والتميمي، فلما تزوج منها النبي ﷺ اصبحن ربائبه يعاملهن كبناته. اما القول في مسألة ان السيدة خديجة عليها السلام لم يسبق لها الزواج قبل النبي ﷺ فهذا كلام غير منطقي لأن كل الإشارات التاريخية أكدت على انها امرأة ذات جمال وشرف ومكانة وأموال وهذه العناصر مجتمعة تلغي فكرة عدم زواجها قبل النبي ﷺ لأن الحدود السائدة في المجتمع المكي آنذاك لأعمار النساء المؤهلات للزواج لم تكن لتتجاوز الخامسة عشرة، وعليه فإننا لا نقبل بفكرة بقائها طوال تلك السنوات عازفة عن الزواج حتى لقاءها بالنبي ﷺ، فالقبول بفكرة عزوفها عن الزواج لأكثر من خمسة عشرة سنة لا تنسجم تماماً وطبيعة العادات والتقاليد الشائعة في مكة آنذاك. ناهيك عن أمر اخر وهو الأموال الكثيرة التي كانت بحوزتها وممارستها للعمل التجاري تؤكد لنا انها كانت بعمر كبير ما منحها الخبرة في العمل التجاري والقدرة على ادارة شؤونها المالية باستقلالية تامة دون أن يكون هنالك اي تدخل لأهلها في ذلك، ما يعني انها كانت متزوجة قبل النبي ﷺ، فلا يمكن ان تحصل المرأة صغيرة السن وغير المتزوجة على تلك الاستقلالية في العمل التجاري في ظروف واجواء المجتمع المكي القائمة آنذاك، لذلك نؤكد على ما ذكرناه سابقاً انها سبق وتزوجت مرتين قبل النبي ﷺ، كما أن عمرها كان بحدود الثلاثين عاماً وان بناتها باستثناء السيدة فاطمة عليها السلام هُنَّ من زيجاتها السابقة، اما الغلامين الذين توفاهما الله تعالى قبل المبعث القاسم وعبد الله مع السيدة فاطمة عليها السلام هم فقط ابنائها من النبي محمد ﷺ.

(١) ينظر: الطائي، نجاح، السيرة النبوية، دار الهدى لحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٥، ج١، ص ١٥٠-١٥١.

### المقدمات التي سبقت نزول الوحي

أما عن تلك المرحلة من حياة النبي ﷺ التي سبقت نزول الوحي الإلهي، فلا تقدم عنها المصادر التاريخية المعلومات الوافية، وليس أمامنا من خيار إلا بناء تصور افتراضي على وفق المعطيات البسيطة التي وردت في مصادر السيرة ولا سيما ما جاء في القرآن الكريم مع المحافظة على النسق المعلوم عن شخصية النبي ﷺ ومنهجه في التعامل مع البيئة المحيطة به.

من تلك المعطيات البسيطة نجد أن النبي ﷺ تصدى لخلاف كبير كاد أن يتسع ويؤدي إلى سفك الدماء بين المختلفين في مكة حول من ينال شرف وضع الحجر الأسود مكانه في قواعد وجدران بيت الله الحرام، حينما ردم الخلاف بين زعماء مكة وأشاع الوفاق والرضا والصلح بينهم، فقد كانت كل عشيرة تريد ذلك لنفسها وكاد هذا الخلاف أن يؤدي إلى الاقتتال فيما بينهم لما للحجر الأسود من قدسية وقيمة كبيرة لدى الجميع، فلما احتدم الخلاف بينهم قال أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وكان من سادات قريش وكبرائها: «يا معشر قريش، اجعلوا فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم، ففعلوا فكان أول داخل النبي محمد ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا. . . فلما انتهى إليهم واخبروه الخبر، قال: هَلُمُّ الي بثوب...، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا حتى اذا بلغوا موضعه وضعه هو بيده، ثم بنى عليه»<sup>(١)</sup>، فكان ذلك الأمر مما اظهر شخصية النبي ﷺ بشكل مميز وزاد من شأنه ومكانته بين قومه في السنوات الأخيرة قبل نزول الوحي عليه.

أما عن طبيعة عمله في السنوات التي سبقت مبعثه بالنبوة، نعتقد أنه كان يمارس حياته ومسؤولياته بشكل طبيعي شأنه في ذلك شأن أهل مكة، فحالات الإعداد لاستقبال الرسالة والنبوة التي تطلبت منه ان ينزل عن الناس يتعبد

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ٨٨، ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٢٧.

الله تعالى ويتهياً لما سيكلف به من أمر عظيم لم تمنعه من الاستمرار بممارسة أعماله التجارية ومتابعتها فهي جزء من مسؤوليته بتأمين حاجات العائلة. لقد كان النبي ﷺ مسؤولاً عن عائلة تتكون من ستة من الأبناء مع أمهم السيدة خديجة ؓ فضلاً عما تولى رعايتهم وكانوا بمثابة أبنائه كزيد بن حارثة والإمام علي بن أبي طالب ؓ، وبذلك كانوا أسرة كبيرة، تحمل مسؤوليتهم وأعباء قوتهم اليومي دون أدنى تقصير، كان يمارس أدواره بوعي ومسؤولية كاملة، لذلك من الإنصاف أن نبنى تصوراً منطقياً لما كان يقوم به داخل منزله وحجم وطبيعة المساعدة التي كان يقدمها لزوجته السيدة خديجة ؓ، لأننا نعتقد أن المساعدة كانت حاضره لزوجته داخل المنزل وهذا يتوافق تماماً مع شخصيته العظيمة ووصاياه الكثيرة بالمرأة. إلا أننا لا نجد تلك الصور في المرويات التي تحدثت عن حياة النبي ﷺ قبل البعثة، ولم يذكر شيء عن أخباره وهو يقوم بتأمين حاجات أسرته وقوتها، ولكن هذا النقص في مضامين المرويات لا يشفع لنا في أن لا نقدم تصوراً واقعياً لذلك الدور العائلي الذي قام به والذي لا يتقدم في أدائه على رسول الله ﷺ أي رجل مهما بلغ من الكرم والإحسان مع أهل بيته وأبنائه.

كما أننا نعتقد أن النبي ﷺ لم يتوقف عن العمل في التجارة بل استمر في ذلك، ومن المحتمل أن تفاصيل العمل قد اختلفت تبعاً للظروف والتطورات الجديدة في حياته، فبدلاً من الخروج من مكة في ضمن القوافل التجارية المتوجهة إلى مدن الشام وهو جزء من متطلبات العمل التجاري آنذاك، أعتقد أنه قد أخذ يشرف على أعمال التجارة بنفسه من داخل مكة ومن دون الخروج في تلك القوافل مستعيناً ببعض المساعدين الذين يقومون بما يكلفهم به من أعمال محددة لقاء أجر متفق عليه.

إذ لا يمكن تصور النبي ﷺ متوقف عن العمل، فذلك يمثل المورد الوحيد الذي يؤمن لعائلته احتياجاتهم وقوتهم، ولا يمكن الاعتقاد بأن أموال السيدة خديجة ؓ هي المورد الوحيد لمعيشتهم، هذا التفكير غير دقيق وغير واقعي تماماً، فمهما كانت تلك الأموال من الكثرة فهي ستنفد يوماً ما وتنتهي، كما أن الرسالة التي حملها على كتفيه وبلغها للناس أكدت على أهمية العمل وضرورته



لاستمرارية حياة الإنسان وديمومته على وجه الأرض، ومن باب أولى ان يطبق هو تلك المبادئ ويعمل وفق الضرورات والواجبات، لذلك لم يمكن قبول ما المحت اليه المرويات من اعتماده على أموال السيدة خديجة عليها السلام في إشارة صريحة إلى كونه عاطل عن العمل لا يقوم بواجباته ومسؤولياته تجاه أسرته بحجة أن هنالك أموالاً لدى زوجته السيد خديجة عليها السلام!!

في السنوات الأخيرة من حياته كان يُكثر من ذلك الانعزال عن الناس والانعطاع الى الله تعالى، السؤال المهم هنا: هذا الانعزال والانعطاع هل هو تكليفي من قبل الله تعالى أمره القيام به ام انه اجتهاد النبي ﷺ ورغبته في ذلك من تلقاء نفسه؟ في تقديرى الشخصى أن علاقة النبي ﷺ بالله تعالى لم تكن وليدة النزول الأول للوحي حينما بلغ الأربعين من عمره الشريف، بل كانت في وقت مبكر جداً بدليل تلك الرعاية والعناية الإلهية التي أحاطته منذ أن ولد، فكيف نظراً به انه لم يتلمس ولم يشعر بتلك العناية الإلهية ولم يرتبط بها قبل مبعثه بالنبوة!! هنالك إشارات كثيرة في القرآن الكريم تؤكد على أن الله تعالى يوجه من يختارهم من عباده حتى من غير الأنبياء كأمر موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَاكْلِيهِ فِي إِلْيَ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِّنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ <sup>(١)</sup>، بل حتى من المخلوقات غير البشرية كالنحل في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ <sup>(٢)</sup>، لينفذوا إرادة الله تعالى بفعل محدد، هذا النوع من الوحي والتوجيه الذي قد لا يشعر الموحى إليه أنه توجيه ووحى إلهي ولا يدرك عظمتة وقيمتة كما ندركها الآن، يُسيره ويهديه صوب تلك المسارات التي تنفذ إرادة الله تعالى، وهذا ما نعتقد انه تم وحصل مع رسول الله ﷺ قبل أن يُبعث بأمر النبوة، فهو كان مرتبطاً بالله تعالى وينفذ مشيئته عن طريق هذا النوع من الوحي الذي كان يوجه حركته على وفق الإرادة الإلهية، لأنه من الصعب

(١) سورة القصص، الآية (٧).

(٢) سورة النحل، الآية (٦٨).



الاعتقاد بأن حالة الانعزال في غار حراء هي فكرة محصورة باختيار النبي ﷺ واجتهاده دون أي تدخل إلهي.

لربما أحدهم يسأل ماهي ضرورات هذا الانقطاع والانعزال عن الناس؟ بكل بساطة نقول إن الأحداث التي سيُقبل عليها النبي ﷺ تستلزم منه الاستعداد المناسب لمواجهة المواقف الصعبة على جميع المستويات العسكرية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية بمستوى عالٍ من الثبات والتحكم والسيطرة، استعداد نفسي ومعرفي. أن السنوات الأخيرة من حياة النبي ﷺ التي سبقت نزول الوحي الإلهي شهدت هذه النوع من الاستعداد حسب ما نعتقد فتهيأ وتعلم وتعبّد الله تعالى في مكانٍ واحد هو غار حراء.

مازلنا نتحدث في الموضوعات التي سبقت نزول الوحي ونحن هنا إزاء تساؤلات مهمة لم نجد لها إجابات واضحة فيما نقل إلينا من المرويات، أن احد أهم هذه التساؤلات التي درست حياة النبي ﷺ قبل مبعثه بالنبوة: بأي دين كان ﷺ يتعبّد الله تعالى؟ وإلى من كان يتوجه بدعائه، لمن يناجي ويدعو ويلتمس ويطلب الحاجات؟ هل ان النبي ﷺ قبل مبعثه كان يتوسل الى الخالق؟ بأي لغة وبأي طريقة كان ذلك؟ ان المرويات التي بحوزتنا أكدت على ان النبي ﷺ لم يتعبّد الأصنام والأوثان لم يسجد لصنم قط منذ ان ولد وحتى مبعثه بالنبوة، كان بعيد كل البعد عن عبادة قومه، كما ان المنطقة التي كانت تمثل بيئة شبه الجزيرة العربية التي نشأ فيها وشكلت الجزء الأهم من الثقافة التي أحاطت به واحتك بها لم تؤثر في معتقداته على الرغم من أن الأطر الدينية التي تواجدت في هذه البيئة لم تكن ذات خيارات كثيرة، الخيار الأول عبادة الأصنام والأوثان، والخيار الثاني التوجه إلى اعتناق اليهودية أو النصرانية من خلال أتباعهما المنتشرين في الحجاز، أما الخيار الأخير الحنيفية وهم بقايا من دين إبراهيم الخليل عليه السلام، عرفوا بالحنفاء الموحدين لأنهم لم يتعبّدوا الأصنام والأوثان انما تعبّدوا الله تبارك وتعالى.

على الرغم من أن هذه الخيارات المتعددة كانت قريبة منه إلا ان عناية الله تعالى له قد عصمته من تلك الانحرافات العقيدية فضلاً عما تمتع به من حكمة ومعرفة

جعلته يدرك ما لتلك العبادات من مسارات غير سليمة، لذلك هو لم يتعبد الأصنام والأوثان إطلاقاً منذ ان ولد وحتى مبعثه المبارك، وهنالك من المرويات ما يدعم هذا الكلام بشكل واضح وان كان العقل يدعمه بشكل يقيني ووافي الا انه لا بأس بإيراد تلك المرويات، فقد جاء فيها: ان النبي ﷺ كان في إحدى رحلاته الى الشام يتاجر بأموال السيدة خديجة عليها السلام وعند إحدى معاملاته في البيع قال له أحد المشتريين: احلف باللات والعزى، فقال النبي ﷺ ما حلفت بهما قط واني لأمر فأعرض عنهما<sup>(١)</sup>، وعلى ما يبدو ان القسم كان جزء من ثقافة ذلك العصر للتيقن والاطمئنان عند شراء سلعٍ ما من خلال طلب المشتري قسم البائع على سلامتها وخلوها من الغش والتلاعب. ان العقيدة التي كان عليها النبي ﷺ قبل مبعثه قد تكون قريبة من تلك العقيدة التي حملها الموحدون الاحناف في توحيد الله تعالى، إلا انه لم يُعرف على انه أحد الحنفاء على الرغم من توافقه معهم بمسألة التوحيد.

إن الأحناف الذين تواجدوا في مكة في عصر النبي ﷺ وهم افراد معدودين ، لفتوا انتباهه والتقوا ببعضهم في حياته الأولى قبل المبعث، من بين ما أعجب بهم هو قس بني ساعدة الذي يعد من حكماء العرب وممن امتلكوا فن الخطابة وتميزوا بها، فقد كان متواجداً في سوق عكاظ حينما رآه النبي ﷺ في الاشهر الحرم وهو راكباً على جمل أحمر ويخطب في الناس خطبته المليئة بالإشارات التوحيدية التي يقول فيها: «يا أيها الناس استمعوا واسمعوا وعوا: كل من عاش مات، وكل من مات فات وكل ما هو آت آت، ليل داج وسماء ذات ابراج ونجوم تزهو وبحار تزخر وجبال مرصاة وانهار مجرأة، ان في السماء لخبراً، وان في الأرض لعبراً، ارى الناس يمرون ولا يرجعون ارضوا بالإقامة فأقاموا؟ ام تركوا فناموا؟ ثم انشأ يقول: يقسم قسماً بالله لا اثم فيه: ان لله تعالى ديناً هو ارضى مما انتم عليه»<sup>(٢)</sup>، وما كان كلام قس بني ساعده الأيادي إلا انه دعوة الى عبادة الله تعالى، وتحذير الناس وتنبههم الى ما هم قائمون عليه من عبادة الأصنام والأوثان.

(١) ابن سعد، الطبقات، م٣، ج١، ص٨٣.

(٢) البيهقي، دلائل، ج٢، ص١٠١-١٠٢.

إنّ فحوى هذه الرواية يؤكد لنا على ان المجتمع الجاهلي احتوى على بعض المصلحين الذين تنبهوا لأحوال الناس وحياتهم المزرية المليئة بالانحرافات والمظالم، وكانوا يمارسون وظيفة التنبيه والدعوة للإصلاح قبل أن يُبعث النبي محمد ﷺ برسالته الإنسانية الإصلاحية من الله تعالى.

لعلنا إزاء تساؤل مشروع ذكرناه سابقاً: نحن نؤمن بأن النبي محمداً ﷺ كان يتعبد الله تعالى قبل أن يُبعث بالنبوة. ولكن بأي طريقة تعبد ربه؟ وهنا بالإمكان تخيل صورة معقولة لطريقة عبادة النبي ﷺ قبل مبعثه، فالركوع والسجود على ما يبدو من الممارسات القديمة التي سبقت حتى ظهور الإسلام وهذا ما تؤكد الآيات (٢٦) من سورة الحج التي ورد فيها قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، فالإشارة إلى الركوع والسجود على أنهما أجزاء مهمة من الممارسة العبادية والتوجه إلى الله تعالى منذ أزمنة قديمة سبقت عصر النبي محمد ﷺ تمتد إلى عهد نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام تُنصِّفنا في هذا التصور: ان النبي محمداً ﷺ كان قد تعبد الله تعالى ساجداً وراكعاً قبل مبعثه بالنبوة فلما أصبح نبي وفرضت الصلاة تعلم حركاتها واصلوها بشكل مباشر من الأمين جبرائيل عليه السلام، وضُبطت وحُدِّدت عدداً ووقتاً وشكلاً. ان النبي ﷺ بما كان يمتلكه من معرفة وفطرة طيبة كان يمارس تلك العبادة ويتوجه إلى الله تعالى بها ولا سيما في السنوات الأخيرة قبل مبعثه.

أما عن الأوقات والمُدد التي اعتكف فيها وانقطع عن الناس، فوفقاً لما ذكره ابن إسحاق لم تتعدَّ شهراً من كل عام<sup>(١)</sup>، اما ابن هشام فقد حدد ذلك الشهر بشهر رمضان<sup>(٢)</sup>، وهذا يدعم ما ذكرناه سابقاً من أن النبي ﷺ لا يمكن أن ينصرف إلى أمر العبادة طوال الوقت تاركاً مسؤولياته الأسرية ومتطلباتهم وتفاصيل العمل، لقد كان النبي ﷺ يوازن بين كل تلك المسؤوليات بما فيها العبادية.

(١) اذ قال ابن اسحاق ما نصه «كان رسول الله ﷺ يخرج الى حِراء في كل عام شهراً من السنة ينسك فيه»، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ١٠١.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٥٤.

لقد تمتع النبي ﷺ بسلوكٍ حسن وحديثٍ طيب، اشتهر بصدقه وأمانته فكسب الناس بحلاوة لسانه ورقة قلبه، هكذا كان قبل مبعثه بالنبوة، لقد كانت هذه الخصال التي تمتع بها تعكس صورة المؤمن الصادق الذي يجسد ارادة الله تعالى من بني البشر، كما انه توج هذه الخصال بتوحيد الله تعالى وابتعاده عن الشرك.

لقد اخذت المقدمات التي سبقت المبعث النبوي المبارك حيزاً كبيراً من تأويلات وتفسيرات المستشرقين الذين حلقوا بعيداً في خيالاتهم وجاءوا برؤى وتفسيرات لحالات الانعزال والانقطاع عن الناس في غار حراء، أو أحوال النبي ﷺ عند تلقيه الوحي الإلهي، تفسيرات البعض منهم كانت غريبة وغير مقبولة، كان هدفهم الأول عدم الاعتراف بنبوته، لذلك فسروا تلك الأحوال على انها أوهام وتخيلات لا تخرج عن نطاق وحدود الحالات النفسية ولم تكن وحياً صادراً من قبل الله تعالى.

إن الحديث عن تلك المقدمات بحاجة إلى رؤية افتراضية نسدُ فيها الثغرات التي تركتها المصادر الإسلامية، التي لم تقدم لنا التفاصيل الدقيقة عن أحواله في السنوات الأخيرة التي سبقت نزول الوحي، وقد ذكرنا في وقتٍ سابق أن النبي ﷺ كان يوازن بين مسؤولياته الأسرية المعيشية وبين الاستعداد للتكليف الإلهي، فهناك أسرة وأبناء يقعون تحت مسؤوليته عليه أن يؤمن لهم معاشهم وقوتهم، كما عليه أن يساعد زوجته في رعايتهم ومتابعة مختلف مصالحهم، فضلاً عن ذلك كان يخصص من وقته ما يسمح له بالتردد على غار حراء من حينٍ إلى آخر، مع التأكيد على الإشارة السابقة إلى أن المدة التي كان يقضيها في هذا الانقطاع والانعزال لم تكن طويلة، وإلا فان ذلك سيشكل تعطيلاً لمصالح الأسرة وحاجاتها.

يجب ان لا يفهم ذلك السلوك من النبي ﷺ إلا كونه حالة استعداد وتهيؤ وترقب لاستقبال أمر النبوة. ان الإمكانيات التي تمتع بها من الصبر الكبير والحكمة الواسعة والشجاعة والرغبة الجامحة في اصلاح أحوال الناس والتي أهلتها للنجاح والثبات في تجارب مريرة وصعبة للغاية ومليئة بالأخطار إنما هي منتجات ذلك الاستعداد. إن الدعوة الإسلامية لم يكن دربها معبد بالورود،

لقد كانت مسيرة حافلة بالكثير من الأخطار على مستوى المواجهات الفكرية والمواجهات العسكرية والضغط الاقتصادي والاجتماعية. إن تحمل أعباء قيادة الناس ومسؤوليتهم في ظل هكذا مخاطر ضخمة لا يمكن أن تقع من دون عملية إعداد سابق وتخطيط واضح وهذا ما نعتقد أنه حصل خلال السنوات التي سبقت نزول الوحي، فكان تعليمًا وتلقينًا وإعدادًا إلهيًا لنبية المصطفى محمد ﷺ. إن الدور القيادي والمسؤول قد عرّض النبي ﷺ لمواقف مليئة بالأخطار والآلام والأحزان، والتساؤلات العديدة لأجل إحراجه ليس فقط أمام أعدائه وإنما أمام أتباعه وإضعاف موقفه وحجته. هذه المواقف التي سيمر بها النبي ﷺ على امتداد سنوات الدعوة كان بحاجة إلى أن يسبقها إعداد عالٍ المستوى فيكون النبي ﷺ بمستوى المواجهات ويخرج منها ظافرًا دون انكسار.

إن حالة الإعداد هذه لاشك أنها جعلت النبي ﷺ يطلع على المسار العام لدعوته وأهم الأخطار والتحديات التي سيواجهها في المستقبل، سؤال آخر في غاية الأهمية: هل ان الله تعالى كشف الغيب للنبي محمد ﷺ فجعله يطلع ويعلم بمسارات الدعوة والعقبات والتحديات التي سيتعرض لها والمشاكل الكبيرة التي ستواجهه؟ أم ان الله تعالى ترك النبي ﷺ يُفاجأ بتلك الأخطار والتحديات الكبيرة والتقلبات والمتغيرات خلال مسار الدعوة؟

في تقديري ان جزءاً من حالة الإعداد تلك التي حصلت في غار حراء قبل نزول الوحي نعتقد ان الله تعالى كشف فيها الغطاء للنبي ﷺ عن المسار العام لدعوته، وجعله عالماً بحجم تلك التحديات والأخطار، ولكن من دون ان يُطلع على كامل التفاصيل، وإلا فإننا لا يمكن أن نعتقد بتكليف الله تبارك وتعالى نبيه الكريم بمهمة الدعوة ويتركه هكذا يُفاجأ كل يوم وكل لحظة بخاطر داهم ومؤامرة تحاك ضده و ضد أتباعه. إن مسألة الثبات والصمود في مواجهة المواقف الصعبة العسيرة مسألة في غاية الأهمية يجب أن يتحلى بها النبي ﷺ بوصفه القائد، فالظهور بصورة معاكسه كالضعف أو التردد أو الخوف، ستؤدي الى فقدان الثقة بينه وبين اصحابه مما ينعكس ذلك سلباً عليهم ويُحدث حالة الانكسار والضعف بين صفوفهم ويؤثر

في الحركة العامة للدعوة. إن المحافظة على حالة الثبات والاستمرار في الدعوة كان مرتبطاً بالنسق الذي ظهر عليه الرسول الأكرم ﷺ، فلم نجده في المعارك الدامية إلا ثابتاً في موقعه حتى في لحظات الهزيمة وفرار معظم أصحابه لم تظهر عليه علامات الانكسار والتراجع إنما خطواته كانت صوب الأمام باستمرار، هذه الثقة العالية التي كانت من أبرز سمات شخصيته في مراحل الدعوة وذلك الثبات العالي يضعنا إزاء تصور منطقي ومعقول في أن حالة الإعداد الإلهي له خلال تلك السنوات قد أثمرت عن هذا النتاج المتميز الفريد الذي ظهر بنسقٍ واحد طوال سنوات الدعوة.





## الفصل الثالث:

# البعثة بالنبوة والصراع مع قريش حتى الهجرة

- نزول الوحي على النبي ﷺ في غار حراء
- انطلاق الدعوة إلى الإسلام
- الهجرة إلى بلاد الحبشة
- مقاطعة بني هاشم في مكة
- وفاة أبي طالب وخديجة عليهما السلام
- بنو هاشم بعد وفاة زعيمهم أبي طالب
- البحث عن موطن للدعوة خارج مكة
- عرض الدعوة على القبائل الوافدة على مكة
- اللقاء مع جماعة من أهل المدينة (يثرب)
- بيعة العقبة الأولى
- بيعة العقبة الثانية
- أسباب اعتناق الأوس والخزرج للإسلام





## **(البعثة بالنبوة والصراع مع قريش حتى الهجرة)**

### **نزول الوحي على النبي ﷺ في غار حراء**

هناك ثوابت لا يمكن التنازل عنها (أولاً) أن النبي ﷺ منذ الصغر بدت عليه علامات الحكمة والثبات والشجاعة والصبر والقدرة على القيادة والحكم، (ثانياً) كان عالماً عارفاً مطلعاً بأن الله تعالى قد اختاره لأمرٍ عظيم، هو كان في مرحلة الانتظار للبدء بالدعوة. لذلك أي صورة قدمتها لنا المرويات الإسلامية ولا تنسجم مع هذه الثوابت تصبح غير مقبولة مهما كانت تلك الرواية محط عناية الرواة والمؤرخين وقبولهم.

نتابع مضامين بعض هذه المرويات الإسلامية الخاصة بنزول الوحي لأجل أن نلاحظ مدى محافظتها على الثوابت التي ذكرناها، وهل قدمت صورة حقيقية أم صور بعيدة عن الواقع وغير دقيقة، فعن النزول الأول للوحي يرد ما نصه عن قول رسول الله ﷺ: «فجاءني جبريلُ، وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتابٌ، فقال اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ قال: فغَتَّنِي به حتى ظننتُ أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ قال: فغَتَّنِي به حتى ظننتُ أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ماذا أقرأ؟ قال: فغَتَّنِي به حتى ظننتُ أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك الا افتداء منه ان يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \*

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿١﴾<sup>(١)</sup>، في رواية أخرى النبي ﷺ يصف نفسه قائلاً: «فجثوتُ لركبتي وانا قائم، ثم رجعتُ ترجفُ بوادري ثم دخلتُ على خديجة، فقلت: زملوني زملوني! حتى ذهب عني الروح»<sup>(٢)</sup>، في مقطعٍ آخر «رجع محمد ﷺ مسرعاً الى خديجة فأخبرها خبره فقالت: كلا يا بن عم لا تقل ذلك، فإن الله لا يفعل ذلك بك ابداً، انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وان خلقتك لكريم، ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل فأخبرته ما أخبرها محمد ﷺ، فقال ورقة والله ان ابن عمك لصادق وانه ليأتيه الناموس الأكبر»<sup>(٣)</sup>. ثم تأخر عليه الوحي بالنزول فأصيب بحزن شديد وفق ما ينقل الطبري فدفعه ذلك الى قمم الجبال يريد ان يرمي بنفسه، فكان كلما هم على فعل ذلك ظهر له جبريل ﷺ فيقول له انت نبي الله فيهدأ ويسكن<sup>(٤)</sup>.

ان المتتبع لهذه الصور والتمثيل لهذه المشاهد سرعان ما يشعر انه إزاء إنسان آخر غير النبي محمد ﷺ (شخصٌ ضعيف، ومتردد، وخائف لا يعلم ماذا يفعل وماذا أصابه هو بحاجة إلى شخص آخر يقوم بطمأننته وتهديته وإعلامه ان ما مر به كان من أمر النبوة والوحي).

لقد شوهت المرويات الإسلامية الصورة الناصعة للنبي ﷺ، ولم تنصفه في وصف تلك الأحوال التي كان يمر بها عند تلقيه الوحي، هذا التشويه لا نعلم على وجه اليقين هل كان مقصوداً أم عفوي؟ هكذا هي صورة النبي ﷺ في المرويات الإسلامية، صورة مفتعلة غير حقيقية، والغريب إن الرواة والمؤرخين الذين تناقلوا هكذا مرويات ودونوها لم ينقدوا مضامينها إطلاقاً بالرغم من أن بعضهم كانوا من

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٧٣. ينظر كذلك بصيغ متشابهة: ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ٥٧٥؛ المقرئ، امتاع، ج١، ص ٢٠.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٢٩٨، البهقي، دلائل، ج٢، ص ١٣٥-١٣٦، ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ٥٧٥.

(٣) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ١٠٢، ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٥٦، ابن سعد، الطبقات، م٤، ج١، ص ١٣٠.

(٤) الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٣٠٣.

المتفقهين في أمور الدين وعلى علم ودراية بعلم الحديث وتفسير القرآن الكريم ومع ذلك احتوت كتبهم على هذه الصور المسيئة للنبي ﷺ.

النبي ﷺ لم يكن بذلك الضعف ولم يكن شخصاً لا يعرف ماذا حصل معه، ولم يكن بحاجة الى ورقة بن نوفل أو غيره حتى يُثبتوا الأمر في قلبه، لقد كان عالماً وعارفاً ومطلعاً ومُهيأً لهذا الأمر، فالمقدمات التي سبقت نزول الوحي كانت مرحلة إعداد الهي له كما ذكرنا سابقاً لأجل أن يتحلى بالثبات في كل المواقف التي سيشهدها لاحقاً في مسيرته بالدعوة، لان اي ضعف أو شعور بالخوف يبدو عليه سينعكس ذلك على اتباعه ومسار الدعوة، ولن يدعم ذلك مديات تأثيره على الناس حتى يؤمنوا بدعوته، ولن يدعم النجاحات الكبيرة التي توجت بفتح مكة ونشر الإسلام في عموم شبه الجزيرة العربية في حياته. لذا فإن ما أورده المصادر الإسلامية من روايات في أجزاء كثيرة منها كان غير حقيقي وغير دقيق وهو زائف لا يمثل حقيقة شخصية النبي ﷺ إطلاقاً.

إننا هنا مجبرين على ان نتعامل مع هذه المضامين التي أساءت لشخص النبي ﷺ على انها كانت عفوية وغير مقصودة، على اقل تقدير فيما يتعلق بالناقل الأول للرواية ونصنف ما ذكره في ضمن السياقات العفوية غير المقصودة التي لا تحمل اي دوافع للإساءة الى رسول الله ﷺ، الراوي الأول فهمَ وفَسَّرَ حرص النبي ﷺ وقلقه من هذا التكليف الإلهي بأمر النبوة والدعوة على أنه خوف وفزع، في حين إننا قد وضعنا له وصفاً آخر.

يقوم هذا الوصف على فكرة الحرص الشديد والخشية من عدم النجاح في المهمة العظيمة التي أوكلت للنبي ﷺ. إن اي إنسان مجتهد في حياته حين يُكلف للقيام بعملٍ مهم لاشك في انه سيشعر بالقلق بسبب حرصه الشديد على إتمام تلك المسؤولية بنجاح، وهذا ما نلنّه قد حصل مع النبي ﷺ في مسألة التكليف الإلهي بالرسالة وتلقي للوحي، فهو كان يعلم ويعرف أن الله تعالى قد اختاره لأمر النبوة، وكان ينتظر تلك اللحظة التي تبدأ فيها مهمته، فلما نزل الوحي وبدأ التكليف الإلهي ظهرت عليه هذه العلامات التي عبرنا عنها بأنها حرص شديد وقلق، الا ان من نقل

الأخبار عن النبي ﷺ فهم تلك الاعراض على أنها خوف وفزع وتوهان فعبروا عنها بألستهم ثم تناقلها الرواة ودونها المؤرخون بصورتها الحالية غير الدقيقة.

إن الصورة الواقعية والمقبولة لهذا الحدث العظيم تكشف ملامحها الحقيقية أحوال النبي ﷺ التي سبقت تلقيه الآيات الأولى من القرآن الكريم، نحن نعتقد أن البعثة بالنبوة وفق ما نقل عن أئمة اهل البيت (عليهم السلام) وقعت في السابع والعشرين من شهر رجب قبل بلوغ النبي ﷺ سن الأربعين بثلاث سنوات فقد تحدثت المصادر التاريخية عن الرؤى الصادقة التي كانت تأتيه في المنام: «ان أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من النبوة، حين اراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح»<sup>(١)</sup>، كما أن الله تعالى أراد تكريمه في مرحلة ابتداء النبوة، فقل ان له لما كان يخرج لحاجة ما ويتعد عن البيوت والناس في شعاب مكة وبطون أوديتها، فلا يمر بحجر وشجر إلا وسمع: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت عن يمينه وشماله فلا يرى إلا الحجر والشجر، فمكث على هذا الحال حتى نزل عليه القرآن في غار حراء في شهر رمضان عند بلوغه الأربعين<sup>(٢)</sup>. هذه الإشارات تدل على أن النبي ﷺ بُعث بالنبوة قبل ابتداء نزول الآيات القرآنية في غار حراء، وقد استثمر هذا الوقت في الاستعداد والتهيؤ لأمر الدعوة من خلال ترده على غار حراء وانعزاله عن الناس. اما ابتداء نزول الآيات القرآنية في غار حراء والذي تزامن مع بلوغ النبي ﷺ للأربعين من عمره الشريف، نعتقد أن الأمين جبريل (عليه السلام) لما نزل بتلك الآيات من سورة العلق في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾<sup>(٣)</sup> رددها النبي ﷺ بعده والتصقت في قلبه دون ان يشعر بالخوف والفزع، أو انه أمام أمر مجهول لا يعلم عنه اي شيء، هل يمكن لنا ان نتخيل هذا الموقف العظيم ونستشعر تأثير تلك الكلمات في رسول الله ﷺ وهو يردد كلمات الله التامات خلف جبريل (عليه السلام)، هل بالإمكان

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٥٧.

(٣) سورة العلق، الآيات (١-٥).

إدراك عظمتها وتأثيرها في قلبه وعقله ومشاعره؟ في أي المديات تجلت وإلى أي الحدود وصلت وبلغت روحه الطاهرة وهو يردد كلام الله المنزل عليه، وهل يمكن تخيل أجواء الفرح والسعادة التي شعر بها النبي ﷺ عند نزول الوحي وهو يعلم أن الله تعالى قد اختاره للنبوة، هل يمكن تخيل مشاعره في تلك اللحظات، يقيناً أنها مزيج من مشاعر الفرح والسعادة التي لا توصف لأن هذا الاختيار هو تشریف عظيم له من الله تعالى.

إن هذا المزيج من مشاعر السعادة والفرح الغامر مع الإحساس بالمسؤولية تجاه ما كُلف به هي في الواقع الأحوال التي كان عليها رسول الله ﷺ في ذلك الوقت والتي تم التعبير عنها بشكلٍ يتعد عن الصواب.

### المستشرقون والوحي المنزل على النبي ﷺ

لقد انشغل المستشرقون منذ وقتٍ مبكر يعود الى قرون العصور الوسطى الاوربية بدراسة ظاهرة الوحي، والعمل على ابعاد حقيقة المصدر الالهي للوحي الذي تلقاه النبي ﷺ عن طريق تفسيرات متعددة تراوحت بين الاساءة الصريحة المتعمدة، وبين الإنكار المذهب الذي يدعي الفكرة الموضوعية الحيادية.

من أبرز الأفكار التي تداولها المستشرقون لتفسير الوحي المحمدي كانت الحالات المرضية التي نسبوها للنبي ﷺ، بعد ان ربطوا بين الأعراض التي كانت تظهر عليه في اوقات تلقيه الوحي الالهي وبين أعراض مرضى الصرع<sup>(١)</sup>، مستندين على ما تضمنته المرويات الإسلامية من معلومات وظفوها في هذا الشأن، فقد جاء عن السيدة عائشة قولها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً»<sup>(٢)</sup>. وعن عبد الله بن عمر: «قلت: يا رسول الله هل تحس بالوحي؟ قال: نعم أسمع صلاصل ثم أثبت عند ذلك، وما من مرة يوحى

(١) الغزالي، مشاق بشير، القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٨، ص ٥٣-٥٤.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢١.

إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض مني»<sup>(١)</sup>. ففسر بعض المستشرقين هذه الاعراض الخارجية على كونها نوبات من الصرع كانت تصيب النبي ﷺ فيغيب عن صوابه ويسيل العرق منه وتعتريه التشنجات، فاذا افاق من الغيوبة ذكر أنه أوحى إليه<sup>(٢)</sup>.

في حين ان بعضهم جاء بتفسيرات آخر غير بعيدة عن تهمة الصرع، تؤكد على ان الأوهام التي اصابته هي الوصف المناسب للوحي المحمدي، فقد أكد المستشرق وليم ميور على ان المشاهدات التي حفلت بها رحلات النبي ﷺ الى مدن الشام كالرموز القديمة والاساطير اليهودية والكنائس المسيحية وطقوسها قد أثرت في نفسه وجعلته ينصرف الى التأمل والتفكير المنعزل والطويل بحثاً عن الدين الحقيقي، وفي غمرة هذه الظروف توهم بأنه يتلقى وحياً من الله<sup>(٣)</sup>.

ان فكرة الوهم والاعتقاد الخاطئ ما زالت موضع تداول المستشرقين، ولعلنا ندرك ان المطالبة باعتراف استشراقي صريح بالوحي الالهي المنزل على النبي محمد ﷺ هو انتحار مسيحي، لعلنا ان اعترافهم هذا معناه اعترافاً تاماً بالقرآن الكريم وما تضمنه من حقائق في مقدمتها انحراف العقيدة المسيحية وبطلانها. لذلك قد تبدو التفسيرات الاخيرة للوحي تتضمن الكثير من عبارات التسامح والتعاطف مع شخصية النبي ﷺ الا انها في نهاية المطاف لا تعترف بحقيقة الوحي، ومنها قول المستشرق مونتجمري وات: «فالقول بأن محمداً كان صادقاً لا يعني أن القرآن وحي حق وأنه من صنع الله، إذ يمكن أن نعتقد بدون تناقض أن محمداً كان مقتنعاً بأن الوحي ينزل عليه من عند الله وأن نؤمن في الوقت نفسه بأنه كان مخطئاً»<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج-٣، ص ٢٢.

(٢) ينظر: بودلي، رونالد فكتور، حياة محمد الرسول، ترجمة عبدالحميد جودة السحار ومحمد محمد فرج، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٥٢-٥٣.

(٣) Muir, sir William, The Muir, sir William, The life of Mohammed from original sources, Edinburgh, 1923, p. 11-12.

(٤) وات، محمد في المدينة، ص ٤٩٦.

### أول من آمن بالدعوة

من الطبيعي اننا نتسأل في هذه المرحلة المهمة من تاريخ الدعوة الإسلامية بعد ما حصل في غار حراء ما هي خطوات النبي ﷺ الاولى، والى من سيتوجه ليخبره بهذا الأمر العظيم؟ هل كان يفكر في الاشخاص الذين سيعتمد عليهم كثيراً لمساندته؟ ولكن من هم؟ هل كان المحبون المقربون جداً منه بحاجة الى ان يدعوهم للإسلام أم انهم اعلنوا عن ايمانهم ونصرتهم قبل أن يدعوهم لذلك، من هؤلاء؟ ويبقى السؤال الابرز من أول الناس ايماناً وتصديقاً ودعماً للنبي ﷺ ودعوته؟

بالعودة إلى المرويات الإسلامية نجد أنها تكاد تجمع على أن أول الناس هي السيدة خديجة عليها السلام أخبرها النبي ﷺ بالذي حصل فكانت أول المصدقين به وأول المؤمنين بدعوته، أما عن أول الرجال تظهر لنا خلافاً كبيرة حول أكثر من شخصية، فبعض المرويات تؤكد على ان علي بن طالب عليه السلام كان مع النبي ﷺ في غار حراء وكان أول الناس، في حين مرويات أخرى تؤكد على ان صاحبه أبي بكر كان أول الرجال المصدقين بدعوة النبي ﷺ والداخلين للإسلام<sup>(١)</sup>.

ان الخلاف السياسي الذي فتك بالمسلمين من بعد وفاة النبي ﷺ قد أسهم كثيراً في دفع بعضهم نحو تبني سياقات مفتعلة، ولاسيما بمسألة الأسبقية في اعتناق الإسلام. نحن اليوم لا نسعى الى مخالفة مضامين تلك المرويات انما نطرح رؤيتنا على وفق ما نعتقد سيقاً طبيعياً اتبعه النبي ﷺ خلال مسار الدعوة، إذ ليس من المعقول ان يكلف النبي ﷺ بأمر عظيم وبالغ الخطورة والأهمية كهذا ويتوجه إلى زوجته حتى يخبرها بذلك!! بالرغم من كل ما ذكرناه حول فضائل السيدة خديجة عليها السلام وأدوارها المشرفة المساندة له في الدعوة، ولكن النبي ﷺ كان بحاجة في تلك اللحظة إلى التصديق والتأييد والمؤازرة من شخصية لها مكانتها الاجتماعية ونفوذهما القوي داخل مكة، تلك المكانة وذلك النفوذ كان أبو طالب

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ١١٩-١٢٠، ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٦٢، الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٣٠٩-٣١٧؛ البيهقي، دلائل، ج٢، ص ١٦١-١٦٣، ابن كثير، البداية، ج٣، ص ٣٦.



يتمتع به وهو اقرب الناس واعرفهم بابن أخيه، فهل يُعقل أن النبي ﷺ يتجاهل اخباره بالأمر أو طلب المساندة منه قبل الشروع بالدعوة!! وهو كبير عشيرة بني هاشم والمسؤول عن النبي ﷺ فضلاً عن كونه المُرَبِّي له.

ان حالة من الفهم المتأني لظروف واجواء ذلك الموقف الذي شهده رسول الله ﷺ يدفعنا نحو الاعتقاد الراسخ بضرورة ان يلجأ الى عمه أبي طالب مباشرة، بعد ان تلقى الوحي وأمره الله تعالى بدعوة الناس، فلا يمكن ان يبدأ خطواته الاولى بالدعوة من دون خطة عمل يسير على وفقها، خطة العمل هذه يقيناً انها وضعت بمشاورة ومشاركة عمه ابو طالب، اذ كيف للنبي ﷺ ان يبدأ دعوته من دون التباحث في الأمر معه؟ كما إن طبيعة شخصية النبي ﷺ المعروفة بالالتزام والاحترام تشجعنا كذلك على وضع هذه الفرضية، فنقول: إن النبي ﷺ ما ان نزل من غار حراء إلى مكة حتى توجه إلى عمه أبي طالب ليخبره بالأمر ويستشيرهُ ويطلب مساعدته، ولو جاز لنا ان نتخيل هذا المشهد الذي يخبر فيه النبي ﷺ عمه أبا طالب بان الله تبارك وتعالى قد اختاره لأمر النبوة وامره بدعوة الناس لبذ الشرك وعبادة الواحد الاحد، كيف ستكون ردة فعل أبي طالب وهو أعلم الناس واكثرهم معرفة بصدق النبي ﷺ؟ هل يسمع منه ثم يرفض هذه الدعوة أم يسمع منه فيصدق ويؤمن بها؟ وهل كان دافع النبي ﷺ في اخبار عمه لأجل إطلاعه على الأمر فقط أم لإطلاعه ودعوته لا اعتناق الإسلام وطلب المساندة والعون في ذلك؟

ان اي منصف عاقل سيجيب بسهولة عن هذه التساؤلات المنطقية التي لم تتعرض لها المصادر الإسلامية بصراحة ووضوح مكتفين بالقول إن أبا طالب توفي وهو على دين الشرك!! كما أورد ابن هشام في موضوع بدأ أمر الصلاة حين شاهد أبي طالب النبي ﷺ يصلي وإلى جواره الامام علي عليه السلام فقال: «يا ابن اخي ما هذا الدين الذي اراك تدين به؟ قال: أي عمّ هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رُسله، ودين ابينا ابراهيم، بعثني الله به رسولاً الى العباد، وأنت أي عمّ أحقّ من أجابني اليه وأعانني عليه، فقال أبو طالب: أي ابن أخني اني لا استطيع ان افارق دين

آبائي وما كانوا عليه»<sup>(١)</sup>، فهل يُعقل هذا الكلام من رجل أكثر الناس معرفةً بصدق النبي ﷺ ودقته في وصف الأشياء وتوضيحها، وهل يُعقل ان يكتفي النبي ﷺ بهذا الجواب فيصرف اهتمامه عن عمه ولا يلح في مسألة اقناعه باعتناق الإسلام!!.

إن العديد من الأدلة العقلية الواضحة تقول بأنه كان أول من عُرضت عليه الدعوة، وأول من علم بخبرها من رسول الله ﷺ، وأول من آمن بها ودخل الإسلام وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإن محمداً عبده ورسوله، ولكن في جلسته تلك مع النبي ﷺ نعتقدُ أنهما اتفقا على الطريقة التي سينصره فيها خلال مسار الدعوة، والتي كانت تقتضي إخفاء أبي طالب لإيمانه بالدعوة وعدم مجاهرته لأجل أن يتمكن من توفير القدر الأكبر من الدعم والحماية للنبي ﷺ، كذلك ليكون حلقة التواصل مع مشركي مكة الذين لم يعطوا الفرصة لابن أخيه أن يخاطبهم أو يدعوهم أو حتى يناظرهم لعلهم يستجيبون للدعوة.

إن التأمل في أجواء العلاقة بين النبي ﷺ وعمه أبي طالب يُوصلنا الى صور عظيمة مليئة بالتفاني والتضحية والإيمان بالله تعالى، فمن يا ترى صاحب فكرة إخفاء إسلام أبي طالب؟ لقد عادت تلك الفكرة بفوائد كبيرة لمصلحة الدعوة الإسلامية في مكة، ولكنها بالوقت نفسه سمحت لأعداء هذا الرجل وأعداء ذريته ان ينالوا من مواقفه العظيمة ويقللوا من قيمتها ويتناولوا عليه بالقول إنه مات مشركاً!!.

ان من يتصف بالشجاعة وعزة النفس والكرامة العالية كما هو حال أبي طالب ليس من السهل عليه ان يُخفي اختياره وفعله وإيمانه بالله تعالى ونبوة محمد ﷺ، ولا سيما طبيعة هذا الاختيار يتناغم مع أخلاق أبي طالب صاحب القيم والمبادئ الإنسانية العالية. أما عن إخفاء أبي طالب اعتناقه الإسلام وتوحيده لله تعالى فهو يدخل ضمن توجيه الله تعالى لنبيه الكريم كجزء من الخطوات الضرورية لمسار الدعوة، فتشكيل طوق الحماية للنبي ﷺ في مكة بما يسمح له بالحركة ومخاطبة

الناس ودعوتهم ضمن الأسباب الطبيعية لم يكن ليتحقق إلا عن طريق وجود عمه أبي طالب بما لديه من مكانة اجتماعية كبيرة، ولو كان قد أعلن اعتناقه للإسلام، لكانت مهمته في توفير الحماية والسند لرسول الله ﷺ ضعيفة جداً، فضلاً عن الدور الآخر الذي قام بأعبائه عند بقاءه حلقة الوصل بين النبي ﷺ من جهة وزعماء مكة من جهة أخرى. إذ لم يتمكن النبي ﷺ من مخاطبتهم بشكل مباشر لمواقفهم المتشعبة والرافضة للدعوة فكانت الاستعانة بعمه لمخاطبتهم هو جزء من إلقاء الحجة عليهم في الاستجابة أو عدمها. كما أنه من المفيد الإشارة هنا في الحديث عن موقف أبي طالب إلى عدم ظهور أي إشارات في مضامين المرويات الإسلامية تدل على رفضه للدعوة أو تضامنه مع قريش لنقول بعدها انه لم يترك تلك الديانة البائسة عبادة الأصنام والأوثان حتى مماته.

كان يوماً مرهقاً لرسول الله ﷺ، فبعد تلقيه الوحي ولقائه بأبي طالب كما نعتقد توجه الى داره حيث السيدة الفاضلة خديجة ﷺ التي كانت موفقة في تعاملها معه على مدار الخط، إذ لم تتدمر يوماً ولم تقف عائلاً بإزاء مهامه الكثيرة التي كانت على عاتقه، بل كانت دائماً عاملاً داعماً ومساعداً له كما هو موقف أبي طالب، وفي تقديره أن أبا طالب وخديجة ﷺ انما جعلهما الله تبارك وتعالى من بين الأعمدة الراسخة الثابتة التي أسهمت في دعم النبي ﷺ لمرحلة مهمة ومحددة حتى حان موعد وفاتهما فتزامن ذلك في وقتٍ متقاربٍ جداً، بعد أن قطعاً شوطاً مهماً ساعداً فيه النبي ﷺ على الانطلاق بالدعوة والاستمرار حتى تحقيق النجاح.

عند دخول النبي ﷺ الى بيته كانت السيدة خديجة ﷺ بانتظاره، ولم تبدو عليه اي من علامات الخوف والفرع لما شهدته في غار حراء، كما لم يكن بحاجة الى تفسير ما شهدته وتوضيحه، إنما دخل واثقاً وعارفاً وسعيداً بما حصل معه من التشريف والتكليف الإلهي، ولكنه في الوقت نفسه كان شديد التعب مرهقاً، فقص على زوجته السيدة خديجة ﷺ الخبر، وكان جوابها بثقة عالية وروح مطمئنة انك لتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم... وكأنها كانت تنتظر هذه

اللحظة فلم يظهر في كلماتها أي لون من ألوان الرفض أو الحيرة والاستغراب أو حتى المفاجئة والاضطراب.

إما ما ذكرته بعض المرويات الإسلامية من أن النبي ﷺ قال لزوجته زملوني زملوني وكان مرتعداً خائفاً!! فهذا المعنى لا يستقيم مع ما ذكرناه انفاً.

### انطلاق الدعوة الإسلامية

بأمر النبي ﷺ بالدعوة للإسلام وتوحيد الله تعالى وترك عبادة الأصنام، فلم تكن في بدايتها دعوة عامة ولم يُوجه خلالها خطاباً عاماً أمام الناس، إنما اتخذ من المخاطبات الفردية الخاصة أسلوباً له في الدعوة، إذ كان النبي ﷺ يدعو الناس فرداً فرداً ولا يدعوهم جماعةً جماعة. إن الأمر يبدو منطقياً جداً، لأنه في منهج الحركات والتيارات والأديان والأفكار الناشئة لا يمكن البدء بالدعوة الجماعية ومخاطبة الناس على وجه العموم، لأن حجم الاستجابة سيكون ضعيفاً جداً إن لم يكن معدوماً، في حين أن مخاطبة الأفراد بشكل خاص قد تحقق من النتائج ما لا تحققه الخطاب العامة المعلنه.

إن النبي ﷺ كان بحاجة إلى قاعدة من المؤمنين ليشكلوا القاعدة والنواة لاتباعه المسلمين، ثم بعد ذلك سيشكلون هؤلاء قوة إضافية تُديم استمرارية الدعوة وتوسع من نطاقها، لذلك بدأ دعوته بتشكيل هذه القاعدة من خلال (الدعوة الفردية الخاصة) التي استغرقت بحدود ثلاث سنوات<sup>(١)</sup> والتي سماها بعضهم خطأً بالمرحلة السرية من الدعوة، ولم تكن بالسرية إطلاقاً إنما كانت دعوة خاصة موجهة للأفراد وليس للجماعات، فخير الدعوة والنبوة لم يكن مجهولاً عن أهل مكة، كما لم يراع في الدعوة الكتمان حتى نسميها بمرحلة الدعوة السرية، صحيح أن تحركات النبي ﷺ لم تأخذ الشكل العلني ولم يعتلي المنابر العامة أو يخطب في الأسواق أو المناسبات التي يجتمع فيها الناس في السنوات الثلاث الأولى، ولكنه كان يتحرك بشكلٍ معلوم لدى بعض أهل مكة، خلال سعيه لإقناع الأفراد بقبول

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ١٢٦، ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٦٩.

الدعوة واعتناق الإسلام ممن كان يرى فيهم الاستعداد لقبول الأفكار الجديدة، وله تأثير فيهم عن طريق مخاطبة عقولهم، هذه التحركات تصدق عليها التسمية التي وضعناها (الدعوة الفردية الخاصة)، التي نتج عنها وبفضل جهود كبيرة منه دخول عشرات المكين إلى الإسلام فشكّلوا بذلك القاعدة الأولى للمسلمين.

بدأ النبي ﷺ بالمقربين المحيطين به والأصدقاء، ومن الطبيعي على وفق منهجه في الدعوة الفردية الخاصة أن يتتابع دخول المكين إلى الإسلام واحداً بعد الآخر. لقد أصبح هذا التتابع والأسبقية في اعتناق الإسلام من العوامل الرئيسة في ترجيح بعض الصحابة وتقديمهم على بعض وفي تقييم مكاناتهم في داخل المجتمع الإسلامي لاحقاً، بل حتى في تقرير العطاء المالي لهم.

بناءً على ذلك فإن أول من دعاه النبي ﷺ إلى اعتناق الإسلام وفق ما نعتقده نحن عمه أبو طالب على الرغم من أن المرويات والأخبار في هذه المسألة تقدم تصورات آخر حول الأسبقية في اعتناق الإسلام، في الرجال خاصة لأن السيدة خديجة ؓ كانت أول النساء اللواتي دخلن الإسلام وهذا محل اتفاق بين جميع المسلمين. إن اختلاف المرويات حول أول الرجال إسلاماً لم يمنعنا من تقديم رؤيتنا الموضوعية القائمة على أن أبا طالب هو أول الرجال والنساء ثم يأتي دور السيدة خديجة ؓ، أما ثالث ورابع التسلسل فهما علي بن أبي طالب ؓ وزيد بن حارثة كونهما جزءاً من بيت النبوة ومن أكثر المحيطين بالنبي ﷺ رفقةً وملازمة، بعدها يأتي دور صديقه أبو بكر وهو خامس الأشخاص الذين اعتنقوا الإسلام ليتسلسل باقي الصحابة الذين لم يتجاوز عددهم في المرحلة الأولى من الدعوة بأكثر من اثنين وخمسين مسلماً ومسلمة<sup>(١)</sup>، على اختلاف طبقاتهم، شملوا كل ألوان المجتمع المكي آنذاك، فيهم الغني والفقير وفيهم الحر والعبد.

هذه المرحلة الأولى من الدعوة يمكن أن تحدد زمنياً بعد نزول الوحي مباشرةً

(١) للاطلاع تفصيلاً على أسماء الصحابة الأوائل الداخلين في الإسلام يمكن الرجوع إلى: ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ١٢٤-١٢٥، ابن هشام، السيرة، ج١، ص ١٦٦-١٦٩، البيهقي، دلائل، ج٢، ص ١٧٣-١٧٤.

لأن النبي ﷺ باشر دعوته تلك بإخبار عمه ومحادثته، وعن طريق إخباره لزوجته وهكذا باقي المحيطين به، حتى اتسعت الدائرة وشملت الأصدقاء أو الذين لديهم استعداد لقبول الأفكار الجديدة من أهل مكة. ونجد أنه من الضروري تسليط الضوء على قيمة الموقف الإيجابي من الدعوة في تلك المرحلة المبكرة، فموقف الذين صدّقوا النبي ﷺ واتبعوا دعوته في وقت كان المجتمع المكي تسيطر عليه أجواء الوثنية وتفصيلها ولم يكن مستعداً لقبول أي فكرة جديدة، يشكل موقفاً عظيماً. إذ إن معارضة ديانة أهل مكة الوثنية وأنماط حياتهم السائدة آنذاك قد يولد كثيراً من الأخطار والمشاكل لكل من انضم إلى هذه الدعوة الجديدة على حياتهم وأموالهم وعلاقاتهم الاجتماعية. لذلك نحن نعتقد أن المسلمين الأوائل الذين صدّقوا النبي ﷺ وآمنوا بدعوته في سنواتها الأولى إنما كانوا يمثلون موقفاً بطولياً فيه كثير من الشجاعة والتضحية لتحديثهم قريشاً وقوتها وغطرستها، إن تصديق النبي ﷺ والإيمان بدعوته في ظل الظروف الصعبة والخطيرة التي كانت تمثلها البيئة الوثنية المكية يمثل قيمة كبيرة وشرفاً عظيماً، عبروا عنه بمتهى المصادقية في ظل مصير ومستقبل مجهول.

لقد تميز الخطاب القرآني في هذه المرحلة بملاءمته للوضع السائد آنذاك مع انطلاق الدعوة، فلم يكن شديد اللهجة ولم يهاجم عبادة أهل مكة، إنما ركز على بعض الحقائق التي تُنبه الإنسان إلى الكون وعظمة الخالق وتثير التساؤلات في داخل عقل الإنسان وتدفعه نحو التفكير والتأمل في الكون وفي الخلق والخالق، نحو البحث عن الحقيقة المتناقضة مع ما كان سائداً في مكة آنذاك. لقد تدرج الخطاب القرآني في دعوة الناس تدرجاً لآلام الظروف التي أحاطت بالنبي ﷺ، السنوات الثلاث الأولى منها تضمن الخطاب القرآني في تعريف الإنسان بخالقه وتعريفه كذلك بطريقة خلقه، وشمول الله تعالى له برعايته وعنايته ولطفه كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ، \* مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ، فَقَدَرَهُ، \* ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ، \* ثُمَّ أَمَانَهُ، فَأَقْبَرَهُ، \* ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ، ﴿<sup>(١)</sup>، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ \* وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ

\* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١﴾، هذه الكلمات ذكر فيها الله تعالى بأنه هو الخالق والمعطي وصاحب الفضل الكبير على الإنسان ويدعوه الى التأمل والتدبر في خلقه فيقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ \* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ \* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ \* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢)، ومع ذلك يبقى بنو البشر غارقين في جهلهم وعصيانهم لله. إلا ان اللطف الإلهي والرعاية لم تنقطع وتتوقف بل استمرت كما جاء في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى \* الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى \* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى \* وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ (٣)، إذ نلاحظ الإرشاد الإلهي للإنسان وتوجيهه المستمر لم يتركه هائماً على وجهه يستكشف الأشياء بمفرده، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ \* عَلَّمَ الْقُرْآنَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ \* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (٤)، هذا الإرشاد والتوجيه بقصد أن يسلك الإنسان الدروب السليمة الصالحة التي تؤدي الى نجاته وسعادته في الحياة الدنيا.

ثم إن الآيات القرآنية الأولى احتوت على معاني جديدة على أهل مكة، كالإشارة الى يوم القيامة، ويوم الحساب، وحياة ما بعد الموت، ومجازاة المحسنين بالأجر والثواب ومعاقبة المذنبين، فشكلت صوراً جديدة على مساحة معرفتهم الدينية كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ \* وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ \* وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ \* وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخُلَّتْ \* وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ \* بَيَّأَتْهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ \* فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ \* فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا \* وَنَقْلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا \* وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ \* فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا \* وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ (٥)، وهكذا فان هذه المعاني التي تشير إلى يوم الحساب وتقسيم الناس إلى صنفين صنف يثاب على أفعال الخير وصنف يحاسب بحساب عسيراً على أفعالهم السيئة، هي من المعاني الجديدة على أهل مكة لم تكن واضحة ولم تكن مألوفاً من قبل.

(١) سورة البلد، الآيات (٨-١٠).

(٢) سورة الغاشية، الآيات (١٧-٢٠).

(٣) سورة الاعلى، الآيات (١-٤).

(٤) سورة الرحمن، الآيات (١-٤).

(٥) سورة الانشقاق، الآيات (١-١٢).



كما ان الآيات الأولى لم تخلو من مخاطبة واضحة وصريحة لقريش كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ \* إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ \* فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ \* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾<sup>(١)</sup>، وهو خطاب مباشر إلى أهل مكة أن لا يعبدوا سوى الله تعالى، هو الذي أطعمهم من جوع وجعل بلدهم بلداً آمناً. لقد احتوى الخطاب القرآني على لغة واضحة خاطب فيها عقول من وجهت اليهم الدعوة وقلوبهم، لم يحتوِ الخطاب الأول على الغلظة والشدّة بقدر ما احتوى على التعريف والتذكير والتحذير لأجل إبعادهم عن طريق الشرك بالله تعالى، ففي السنوات الأولى للدعوة لم ينتقد القرآن الكريم عبادة أهل مكة حينئذ لم تشعر قريش بالخطورة ولم تتحرك لمواجهة الدعوة إلا بعد انقضاء السنوات الثلاث الأولى.

بعد انقضاء ثلاث سنوات من انطلاق الدعوة ونجاح النبي ﷺ في كسب أكثر من خمسين مسلماً ومسلمة امنوا بقناعة تامة ورغبة صادقة بما جاء به، تشكلت القاعدة الأولى من المسلمين الذين سيسهمون مع النبي ﷺ في التحول الى مرحلة الدعوة العامة ومخاطبة الناس جميعاً. لقد بدء هذا النمط من الخطاب والدعوة بعد أن جاء الأمر الإلهي مخاطباً الرسول الكريم بالجهر بالدعوة ومخاطبة عموم اهل مكة والقبائل الوافدة على المدينة، وكانت البداية مع عشيرة النبي ﷺ تنفيذاً لأمر الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ \* وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ \* فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، فقام النبي ﷺ بدعوة بني عبدالمطلب إلى الطعام وقد حضر عنده قرابة الأربعين رجلاً من بينهم أعمامه أبو طالب وأبو لهب والعباس وحمزة، وبعد ان اكملوا طعامهم قال لهم: «يا بني عبد المطلب اني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومهُ بأفضل مما قد جئتمكم به، اني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى ان أدعوكم اليه، فإيكم يؤازرنني على هذا الأمر... فأحجم القوم عنه جميعاً، وقال علي: أنا يا نبي

(١) سورة قريش، الآيات (١-٤).

(٢) سورة الشعراء، الآيات (٢١٤-٢١٦).



الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي، ثم قال: ان هذا أخي، ووصيي، وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا»<sup>(١)</sup>. ويبدو ان اصحاب هذا النص من المؤرخين لم يوفقوا في وصف حالة بني عبدالمطلب من دعوة النبي ﷺ، إذ قد يبدو من سياقه ان الجميع كانوا معارضين في حين ان الشخص الوحيد المعارض كان عمه أبي لهب، فيما عداه كان الجميع مستعد لبذل كل ما يتمكن عليه في سبيل نصرته ومساندته، اولهم كان الشيخ الجليل أبو طالب، وعمه حمزة بن عبدالمطلب، وأبن عمه جعفر بن أبي طالب وباقي الحضور، أما الإشارة الصريحة الواردة في الرواية في ان النبي ﷺ أكد على أن الإمام علي بن أبي طالب ﷺ خليفته فيهم وعليهم السمع والطاعة له !!! فهذا ما نعتقده زيادة مقصودة يُراد منها تسقيط ما ذكر عن مواقف النصره والمؤازرة التي وقفها أمير المؤمنين تجاه النبي الأكرم ﷺ. لأنه لا يمكن ان يصدر عن النبي ﷺ قول كهذا يقلل من قيمة واعتبار كبار بني هاشم وبالخصوص أبي طالب بقوله (خليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا) في الوقت الذي كان الإمام علي ﷺ يناهز الثلاث عشرة سنة من عمره. اننا نعتقد ان النبي ﷺ قد تحدث عن مكانة الامام ﷺ بأنه أخيه ووصيه، ولا نعتقد بأنه تحدث عن كونه خليفته عليهم، لان الوقت مبكر جداً للحديث عن الخلافة والرئاسة، هو مازال في بداية مشوار الدعوة يأمل في نصرتهم ومؤازرتهم وليس من المنطق الحديث في هذا الوقت عن الخلافة، ناهيك عن ادب الحديث الذي عرف عن النبي ﷺ، والتعامل المهذب المليء بالاحترام تجاه أعمامه وأبناء عشيرته وبالخصوص عمه أبي طالب فكيف يقول لهم (اسمعوا له وأطيعوا!!!).

انطلق النبي ﷺ بعدها بالتبليغ والدعوة في عموم مكة مستفيداً من التجمعات العامة والاسواق والوافدين من مختلف القبائل العربية، فانتشر خبر الدعوة واصبح الشغل الشاغل لأهل مكة والمتطعين لأخبارها، هنا بدأت قريش تتعرض للنبي ﷺ بالسخرية والاستهزاء وادوا بذلك التقليل من قيمة واهمية ما يدعوههم اليه، مما ساهم في عزوف الناس عن الاستماع اليه والتفاعل مع دعوته، وكان ذلك يشعر النبي ﷺ

(١) الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٣٢٠-٣٢١، ابن الاثير، الكامل، ج١، ص ٥٨٦

بالألم والحزن فانزل الله تعالى قوله المبارك: ﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُوْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ \* إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ \* الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ \* وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ \* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ \* وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ <sup>(١)</sup>، فامتثل النبي ﷺ لأمر ربه واستمر يدعو الناس دون ان يلتفت إلى سخرية بعضهم. إن اسلوب الخطاب العام الذي اتبعه النبي ﷺ خلال هذه المرحلة بدأ يستفز زعماء مكة، لاسيما وقد احتوت الآيات القرآنية على انتقادات صريحة لعبادتهم الوثنية وشركهم بالله الواحد الأحد، ثم شكل النبي محمد ﷺ بتحركاته وكسبه لعدد من المكيين عامل ضغط اخر على زعماء مكة، الا ان هذا النجاح في كسب المزيد من المؤيدين للدعوة، لم يقابله نجاح مماثل في التأثير على موقف زعماء مكة واصحاب القرار فيها، على الرغم من كونه كان معروفاً لديهم بخلقه الرفيع وصدق حديثه وايفاءه بالعهود والأمانات ومكانته الرفيعة في مكة فضلاً عن عوده اياهم بالخير والصلاح. في المقابل فان شعور زعماء مكة بخطورة الموقف أخذ يتصاعد يوماً بعد اخر حتى ظهرت ردود أفعالهم على شكل خطوات واضحة متسلسلة لإيقاف الدعوة ومواجهتها بكل الطرق والأساليب.

كانت البداية في مواجهة الدعوة من خلال محاولات الإغراء واللين، حينما سعوا الى إغرائه بمكاسب الدنيا، فعرضوا عليه ما يشاء من الأموال والنساء والجاه في مقابل تركه لهذه الدعوة والتوقف عنها، لم يكن النبي ﷺ يستمع اليهم أو يلتفت إلى ما يقدمونه، كان جوابه واضحاً صريحاً: «لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري، ما تركت الأمر حتى يظهره الله أو اهلك في طلبه» <sup>(٢)</sup>، ثم بعد ذلك حاولوا الضغط على عمه أبي طالب لعله يتمكن من إيقاف تحركات ابن أخيه، فقالوا له: يا أبا طالب ان ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه احلامنا، وضلل آبائنا، فأما ان تكفه عنا، وأما ان تخلي بيننا وبينه، فهدأهم أبو طالب ثم انصرفوا عنه.

(١) سورة الحجر، الآيات (٩٤-٩٩).

(٢) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ١٣٥

الا إن النبي ﷺ لم يتوقف عن دعوته بل استمر بوتيرة عالية مع أن مستوى الاستجابة كان ضعيفاً، ولكن مع كل حالة استجابة كانت قريش تشعر بالخطر. هذه المرة توجهوا إلى أبي طالب بلهجة مختلفة عن السابق اخذوا يتوعدون ويهددون ان لم يكف ابن أخيه عن شتم آلهم فلسوف ينازلونه حتى يهلك احد الفريقين، وكانت تلك أول المواقف المتشنجة التي صدرت من قريش وهددت فيها بني هاشم بالقتال، لكن لماذا لم ينفذوا تهديدهم؟ في تقديري ان قريش حتى ذلك الحين لم تكن موحدة في موقفها من اسلوب التعامل مع الدعوة، وفكرة التهديد بقتال بني هاشم لم تكن فكرة متفق عليها في مكة آنذاك لذلك لم تنفذ.

سؤال في غاية الاهمية: لماذا هذا الموقف العدائي الذي اتخذته قريش من الدعوة؟ فمن المعلوم ان المجتمعات البشرية غالباً ما تتحرك وفق ارادة قادتها وحكامها والمؤثرين في الناس، هذه الإرادة غالباً ما تراعي المصالح الخاصة لهؤلاء على حساب المصالح العامة للمجتمع. هكذا كان الموقف في مكة، الامر برمته في يد زعماء قريش الذين وجدوا ان مصالحهم ستعرض للخطر في حالة القبول بدعوة النبي محمد ﷺ لذلك ظهر موقفهم بصورة عدائية وشرسة، وبالإمكان اجمال دوافعهم في هذا الموقف على النحو الاتي:

اولاً: الدافع السياسي، الذي أثر كثيراً في بلورة الموقف الرافض للدعوة، ذلك بأن القبول بدعوة النبي ﷺ معناه الاعتراف بزعامته ورئاسته عليهم جميعاً، وهذا في واقع الحال يتقاطع مع تطلعات اغلب القيادات والزعامات وطموحهم، إذ كانوا يتنافسون فيما بينهم على رئاسة مكة وتطلع كل منهم إلى بلوغ ذلك الحلم، فكيف لهم ان يتنازلوا عن طموحاتهم السياسية ويعترفوا بنبوته محمد ﷺ وزعامته عليهم.

ثانياً: الدافع الاجتماعي، وهو لا يقل أهمية عن سبقه، فزعماء قريش عدّوا ترك عبادة الآباء والأجداد وإبدالها بعبادة أخرى جديدة فيه انتقاص كبير من قيمة آباءهم ومكانة أجدادهم الذين ولدوا وماتوا وهم على تلك الديانة. إن تركها بحسب منظورهم هو انتقاص من تراث وماضي آباءهم وأجدادهم وعدم احترام معتقداتهم التي تمسكوا بها لعقود وقرون ماضية، لقد بين الله تبارك وتعالى ذلك الأمر في قوله

تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ مَا لَدَى سَحَرٍ لَنَا هَذَا وَمَا لَهُ، بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ \* وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ \* قُلْ أُولُوا حِجَّتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾<sup>(١)</sup>، فلم يظهر تمسكهم الديني هنا تمسكاً بالجانب الاعتقادي والإيماني بقدر ما كان تمسكاً بالموروث الاجتماعي، فضلاً عن المبادئ والقيم الإنسانية التي تدعو إلى المساواة بين أبناء المجتمع ونبد الفوارق بينهم التي جاءت بها الشريعة الإسلامية لم تكن لتتناغم مع طبيعة المجتمع القائم وحالة التمييز التي كانت سائدة فيه بين الحر والعبد، بين الغني والفقير، لذلك لم يرض هؤلاء بمجيبى مفاهيم جديدة تردم الحواجز بينهم وبين الفقراء والعبيد، اذ كيف يقبلوا بمساواتهم مع من يملكونهم، لذا لم يتحملوا هذا الميزان الاجتماعي الجديد الذي جاء به الإسلام.

ثالثاً: الدافع الاقتصادي، الذي أسهم في رفض زعماء مكة الدعوة بدرجة عالية كذلك، إذ إن أهل مكة كانوا يعتمدون على التجارة مورداً رئيساً للاقتصاد، لأن مكة لم تكن مدينة تزرع، كما أنها لا تحتوي على صناعات وحرف بمستوى يؤمن لأهلها مورداً اقتصادياً جيداً، كما أن القيمة التجارية لمكة كانت مرتبطة بالمكانة الدينية لها كونها مكاناً مقدساً عند العرب لوجود بيت الله الحرام. إذ كانت الأعراب والقبائل تتوافد عليها في مواسم الحج باستمرار ما يشكل ذلك مساهمة كبيرة في ازدهار تجارتها. لقد كان المتتبع الأكبر في هذه الحركة التجارية هم زعماء مكة على الرغم من أن تلك التجارة تعود بالنفع على معظم أهلها، فإن مقدار الفائدة الأكبر هو من نصيب الزعماء أصحاب رؤوس الأموال الطائلة، لأن مساهمتهم في القوافل التجارية كانت بنسب عالية، فكانوا أكثر الناس أموالاً وأرباحاً من جراء تلك التجارة. إن خشيتهم من أن تتأثر مصالحهم الاقتصادية بسبب تغيير الديانة في مكة ومن ثم تراجع الأرباح والمكاسب التجارية دفعهم لمقاومة الدعوة الإسلامية بقوة.

استمرت الآيات القرآنية بالنزول وهي تندد بالشرك وتدعو إلى توحيد الله

تعالى، كذلك استمرت أعداد المسلمين بالازدياد يوماً بعد آخر فكان ذلك يدفع قريش للمزيد من أساليب المعارضة والمواجهة للدعوة بكل ما أوتوا من قوة، عندها لجأوا الى التعذيب الجسدي الذي شمل بعض اتباع النبي ﷺ ممن آمنوا بدعوته وكانوا من المملوكين أو من غير المنتمين إلى أسر وقبائل قوية في مكة، لقد تعرض هؤلاء الضعفاء والمملوكين للعذاب الجسدي والنفسي واستمر الضغط عليهم لأجل تركهم الإسلام والعودة إلى عبادة الأصنام<sup>(١)</sup>.

إن ما تعرض له أولئك المستضعفون والمملوكون من أذى شكل مسؤولية كبيرة على النبي ﷺ، فعمله الآن لا ينحصر بتبليغ الرسالة فحسب، إنما على عاتقه مهام آخر كثيرة من بينها السعي لتأمين حياة أتباعه من الأخطار المحدقة بهم، وإيجاد منافذ وملاجئ آمنة لهم. لقد واجه النبي ﷺ تلك الظروف الصعبة بالصبر والبحث عن الحلول، فقد وجد نفسه ملزماً بإيجاد ملاذات آمنة لبعض أتباعه ولاسيما أولئك المستضعفين بعد أن تعرضوا لأذى زعماء مكة وتعذيبهم الشديد.

النبي ﷺ كان يعلم أن مسار الدعوة لن يكون سهلاً يسيراً، إنما سيكون مليئاً بالأشواق والمصاعب التي تحتاج منه ومن أصحابه الصبر، فعن طريق الصبر وتحمل تلك الضغوط الكبيرة والثبات على الموقف والتمسك بدين الإسلام يأتي بعد ذلك الفرج. إن الضغوط الكبيرة التي شكلها التعامل العنيف من قبل المشركين لأصحابه كان حرياً بأن يطيح بموقف أي رجل مهما بلغ من الصلابة والثبات، إلا أنه كان يعلم أن التوقف أو التراجع عن الدعوة لن يصب إلا في مصلحة الشرك بالله تعالى، لذلك تحمل في نفسه الكثير ودعا أصحابه للصبر حتى يأذن الله تعالى لهم بالفرج، وفعلاً كانوا بمستوى ذلك التحدي فكلما زاد عنف قريش شراسةً، ازداد المسلمين صبراً وتحملاً للأذى، ونتيجةً لذلك وقع عدد من الشهداء في مقدمتهم الصحابي الجليل ياسر بن عامر العنسي وزوجته سمية بنت خباط، هما أسرة الصحابي عمار بن ياسر.

(١) للتعرف أكثر على الطرق التي سلكها المشركين في عذاب المسلمين الأوائل يمكن الرجوع إلى: ابن هشام، السيرة ج١، ص ٢٠٩-٢١٢، ابن الأثير، الكامل، ج١، ص ٥٨٨-٥٩١.

### الهجرة إلى بلاد الحبشة

لشدة المواجهة التي نالت من جميع المسلمين ولاسيما المستضعفين منهم، بالتعذيب المفرط، لم يكن أمام النبي ﷺ من خيار آخر غير فكرة الهجرة إلى بلاد الحبشة، التي نعتقد بأنها من توجيه الله تعالى ورحمته ولطفه بعباده المستضعفين، إذ لا يمكن أن تكون هذه الفكرة اجتهاداً شخصياً واختياراً من النبي ﷺ من دون أي توجيه الهي، كونها تمثل قراراً مصيرياً بالغ الخطورة تتعلق به حياة عدد كبير من المسلمين، فليس من المعقول أن يجازف بحياتهم من دون أن تكون لديه معرفة تامة واطمئنان كبير بان المكان المتوجهين إليه سيكون آمناً لهم، وهذه المعرفة وهذا الاطمئنان مما لا شك فيه هو من أبواب الغيب التي فتحتها الله تعالى لنبيه وأعلمه بها، ومن ثم فان فكرة الهجرة إلى بلاد الحبشة هي من توجيه الله تعالى.

اذن لم يكن هنالك أي اجتهاد للنبي ﷺ في اختيار بلاد الحبشة. ان مطالعة رواية ابن إسحاق في ما يخص الهجرة الى الحبشة التي يورد فيها مسوِّغات إرسال المسلمين إليها تؤكد هذا المعنى، إذ يقول: «فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء... وانه لا يقدر على ان يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحابه الى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً الى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام»<sup>(١)</sup>. كانت في حدود السنة الخامسة من البعثة. اما الحبشة فكانت بلاداً نصرانية الديانة، لا تتصل بحدود برية مع شبه الجزيرة العربية إنما يفصل بينهما البحر الأحمر<sup>(٢)</sup>.

إن التقاليد الاجتماعية السائدة آنذاك في شبه الجزيرة العربية تدفع الأفراد الذين يتعرضون للأذى أو يتعرضون للتهديد وليس لهم من حماية إلى التوجه نحو القبائل الكبيرة القوية للدخول في حمايتها من أجل السلامة والنجاة، لأن من الأعراف السائدة آنذاك أن مَنْ يلجأ إلى أية قبيلة لا بد أن تُهيء له الحماية، كما أن القبائل

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ١٥٤، ابن هشام، السيرة، ج١، ص ٢١٣.

(٢) ابن سعد، الطبقات، م ٤، ج١، ص ١٣٦، الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٣٢٩.

تتفاخر بأدائها لمثل هذا الفعل. السؤال المهم هنا: لماذا لم يفكر النبي ﷺ بتوجيه أصحابه إلى إحدى تلك القبائل الكبيرة القوية لحمايتهم؟

على ما يبدو أن تمسك تلك القبائل العربية بعبادة الأصنام والأوثان أبعدت فكرة الاستعانة بها لحماية المسلمين، فكيف ستقوم بحمايتهم وهي تدين بالوثنية التي خرج هؤلاء هرباً منها إلى توحيد الله تعالى، كيف يلوذون بالوثنيين لحمايتهم من الوثنيين!!.

المرويات تختلف في تفاصيل خروج المسلمين عند هجرتهم للحبشة: هل كانت هجرة واحدة أم هجرات متعددة. إننا نعتقد أن الهجرة الأولى وحتى الهجرات اللاحقة لم تكن علنية ولم تكن معلومة لدى قريش إلا في وقت لاحق، عندما خرج المسلمون جماعات صغيرة متسللين باتجاه البحر غرب مكة ومن هناك استقلوا المراكب حتى وصلوا بلاد الحبشة، كانت أعدادهم بحدود الثلاثة والثمانين رجلاً وتسع عشرة امرأة فضلاً عن ابنائهم الذين خرجوا معهم وهم صغاراً، هؤلاء لم يخرجوا من مكة دفعةً واحدة، إنما كانوا على ثلاث أو خمس دفعات ولم تشعر بهم قريش إلا في وقت لاحق<sup>(١)</sup>. لقد جعل النبي ﷺ ابن عمه جعفر بن أبي طالب أميراً عليهم، ويبدو أنه كان مكلفاً بتدبير أمورهم ورعاية مصالحهم خلال وجودهم في الحبشة وإدامة الجانب العبادي بما كان يمتلكه من معلومات جيدة حول الإسلام، كما نعتقد أنه كان على تواصل مع النبي ﷺ خلال تلك السنوات.

أخبار وصول المسلمين إلى الحبشة كانت كالصاعقة على مسامع زعماء مكة، لذلك سارعوا إلى التحرك لاستعادتهم مستفيدين مما يمتلكونه من علاقات مع ملك الحبشة، ولا سيما فيهم من العبيد والإماء المملوكين الذين غادروا مكة دون إذن أوليائهم، لقد طالبت قريش باستعادتهم جميعاً، إلا أن ملك الحبشة النصراني (أصحمة بن أبجر) رفض طلبهم وأعلن أنهم في حمايته في موقف شجاع ومنصف، عبر عن تعامل إنساني وأخلاقي كبير.

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ١٥٥، ابن هشام، السيرة، ج١، ص ٢٢٠.



لقد استمر دعم ملك الحبشة للمسلمين حتى في الأوقات الصعبة التي مرّت عليه، حينما تعرض حكمه للانهار عبر تمرد أو انقلاب مسلح وقع في عهده، فقام بتجهيز مركباً لهم في البحر، وقال لهم ان وقعت هزيمتي في الحرب ولم أبق في الحكم فاتبعوا سبيلكم وانجوا بأنفسكم، وان قُدّر لي النصر وبقيت على رأس الحكم تعودون لهذه البلاد وتعيشون فيها كما كنتم امنين، هذا الانشغال بأحوال المسلمين ومصيرهم يعبر عن استمرار المواقف المشرفة النبيلة لملك الحبشة التي وقفها معهم خلال تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الدعوة الإسلامية<sup>(١)</sup>.

بعد فشلهم في استعادة المهاجرين من الحبشة، لم يتوقف زعماء مكة عند هذا الحد، فكانت لهم مواقف أخر مع النبي ﷺ كتوجيه سفهائهم للتعرض له في محاولة إهانته بشتى السبل، أو بالعمل على إحراجه أو اتهامه ببعض التهم لأجل إضعاف دعوته والتقليل من قيمة شخصه وتأثيره في الناس، فلم تؤثر تلك الممارسات في دعوته ولا سيما أنّ الخطاب القرآني في كل مرة يفضحهم ويرد عليهم بحجج دامغة ومن ذلك ما جاء في سورة الإسراء حينما طالبوا النبي ﷺ ان يأتي لهم بالمعجزات حتى يصدقوه<sup>(٢)</sup>، ولم يكن طلبهم عن نوايا صادقة وعن نفوس تبحث عن الحقيقة، إنما غرضهم هو تكذيب دعوته، فجاء الرد في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾<sup>(٣)</sup>، هذه الآية الكريمة التي ظهرت فيها لغة التحدي لأية ملة أو قوم من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي جاء به النبي ﷺ، فأصابهم ذلك بالحيرة وأخرس ألسنتهم وأظهر عجزهم أمام الناس جميعاً، تلك الحيرة وهذا العجز دفعهم لاتهامه بأنه كاهن جاء بهذه القصص وقد تعلمها على يد رجل أعجمي، بعد ان وصفوه من قبل بأنه ساحر، أو شاعر أو مجنون<sup>(٤)</sup>، فجاء الرد القرآني بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

(١) ابن هشام، السيرة، ج١، ص ٢٢٣-٢٢٦، البيهقي، دلائل، ج٢، ص ٢٨٥.

(٢) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٣، ص ١٧٩-١٨٠.

(٣) سورة الاسراء، الآية (٨٨).

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج١، ص ٥٩٢.



نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١﴾، هذا الكلام الإلهي الواضح الذي يبين طبيعة المتعلم أن يأخذ العلم بلسان معلمه فإذا كان المعلم أعجمياً كما يقولون فكيف جاء النبي ﷺ بلسان عربي فصيح! وهكذا تساقطت الحجج والذرائع التي أطلقها المشركون وأرادوا أن يقللوا من قيمة الإسلام ويضعفوا من حجج نبيه المصطفى.

### مقاطعة بني هاشم في مكة

لقد استمرت أحوال المسلمين في السنوات الخامسة والسادسة والسابعة في غاية الصعوبة مع اشتداد المعارضة في مكة، كانت الرغبة كبيرة لدى قريش لإنهاء الدعوة، ولكن مع فشل تلك الأساليب التي استعملوها ولم تنجح، ابتكروا أسلوباً فريداً غير مسبوق في ضمن البيئة المكية قبل الإسلام، ألا وهو أسلوب المقاطعة والعزل عندما فرضوا على بني هاشم المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية. بنو هاشم كما هو معلوم عشيرة النبي ﷺ الذين وفروا الحماية والسند له في دعوته، شملتهم هذه المقاطعة لتشكيل عامل ضغط عليهم لإجباره على التوقف عن الدعوة. اشترك في هذه المقاطعة كل قبائل مكة والمتحالفون معهم وحددت أوجهها بالجانبين الاقتصادي والاجتماعي<sup>(٢)</sup>، ونصت على عدم التعامل مع بنو هاشم لا يبيعون لهم ولا يشترون منهم، وعطلوا بذلك أعمالهم التجارية. كما نصت المقاطعة على قطع الصلات الاجتماعية معهم لا يصاهرونهم ولا يتزوجون منهم، وهكذا وضعوهم في عزلة تامة، بعد أن تجمعوا في مكان واحد يدعى شعب أبي طالب، ولم يستثنى من الهاشميين إلا أبي لهب.

لقد اثرت هذه الإجراءات كثيراً في تفاصيل حياة الهاشميين وقد تحمل النبي ﷺ العبء الأكبر، فكانت سنوات صعبة ومرهقة استنزفت أموالهم جميعها

(١) سورة النحل، الآية (١٠٣).

(٢) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ١٣٧، ١٤٠، ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٢٣٤، ابن سعد، الطبقات، م٤، ج١، ص ١٣٩، الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٣٣٥-٣٣٦.

وفي مقدمتهم أموال أبو طالب وأموال السيدة خديجة عليها السلام. فعلاً المقاطعة شكلت عنصر ضغط كبير على النبي ﷺ، وكذلك على من أسهم في حمايته ووفر له الدعم لاستمرارية الدعوة. لقد ظهر ان الهدف منها ايقاف الدعوة وإنهائها، إلا ان هنالك هدفاً آخر لم تظهر معالمه في بداية المقاطعة قدم خدمة كبيرة للمتنافسين على زعامة مكة، إذ إن عملية عزل جبهة مهمة ورجال مهمين كبني هاشم أسهم في مسألة إضعاف دورهم على المستوى السياسي وإبعادهم عن زعامة مكة وصعود منافسين آخرين لهم، ولذلك يمكن القول ان المقاطعة أسهمت في تحقيق مصالح سياسية لبعض زعماء مكة.

من المهم الإشارة هنا إلى أن طبيعة مكة مختلفة عن باقي المراكز السكانية المحيطة بها آنذاك، كانت تستقبل في موسم الحج العديد من الوفود والقبائل الذين يأتون على شكل جماعات جماعات من المناطق المحيطة بها أو البعيدة، وبذلك شكل الوافدون الى مكة فرصة مناسبة لبني هاشم ان يتواصلوا معهم ولا سيما في المجال الاقتصادي، فهم غير ملزمين بالمقاطعة التي فرضت، ولكن مع ذلك فإن مساحة التواصل والحركة التجارية لم تكن لتغطي حاجة بني هاشم ولم تسد رمق جوعهم ومن ثم فإننا نؤكد مرة أخرى على أن المقاطعة أثرت كثيراً في أحوال الهاشميين المعيشية. الا انهم في الوقت نفسه استمروا بالصمود والتحمل حتى جاءهم الفرج من عند الله تعالى.

بعد مضي ما يقرب من ثلاث سنوات ظهرت حركة معارضة لهذه المقاطعة، لقد شعر بعض المكيين بالخزي مما يفعلونه بأبناء عمومتهم من بني هاشم، ان حرمان النساء والأطفال والشيوخ من الغذاء خلق ردة فعل تنامت يوماً بعد آخر عند بعض الشخصيات المكية كهشام بن عمرو، وزهير بن أبي امية بن مخزوم، والمطعم بن عدي من قبيلة نوفل، وابو البختری وزمعة بن الأسود من قبيلة اسد، وهؤلاء الوجهاء ورؤوس القوم شكلوا تياراً قوياً للإفصاح عن معارضتهم لتلك المقاطعة، التي كما بدأنا الحديث انها تحتاج الى تأمل لانها كانت من الأساليب غير المألوفة في البيئة المكية، فيها الكثير من الدهاء وخلف أهدافها المعلنة

دوافع سياسية واضحة. وعلى ما يبدو ان جهود الشخصيات التي اشرنا اليها في انتهاء المقاطعة تزامنت أو انها جاءت بعد الرؤيا التي رآها النبي محمد ﷺ في منامه والتي جاء فيها: ان تلك الوثيقة التي تعاهد فيها زعماء مكة على ظلم الهاشميين والتي كانت معلقة في جوف الكعبة قد أكلتها (الارض) ولم يبق منها سوى اسم الله تبارك وتعالى، وكان ذلك مما أوحى الله تعالى لنبيه الكريم، فآخبر به عمه أبا طالب الذي توجه الى رؤوس القوم تلك الأسماء التي ذكرناها، فتجمعوا وانطلقوا الى مكان الكعبة وجاء زعماء قريش فأخبرهم أبو طالب بما أخبره به النبي ﷺ، فكذبوه وأرادوا اثبات ذلك من أجل أن يتفرق الناس عنهم، فلما لجؤوا الى جوف الكعبة تفاجؤوا بان تلك الوثيقة المعلقة لم يبق منها إلا اسم الله تعالى، فخرست ألسنتهم وفشلت مقاطعتهم تلك في حدود السنة العاشرة من البعثة المباركة<sup>(١)</sup>.

لقد انتهت تلك المقاطعة البائسة التي فرضت على بني هاشم والتي أريد منها أن تضعف وتنهي أمر الدعوة، ولكن واقع الحال أن النبي ﷺ بصبره وصبر من معه من المؤمنين ومن معه من أبناء عشيرته أسهم في أن تنجح الدعوة الإسلامية في الاستمرار والمواصلة وان لا تتوقف عند حدٍ معين.

### وفاة أبي طالب وخديجة ﷺ

إن نهاية المقاطعة بقدر ما كانت فرجاً كبيراً من قبل الله تعالى على نبيه ﷺ وصحابته حملت له من التطورات المؤلمة المحزنة ما حملت، ففي هذه السنة فقد النبي ﷺ أعز وأعلى إنسانين أسهما في نجاح دعوته وإسناده والوقوف معه حتى هذه اللحظات الأخيرة من حياتهما، فقد توفي عمه أبو طالب، ومن ثم توفيت زوجته السيدة خديجة ﷺ وكان الفاصل بين وفاتيهما لا يتجاوز بضعة اسابيع، لذلك عرف هذا العام بأنه عام الحزن لشدة ما مرَّ به النبي ﷺ من الم الفراق. إذ

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٢، ص ١٤١-١٤٦، ابن هشام، السيرة، ج١، ص ٢٥١-٢٥٣؛ ابن سعد، الطبقات، م٤، ج١، ص ١٤٠-١٤١؛ البيهقي، دلائل، ج٢، ٣١٢-٣١٣.

تزامنت وفاتيهما في عام واحد بعد مسيرة حافلة مليئة بالمساندة والدعم والإيمان بما جاء به في دعوته خلال السنوات العشر الأولى منها<sup>(١)</sup>.

إن المتأمل في المشيئة الإلهية هنا قد يشعر بجملة من الأفكار العظيمة المرتبطة بأبي طالب وخديجة عليهما السلام، أولاً: ترتيب ادوار كل منهما وأهمية هذه الأدوار المساندة للنبي ﷺ وقيمتها، ثانياً: تكريم أصحاب هذه الأدوار العظيمة بما يتناسب مع عطائهم غير المحدود. ففي تقديرنا ان الأدوار التي أوكلت إليهما قبل المبعث النبوي المبارك وبعده حتى السنة العاشرة من البعثة، أراد الله تعالى لها ان تنتهي معاً في وقت واحد لاسباب عدة سنأتي على ذكرها بالتفصيل.

ففيما يتعلق بالسيدة الفاضلة خديجة عليها السلام التي وقفت تساند النبي ﷺ منذ ان تزوج منها وهو بعمر الخامسة والعشرين وحتى موعد وفاتها على مدى خمس وعشرين سنة، عشرة أعوام قضوها معاً يدعون الى توحيد الله تعالى ونبذ الشرك، كانت امرأة مؤمنة صالحة ومضحية، قدمت كل ما تملكه من اموال لاستمرارية الدعوة ودعم زوجها، بوفاتها أصيب النبي ﷺ بحزن شديد، لما لها من مكانة في قلبه بفضل عطاها للإنساني الكبير، فضلاً عن تزامن وفاتها مع وفاة عمه أبي طالب. كان النبي ﷺ يستذكرها ويثني دوماً على مواقفها ومما كان يقول في حقها لبعض زوجاته: «صدقني إذ كذبتكم، وآمنت بي إذ كفرتم، وولدت لي إذ عقمتم»<sup>(٢)</sup>. وقد تركت وفاتها أثراً كبيراً في السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام إذ كانت صغيرة، ينقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: لما توفيت خديجة عليها السلام، جعلت فاطمة عليها السلام تلوذ برسول الله ﷺ وتدور حوله وتقول أبه أين أمي؟ عندها نزل جبريل عليه السلام فقال له: ربك يأمرك ان تقرأ فاطمة السلام، وتقول لها ان أملك في بيت من قصب كعبه من ذهب، وعمدته ياقوت احمر، بين آسية ومريم بنت عمران<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٥، ص ٢٢٧، ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٢٨٢.

(٢) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٥، ص ٢٢٨؛ السهيلي، الروض الأنف، ج٢، ص ٤٢٥-٤٢٦.

(٣) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٣٥؛ الطوسي، أبي جعفر محمد بن الحسن (ت-٤٦٠هـ/١٠٦٧م)، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، (دار الثقافة، قم، ١٩٩٣)، ص ١٧٥.

قد لا نبالغ في الاعتقاد إذا قلنا إن الله تعالى أراد إكرام السيدة خديجة عليها السلام حينما جعل وفاتها في هذا الوقت، إذ حتى الآن لم يتزوج النبي ﷺ من امرأة أخرى غيرها، وهذا خلاف عادات الرجال في عصره، فضلاً عن مستلزمات نشر الدعوة وتبليغها على أفضل وجه، كان التعدد في زيجاته امراً ضرورياً للغاية، إلا أن النبي ﷺ لم يقم بذلك إلا بعد وفاة السيدة خديجة عليها السلام. نفهم من هذا أن الله تبارك وتعالى لم يشأ أن يكسر بخاطرها حينما تشهد وترى زيجات أخرى للنبي ﷺ وهي صاحبة المنزلة الرفيعة عند الله تبارك وتعالى، عزّ عليه أن يكسر بخاطرها فقبضت قبل أن يعدد النبي ﷺ في زيجاته إكراماً لها بحسب تقديرنا واعتقادنا، فجاء زواج النبي ﷺ من السيدة الكبيرة في السن سودة بنت زمعة في شهر رمضان من السنة العاشرة بعد وفاة السيدة خديجة عليها السلام <sup>(١)</sup>.

أما حاله مع عمه أبي طالب (عبد مناف بن عبد المطلب)، هذا الشيخ الكبير الجليل فهي رفقة طويلة بدأت والنبي ﷺ بعمر الثامنة حينما تولى أبو طالب رعايته وحضانه، مع اعتقادنا بأن هذه الرعاية كانت في وقت اسبق مما ذكرناه، كون ابن أخيه قد ولد يتيم الأب وهذا الأمر يزيد من عاطفته وحبّه وتعلقه به، فأبو طالب اشترك مع السيدة آمنة بنت وهب والدته، وجدّه عبد المطلب، في مسؤولية حماية النبي ﷺ وتنشئته، وعلى هذا الأساس فإن السنوات الخمسين التي تشكل عمر النبي ﷺ حتى وفاة أبي طالب، انقضت جميعها وأبو طالب يرعى ابن أخيه، فأراد الله تبارك وتعالى أن يريحه من هذا التكليف وهذه المسؤولية الشاقة ولا سيما أن النبي ﷺ مقدم على متغيرات كبيرة على مستوى المكان والمجتمع، وهناك تحركات وانتقالات مصيرية بما لا يتلاءم ومقدرة أبي طالب وهو رجل كبير بالسن، فالأعمال التي سيُقدم عليها رسول الله ﷺ لاحقاً تتطلب منه الخروج من مكة والبحث عن موطن جديد للدعوة وللمسلمين، وأبو طالب كان شيخاً كبيراً لم يكن من القوة بمكان ليتحمل هذه التحركات بترك مكة والانتقال مع النبي ﷺ إلى المدينة، لذلك نعتقد أن اللطف الإلهي جاء لتقرير نهاية مهمته العظيمة في هذا الوقت وعند نهاية المقاطعة، كما هو

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٥، ص ٢٣٨؛ المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص ٢٨٣.

حال السيدة خديجة عليها السلام فترامت وفاتهما في وقتٍ متقارب جداً.

إنه من الخطأ الاعتقاد بان وفاتهما قد حصلت متزامنةً مع نهاية المقاطعة، ذلك بأن أبا طالب كان له اثر كبير في تحفيز المعترضين على المقاطعة للخروج والإعلان صراحةً عن رفض استمرارها، كونها ادت الى تجويع أبناء عشيرته وعزلهم. عليه نعتقد ان وفاة أبي طالب قد حصلت بعد ان استقر الوضع في مكة وشاعت الأخبار فيها وفي غيرها حول نهاية المقاطعة وان هذه العزلة التي استمرت ثلاثة اعوام على بني هاشم قد انتهت، فأخذ بنو هاشم يبيعون ويشتررون ويتعاملون اقتصادياً واجتماعياً مع اهل مكة كما كانوا في السابق.

ان معظم المصادر تؤكد على ان وفاتهما كانت بعد المقاطعة وقبل الهجرة بثلاث سنوات، ومن الطبيعي ان يتأثر النبي ﷺ كثيراً لفراقهم، إلا ان المرويات اخفقت في وصف احواله وما كان عليه بعد الفقد، فأظهرته وقد أصيب بآثار نفسية عميقة وكان على اثرها خائر القوى <sup>(١)</sup>. لاشك في أن لأبي طالب وخديجة عليهما السلام مكانة عظيمة في قلب النبي ﷺ وفاءً لمن ساندته ووقف الى جانبه، لكن في الوقت نفسه نحن نتحدث عن شخصية عظيمة صاحب مشروع انساني كبير ورسالة ليس لها حدود على مستوى الإنسانية رسالة مطلقة لكل البشر، نتحدث عن انسان انشغل تفكيره وقلبه وعقله بما كلفه الله تعالى به من امر، نحن لا نتحدث عن انسان بسيط في مشاغله واهتماماته اقصى ما يفكر فيه هي احوال عائلته والبيئة المحيطة به فيتأثر ايما تأثر بفراق احدهم أو بإصابته بمكروه وكأنها نهاية الحياة في ضمن نطاق تفكيره. مما لاشك فيه أن النبي ﷺ قرر المضي في دعوته من دون ان يُظهر حالات حزنه وألمه لفراقهم، فمتطلبات الدعوة تقتضي أن يُظهر للناس على الدوام الثقة والقوة.

### بنو هاشم بعد وفاة زعيمهم أبي طالب

بعد وفاة أبي طالب أجمعت المرويات على أن زعامة بني هاشم انتقلت إلى أبي

(١) ابن سعد، الطبقات، م، ٤، ج١، ص ١٤١، ابن الاثير، الكامل، ج١، ص ٦٠٦-٦٠٧.

لهب<sup>(١)</sup> والحديث عن حماية أبي لهب للنبي محمد ﷺ ومساندته كما كان يفعل من قبل أبو طالب، حديث فيه الكثير من الافتعال والتصوير الخاطئ المقصود، ففي الوقت الذي برز أبو طالب زعيماً لبني هاشم موظفاً إمكانيات الهاشميين وقدراتهم كلها لحماية ابن أخيه هكذا ظهرت هذه القوة إزاء القبائل المكية وكانت تمثل قوة ردع لكل من يفكر في الاعتداء على النبي ﷺ، أظهرت المرويات أن النبي ﷺ بعد السنة العاشرة من البعثة ووفاة أبي طالب ﷺ فقد هذه الحماية فانبرى الى تعويضها عمه أبو لهب بحسب المرويات المتداولة، الذي اعلن عن نفسه حامياً لابن أخيه كما كان يفعل أبو طالب بالضبط.

ان ما قدمته المرويات الإسلامية هنا من صورة مفتعلة غير واقعية لا تتوافق مع العقل والمنطق يجعلنا نشعر بحجم الكارثة التي طالت تراثنا المنقول. اذ لا يوجد اي تطابق بين المسار العام للدعوة خلال مرحلتها المكية من جهة، وبين المسار الذي اتخذه أبو لهب منذ بدايتها من جهة أخرى. ان البحث في حقيقة موقف أبي لهب من النبي محمد ﷺ ودعوته ما بعد السنة العاشرة من البعثة يستلزم الوقوف على طبيعة موقف بني هاشم من أبي لهب نفسه؟ اذ لم يناقش اي باحث هذه المسألة! هل وافق بنو هاشم ان يرأسهم ويتزعمهم أبو لهب؟ هل ان الأفعال السابقة التي كان يقوم بها والمعارضة الشديدة التي كان يعلنها ضد دعوة النبي ﷺ لم تؤثر في موقف بني هاشم تجاه زعامته؟ قد يمثل الأمر طموحاً لأبي لهب، ولكن ماهي حقيقة الاستجابة من الهاشميين؟ انا في تقديري ان نسبة كبيرة جداً من الهاشميين لم يعترفوا بزعامته وراثته عليهم وتولية أمورهم، فالصورة التي صرح بها القرآن الكريم لشخصية أبي لهب كانت صورة استثنائية في معاني الشر والسعي للإضرار بالآخرين والتبجح بالكبرياء والتعالي على الناس مما لا ينسجم مع تفاعل الناس واستجابتهم لطموحاته أو طاعتهم له وإقرارهم بزعامته. فمن سمات زعيم القوم ان يتمتع بعلاقات طيبة وطيدة مع أبناء قومه وهذا لم يكن حاضراً بين أبي لهب وبني هاشم، فبالأمس القريب اجتمعت قريش على مقاطعة وتجويع بنو هاشم

(١) ابن سعد، الطبقات، م ٤، ج ١، ص ١٤١.

المساندين للنبي ﷺ لثلاث سنوات ولم تشمل في ذلك أبا لهب، لذا فان فكرة زعامته لبني هاشم هي فكرة مفتعلة غير صحيحة، والحديث عن توفيره الحماية للنبي محمد ﷺ حديث باطل لا اساس له من الصحة، وموقفه كان واضحاً منذ بداية الدعوة لم يتغير في معارضته واصطفافه مع زعماء قريش بمعاداة النبي ﷺ.

فعلى سبيل المثال يرد في المرويات ان النبي ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب عليه السلام التزم داره وكان قليل الخروج إلى قومه، ولا نعلم بالتحديد سبب لزوم الدار هذا هل هو خوف من أذى قريش بعد رحيل عمه أبي طالب!! ام الحزن الشديد على فراق خديجة وأبي طالب عليه السلام؟ واستكمالاً لهذه الصورة المتداولة غير الدقيقة يذكر ابن سعد أن أبا لهب شعر بانه من مقتضيات زعامته لبني هاشم ان يتولى حماية النبي محمد ﷺ كما كان يفعل أخيه أبو طالب من قبل، لذا فقد توجه للنبي ﷺ وقال له: «يا محمد امضي لما اردت وماكنت صانعاً اذ كان ابو طالب حياً فأصنعه، لا واللات لا يصل اليك أحد حتى أموت! فلما سب ابن الغيطلة (الحارث بن قيس بن عدي) النبي، فأقبل عليه ابو لهب ونال منه، فولى وهو يصيح يا معشر قريش صبأ ابو عتبته! فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال: ما فارقت دين عبد المطلب ولكن امنع ابن اخي ان يضام حتى يمضي لما يريد، فقالوا قد احسنت واجملت ووصلت الرحم»<sup>(١)</sup>.

ان المتتبع لما ذكره ابن سعد هنا بجهد يسير يدرك ان هنالك عملاً واضحاً لتجميل صورة أبي لهب، ليس حباً به ولا سعياً لتحسين صورته السوداء، ولكن في تقديره ان المسألة مرتبطة بمحاولة التقليل من قيمة الدور الذي لعبه ابو طالب في حماية ومساندة ابن اخيه في مسار دعوته، فالنزاع والصراع السياسي الذي حصل لاحقاً، تخللته محاولات دنيئة لتسقيط شخصية أبي طالب والتقليل من قيمة أعماله العظيمة بهذه الطريقة حتى يقال: إن ما قام به أبو طالب تجاه النبي ﷺ كذلك قام به أبو لهب بعد وفاته!!، ويقال كذلك: إن أبا طالب ما كان يقدم الحماية لابن أخيه كونه مؤمناً برسالة محمد ﷺ وموحداً لله تعالى، انما لإحساسه بان هذا واجب

(١) ابن سعد، الطبقات، م٤، ج١، ص١٤١.



اجتماعي، فهو زعيم بني هاشم يتوجب عليه أن يقدم الحماية لابن أخيه وأحد أبناء هذه العشيرة، فلما انتقلت الزعامة الى أبي لهب انتقل هذا الواجب الاجتماعي إلى عاتق الأخير وقام بتأمين الحماية للنبي ﷺ في مكة على الرغم من كونه على دين الشرك!!.

من المهم جداً الالتفات هنا الى نقطة مفيدة وهي ان النبي ﷺ خلال هذا الوقت لم يُعد بحاجة الى حماية العشيرة كما كان في السابق، لأنه قد تمكن من بناء قاعدة من الموالين والأتباع ومن المؤمنين الذين اصبحوا يمتلكون من القوة ما يوازي قوة العشيرة في العدة والعدد، وان لم يكن بمقدورهم مواجهة قوة قريش بشكل مباشر في داخل مكة، ولكنهم على اقل تقدير لن يتخلوا عن النبي ﷺ ويتركوه لمواجهة التحديات وحده، لقد كانوا يشكلون نوعاً من الحماية له إذا ما تعرض إلى أذى أو خطر، وكان بمقدورهم الدفاع عنه. المسألة الثانية ان الله تكفل بحمايته وهو يعلم بذلك، يعلم انه محصن ومحاط بحماية الله تعالى، لذلك نعتقد انه لم يقبل بحماية أبي لهب ان كانت معروضةً عليه.

تستمر المرويات الناقلة لفكرة حماية أبي لهب للنبي ﷺ ومنها كيف جاء رجل من مكة هو عقبة بن أبي معيط ومعه ابو جهل بن هشام فأرادا ان يثيرا أبا لهب على النبي ﷺ فأخبراه انه يقول ان جده عبد المطلب سيكون في النار يوم القيامة، فثارت حمية أبي لهب وتوجه إليه يسأله: «يا محمد ايدخل عبد المطلب النار، فقال رسول الله: نعم ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار، فقال ابو لهب: والله لا برحْتُ لك عدواً ابداً وانت زعمت عبد المطلب في النار»<sup>(١)</sup>.

تخيل ان أبي لهب لم يوجه سؤالاً كهذا طوال عشر سنوات من الدعوة، فهل يعقل ذلك!! لقد كان من الطبيعي جداً ان يسأل ابو لهب هذا السؤال، ولكن متى؟ على اقل تقدير سؤاله هذا يطرحه على النبي ﷺ في السنوات الأولى من البعثة:

(١) ابن سعد، الطبقات، ٤م، ١ج، ص ١٤١-١٤٢.

الأولى أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة أو حتى الخامسة، لأنه من المستحيل ان ينتظر حتى السنة العاشرة فيسئل حول هذا الامر!! كما ان طبيعة هذا السؤال ومعناه لا يمكن حصرهما بأبي لهب فقط، فزعماء مكة المعترضين على الدعوة كانت لهم محاججات ومحاولات للطعن برسالة النبي ﷺ وإضعاف موقفه، بل حتى بث الفرقة والخلاف بينه وبين أبناء عشيرته، فلا بد أنهم سألوه عن مصير جده عبد المطلب أهو في الجنة أم في النار؟ إذ من المستحيل أن يتأخر هذا السؤال على النبي ﷺ حتى السنة العاشرة من البعثة.

إننا نعتقد أن وفاة أبي طالب ﷺ قد تركت فراغاً كبيراً في زعامة بني هاشم، ولم تكن على اقل تقدير خلال السنوات الثلاث التي سبقت الهجرة النبوية للمدينة واضحة ومستقرة في ظل وجود طموح كبير من أبي لهب يقابله رفض اكبر من الهاشميين. يضاف لكل ما ذكرناه ان موقف النبي محمد ﷺ من أبي لهب هو انعكاس للموقف القرآني الذي كان صريحاً واضحاً منذ السنة الثالثة من بعد البعثة حينما نزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ \* مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ \* سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾<sup>(١)</sup>، فكيف له بعد ذلك ان يلتمس أو يقبل الحماية من رجل توعده الله تبارك وتعالى بعذاب عظيم!! عليه يمكن القول ان جميع المرويات التي تحدثت عن حماية أبي لهب للنبي محمد ﷺ هي غير دقيقة ولا يمكن الوثوق بها والاعتماد عليها للمعطيات التي ذكرناها.

### البحث عن موطن للدعوة خارج مكة

كانت الطائف اول المحطات التي توجه اليها النبي ﷺ بحثاً عن موطن جديد للدعوة بعد ان يؤس من أهل مكة. والطائف كما معلوم هي بلدة قريبة من مكة تقع في الجنوب الشرقي منها على بعد خمسين كيلومتر، ذكرها الجغرافيون والرحالة بانها مختلفة عن مكة في مناخها المعتدل وطبيعتها الجميلة، حتى وصفها بعضهم بأنها: شامية الهواء باردة الماء، لتشابه مناخها مع مناخ الشام في الاعتدال وبرودة

(١) سورة المسد، الآيات (١-٣).

الماء، تكثر فيها البساتين وقيل هي مكان الاستجمام لزعماء مكة وتجارها ورؤوس القوم يستجمون فيها صيفاً، كما ان معظمهم كانت له املاك وبساتين فيها<sup>(١)</sup>.

في السنة العاشرة من البعثة خرج النبي ﷺ من مكة قاصداً الطائف، بعد ان وجد خلال هذه السنوات العشر التي قضاها في مكة ان دعوته لم تحقق الاستجابة المطلوبة من اهلها ولم يؤمن بها سوى نفر قليل منهم، اما البقية فقد التزموا موقف المعارضة الشديدة<sup>(٢)</sup>. لقد بحث النبي ﷺ عن موطن آمن له ولأتباعه لتبدأ مراحل آخر للدعوة الإسلامية تقوم على أساس تأسيس المجتمع، وتوضيح الأحكام والتشريعات المرتبطة بهذا الدين، امور كثيرة يجب المباشرة بها ولن يتم ذلك إلا من خلال وجود مكان آمن يجمعهم كمجتمع إسلامي.

سؤال هنا في غاية الأهمية: هل ان البحث عن موطن غير مكة متروك لتقدير النبي ﷺ واجتهاده واختياره ام انه اختيار وتوجيه الهي؟ لاشك في أن الخطوات المصيرية التي تؤدي الى تحولات كبيرة في مسار الدعوة ترتبط بأوامر الله تعالى وأرادته ومنها موضوع البحث عن موطن آخر غير مكة للدعوة، على ان هذا الأمر لا ينقص من قيمة النبي ﷺ وقدره لأن تفاصيل هذه التحولات فيها من المعاناة والأذى الشيء الكثير، ولعلنا سنلاحظ ذلك فيما شهد النبي ﷺ في الطائف من أهلها خلال ردود أفعال متشددة في رفض الدعوة. لقد اصطحب النبي ﷺ معه إلى الطائف زيدا وخلف علي عليه السلام في أهله لرعايتهم، فهو خير من يأتمنه على عياله، كان خروجهم في نهاية شهر شوال من السنة العاشرة من بعد البعثة، توجه سيراً على الأقدام في طريق ذهابهم وكذلك عند عودتهما.

لم تكن الطائف غريبة على النبي ﷺ، بحكم قربها من مكة فقد زارها عدة مرات في رحلاته التجارية من قبل، عند وصوله الطائف من الطبعي أن يبدأ بكبار القوم

(١) المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت-٣٨٠هـ/٩٩٠م)، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (بريل، ليدن، ١٨٧٧)، ص ٧٩؛ الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت (ت-٦٢٢هـ/١٢٢٩م)، معجم البلدان، (دار صادر، بيروت، ١٩٩٣)، م ٤، ص ٨-١١.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٣٨٤-٣٨٥؛ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٣٤٤.

ووجهاءهم يدعوهم للإسلام، لعلهم يسهلون عليه المهمة ويحتضنوا الدعوة في بلدتهم، وبعد ان قضى هناك عدة ايام لم ينجح بالحصول على أية استجابة من اهلها، فلم يختلف موقف سادات الطائف عن موقف نظرائهم في مكة كان ردهم قاسياً، ولم يكن لديهم أي استعداد للاستماع للنبي ﷺ والاستجابة، لقد عبروا عن رفضهم القاطع لهذه الدعوة بل زادوا اكثر من ذلك بان جعلوا من صبيانهم وسفهاءهم يتعرضون له ويتبعونه في ممرات وطرق الطائف يرمونه بالحجارة حتى خرج من بلدتهم.

تنقل بعض المرويات أن أحوال النبي ﷺ وزيد كانت صعبة، فالدماء تسيل من أقدامهما على أثر الحجارة التي نالت من جسديهما الطاهرين مع ما نالهما من الجهد والإرهاق والعطش، فجلسا بالقرب من احد البساتين الواقعة خارج الطائف واخذ النبي ﷺ يدعو ربه قائلاً: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقَلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مِنْ تَكِلْنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أَبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، أَوْ أَنْ يَنْزَلَ بِي سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ». وبينما النبي ﷺ مستغرق في دعائه انتبه له صاحبا البستان وهما عتبة وشيبة أبنا ربيعة من سادات الطائف، فبعثا بسلام لهما يدعى عداس وهو نصراني ومعه قطفاً من العنب حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فمَدَّ يده للعنب وقال بسم الله وتناول من حباته، فقال عداس ان هذا الكلام لا يصدر عن اهل القرى، فقال النبي ﷺ من اي البلاد انت وما دينك؟ فقال عداس انا نصراني من مدينة نينوى، فقال النبي ﷺ من مدينة الرجل الصالح يونس بن متي، فقال عداس ومن اين عرفت يونس بن متي؟ فقال النبي ﷺ ذاك اخي كان نبياً وانا نبي، فهو ي عداس على قدمي النبي ﷺ ورأسه يقبلهما ثم آمن بدعوته<sup>(١)</sup>.

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٢٨٥-٢٨٧، الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٣٤٥-٣٤٦، ابن سعد، الطبقات، ج٤، ص ١٤٢، ابن الاثير، الكامل، ج١، ص ٦٠٧-٦٠٨.

ان التوجه الى الطائف لأجل الحصول على موطن آمن للدعوة والمسلمين كانت الخطوة الأولى في ضمن المنهج الذي اتبعه النبي ﷺ بعد السنة العاشرة من البعثة والذي تمثل بالتفكير بالبلدات القريبة من مكة فكانت الطائف أولها، كما فكر النبي ﷺ بالقبائل الكبيرة التي كانت تتوافد على مكة في مواسم الحج، وكان مواظباً على دعوتهم للإسلام، تلك القبائل من شمال شبه الجزيرة أو جنوبها أو شرقها كانت تمتلك الإمكانات والقدرات لتأمين الحماية للنبي ﷺ وأصحابه والاستمرار بدعوتهم.

تجمع المرويات على أن النبي ﷺ عند عودته من الطائف لم يتمكن من دخول مكة وكان بحاجة إلى عشيرة قوية ليدخل في حمايتهم!!، إذ يورد الطبري: ان النبي ﷺ لما انصرف من الطائف يريد مكة مرّ به بعض المكيين وهو بالطريق، فطلب من أحدهم أن يتوجه الى الأخنس بن شريق وهو من زعماء مكة، ويبلغه رسالة منه طلب فيها ان يجيره حتى يدخل مكة بحمايته فلا يتعرض له أحد. يقول الطبري إن الأخنس قال إن الحليف لا يجير على الصريح، والأخنس كان رجلاً حليفاً وليس صريحاً، أما النبي ﷺ فكان صريحاً. فلما أخبر النبي ﷺ بذلك بعثه مرة أخرى إلى سهيل بن عمرو وطلب ان يكون مجيره ليستمر في دعوته داخل مكة، فقال إن بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب ورفض إجارة النبي ﷺ. بعد ذلك بعثه النبي ﷺ الى المُطعم بن عدي الذي قَبِلَ بالإجارة وتسليح بسلاحه وخلفه أبناء عشيرته حتى دخلوا مكة وأعلن امام الناس انه يُجير النبي محمداً ﷺ محذراً أن يصيبه أحدٌ بسوء<sup>(١)</sup>.

هنا لابد ان تكون لنا وقفات كثيرة: الوقفة الأولى، أين اختفت حماية بني هاشم وشجاعتهم وقد تحمّلوا المحن والصعاب للثبات على موقفهم في حماية النبي ﷺ في السنوات العشر الأولى، اين اختفى عمه وفيهم حمزة بن عبدالمطلب الذي يهابه جميع من بمكة!! الوقفة الثانية، هل يجتمع الضعف مع القوة، أو الثبات والصلابة مع التردد والخوف، كيف لنا أن نصدق أن كل ذلك قد اجتمع في

(١) الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٣٤٧-٣٤٨.

شخص النبي ﷺ!! لقد أظهرته الرواية السابقة بصورة الرجل الخائف الضعيف الذي يبحث عمّن يقدم له الحماية والطمأنينة، مع انه قد عبر عن صلابته وقوته في مشاهد كثيرة وأخطاراً جسيمة قد مرت في سنوات الدعوة. الوقفة الثالثة، كيف للنبي ﷺ أن يلتمس الحماية ويدخل في إجارة إناس لازالوا مشركين، لازالوا يتعبدون الأصنام، لا يمكن تخيل ذلك وقبوله، كيف يكون ذلك وهو يعلم أن الله حاميه ومانع عنه كل أذى.

ان التفسير المناسب لوجود هذا المعنى في ضمن المرويات ببساطة يشير إلى محاولة بعضهم تحسين صور بعض الشخصيات، أو المبالغة بما قاموا به من أدوار في تلك المراحل الزمنية من الدعوة بتأثير الأبناء والأحفاد مما أدى الى هذا الوصف المشوه لشخصية النبي ﷺ والذي لا ينسجم مع الواقع، لإعطاء المُطعم بن عدي أهمية كبيرة والقول بانه هو من إجار النبي ﷺ وادخله الى مكة في حمايته، في حين انه كان لازال يتمتع بحماية بني هاشم الذين لم يتخلوا عنه، فضلاً عن قاعدة مهمة من المسلمين لازالوا في مكة وهؤلاء كانوا على استعداد تام لنصرة النبي ﷺ وحمايته وافتدائه بأنفسهم أمام كل خطر.

### عرض الدعوة على القبائل الوافدة على مكة

بعد عودته إلى مكة استمر النبي ﷺ في عرض الدعوة على القبائل الوافدة على هذه البلدة ولاسيما في مواسم الحج. الان هو يبحث عن موطن لاحتضان الدعوة، على حين كان في السابق يبحث عن أفراد لاعتناقها، ولذلك وجه خطابه إلى زعماء القبائل والمتنفذين بين قومهم ومن بيدهم الأمر والقرار، فسعى النبي ﷺ لمخاطبة هؤلاء كلما وفدوا على مكة لغرض الحج أو التواجد في أسواقها ملتصقاً منهم الايمان بدعوته وكذلك تأمين الموطن لجميع المسلمين. فكان ممن التقى بهم النبي ﷺ وعرض عليهم دعوته جماعة من سادات قبيلة كندة، وقبيلة كلب، وبني حنيفة الذين يقطنون مواضع بعيدة عن مكة، وكان قبول أية قبيلة ممن ذكرنا يمثل حصول المسلمين

على موطن آمن ومركز للدعوة بعيداً عن مكة، ولكنهم كانوا يرفضون بشدة<sup>(١)</sup>، ولهذا الرفض أسباب متعددة في مقدمتها أنهم ليسوا في حاجة إلى الدخول في صراع ونزاع مع قريش مع علمهم بمعارضتها الشديدة للإسلام، مع مالهم من مصالح مع قريش لا يريدون التفريط بها، فضلاً عن أن مستوى الوعي والمعرفة لديهم لم يكن كافياً لفهم طبيعة هذا الدين وإدراك قيمته وتأثيره في حياة الناس.

بعض القبائل ومنهم بنو عامر بن صعصعة لم يرفضوا الدعوة بل ساوموا النبي ﷺ في مقابل دخولهم الإسلام وتوفيرهم الحماية والملجأ للمسلمين في ديارهم على أن تكون الزعامة والقيادة لهم من بعد النبي ﷺ، وكان قد خاطب النبي ﷺ رجلٌ منهم يدعى ببحرة بن فراس قائلاً: «أرأيت أن نحن بايعناك على امرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أكون لنا الأمر من بعدك؟ قال النبي ﷺ: الأمر لله يضعه حيث يشاء، فقال له: أفْتَهْدُ نُحُورَنَا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمرُ لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك»<sup>(٢)</sup>، فرفضوا بذلك قبول دعوة النبي ﷺ لأنهم لم يحصلوا على وعد منه بأن تكون الزعامة فيهم من بعده على عموم المسلمين.

من المهم جداً ملاحظة الصراحة والوضوح التي سار عليها النبي ﷺ مع الآخرين، مع شدة حاجته إلى مواقفهم الداعمة في توفيرهم موطناً آمناً لأصحابه وقبولهم دعوته ومساندته ضدّ تيارات الرفض والمعارضة التي تقودها قريش، كان بمنتهى الوضوح في اجاباته وقال لهم لا يعود الأمر لي حتى أضعه فيكم، فالأمرُ كل الأمر بيد الله تعالى، هذا الموقف يصور لنا قيمة النبي ﷺ وعظمة شخصيته وصدقه وصراحته.

### اللقاء مع جماعة من أهل المدينة (يثرب)

خلال سعي النبي ﷺ المستمر حصل تطور مهم في شهر ذي الحجة من السنة العاشرة من البعثة، إذ التقى بمجموعة من أهل المدينة (يثرب) الذين وفدوا على

(١) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٤، ص ٢١٥؛ ابن سعد، الطبقات، ج٤، ص ١٤٥.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٢٨٩؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٣٥٠.

مكة، (والمدينة عرفت باسم يثرب تقع شمال وشمال شرق مكة بمسافة تصل الى (٤٥٠) كيلومتر، وهي مختلفة عن طبيعة مكة. هي ارض تجتمع عليها مجموعة من القبائل العربية واليهودية وتكثر فيها البساتين وواحات المياه، تحيط بعض جهاتها الجبال. ومساحتها بحدود ٣٢ كيلومتر مربع. اسماء القبائل الكبيرة التي تقطنها هي قبيلتي الأوس والخزرج وهما من القبائل العربية القادمة من جنوب شبه الجزيرة العربية، وقد سبقهم في الوفود الى يثرب والسكن فيها القبائل اليهودية الثلاث وهم كل من بني قريظة، بني النضير، بني قينقاع<sup>(١)</sup>. لقد تعرف النبي ﷺ على افراد هذا الوفد وطلب لقاءهم بشكل خاص ومحادثتهم دون علم قريش بذلك، فحصل هذا اللقاء في موضع مستتر عن الأنظار وسط جبل العقبة وهو جبل يقع بين مكة ومنى، كانوا ستة رجال من قبيلة الخزرج، لقد كان لقاءً مطولاً تخللته احاديث كثيرة استمعوا فيها الى النبي ﷺ وهو يعرض عليهم دعوته، نتج عنه استجابة وتصديق، فكان هؤلاء الرجال الستة من الخزرج أول من آمن بدعوة النبي ﷺ واعتنق الإسلام من اهل المدينة<sup>(٢)</sup>. إن سرعة استجابتهم للدعوة توحى الى ان هنالك اكثر من جلسة واكثر من حديث جمعهم بالنبي ﷺ خلال الايام التي قضوها في مكة، كما ان طبيعة الاستجابة ودرجة الاستعداد لذلك تؤشر الى وجود مقدمات قد سبقت هذا اللقاء وأسهمت في سرعة استجابتهم للدعوة.

لقد اطلع النبي ﷺ عن طريق هذه المجموعة من أهل المدينة على أحوال الناس هناك والمشاكل والحروب التي استنزفت الأوس والخزرج، وهذا الأمر قد يفسر لنا عدم تسرع النبي ﷺ في الانتقال إلى المدينة حتى تتوافر الظروف المناسبة لذلك. لقد انتهى لقاء العقبة هذا بالاتفاق على مسائل مهمة: أولاً، ان يتجدد اللقاء في العام المقبل وفي المكان نفسه في جبل العقبة. ثانياً، عند عودتهم للمدينة ان يعملوا على تبليغ الناس بأمر الدعوة ومضمون هذا الدين، ويبدلوا كل جهدهم لإقناع القبيلتين

(١) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ٨٠؛ الحموي، معجم البلدان، م ٥، ص ٤٣٠-٤٣١.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٢٩٢-٢٩٣؛ ابن سعد، الطبقات، م ٤، ج ١، ص ١٤٦؛ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٣٥٤.



باعتناق الإسلام، لأن ذلك فيه الخير والصلاح لهم جميعاً ولحياتهم القابلة<sup>(١)</sup>. المصادر التاريخية لا تقدم لنا بيانات وتفصيلات واضحة عما قاموا به في المدينة والنجاح الذي تحقق على أيديهم خلال هذا العام، بالرغم من أنهم تمكنوا من تحقيق نجاح ملفت للنظر على صعيد القبيلتين الأوس والخزرج.

### بيعة العقبة الأولى

بعد انقضاء عام من اللقاء الأول عند العقبة، توافد على مكة اثنا عشر رجلاً من أهل المدينة عشرة رجال من الخزرج واثنا من الأوس، التقوا بالنبي ﷺ في المكان نفسه سرّاً من دون علم قريش في شهر ذي الحجة من السنة الحادية عشرة بعد البعثة<sup>(٢)</sup>. لقد جاءوا ليعلموا إسلامهم عند رسول الله ﷺ، وكان ذلك تطور مهم وكبير إذ لم يقتصر الأمر على رجال الخزرج بل اشترك فيه رجال من الأوس كذلك، بالرغم من كل تلك المشاكل والنزاعات والصراعات السابقة التي كانت قائمة فيما بينهم. اشتمل اللقاء على احاديث متبادلة حول مستقبل الإسلام في المدينة وطريقة ايصاله لكل اهلها بصورة واضحة، بعدها طلب النبي ﷺ منهم ان يبايعوه على جملة من المبادئ الأخلاقية التي جاء الإسلام بها وأكدها لترسيخها في داخل المجتمع، منها عدم الشرك بالله الواحد الاحد، وأن لا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا بالباطل ولا يعصوا رسول الله ﷺ، وطلب منهم ان يبايعوه عليها فبايعوه على ذلك وعرفت هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى<sup>(٣)</sup>.

في نهاية لقائهم هذا طلبوا من النبي ﷺ أن يبعث معهم رجلاً من المسلمين يعلمهم هناك في المدينة امور الدين والعبادة ويسهم في دعوة الآخرين من الأوس والخزرج، ويبدو لي أن النبي ﷺ لم يكن بانتظار طلبهم هذا فهو المحيط العارف

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٢٩٢؛ ابن سعد، الطبقات، م٤، ج١، ص ١٤٧.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٢٩٤؛ ابن سعد، الطبقات، م٤، ج١، ص ١٤٦-١٤٧؛ يعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٣٨.

(٣) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٢٩٥؛ ابن سعد، الطبقات، م٤، ج١، ص ١٤٨؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٣٥٥-٣٥٦.

بحاجات الدعوة ومستلزمات نجاحها، كان قد هيئ لهذا الأمر في وقت سابق أحد الصحابة الأجلاء الثقة وهو (مصعب بن عمير)، فبعثه معهم ليقوم: أولاً، بنشر الدعوة الإسلامية بالصورة الصحيحة السليمة على أهل المدينة فهو أكثر معرفة ودراية من أهل المدينة حديثي الإسلام. ثانياً، أنه أكثر قدرة على ملاحظة البيئة والظروف في المدينة ومدى ملاءمتها لتكون مركزاً للمسلمين والدعوة حتى تبدأ عملية الانتقال والهجرة إليها.

بعد انتقال الصحابي الجليل مصعب بن عمير إلى المدينة تمكن من القيام بجملة من الأعمال الكبيرة فيها، فهو فضلاً عما كان يقوم به من تعليم الناس أمور الدين ودعوتهم إلى الإسلام، وإرساله الأخبار السارة والتطورات الحاصلة إلى النبي ﷺ فيما يخص أعماله ونشاطاته في المدينة، إذ تمكن من التقريب بين القبيلتين الأوس والخزرج ولم يفرق في التعامل مع أفرادهما. فبعد وصوله استقر في دار أسعد بن زرارة، وبدأ يصلي ويؤم الناس كما أخذ بالمواظبة على دعوة أهل المدينة إلى الإسلام بمعية الشخصيات المهمة والمؤثرة الذين دخلوا الإسلام وامنوا بذلك وكان لهم شرف اللقاء بالنبي ﷺ، هذه التحركات لم تواجه باعتراضات شديدة أو صعوبات كما هو الحال في مكة بل وجد أن الأرضية مهيأة والنفوس مستعدة لقبول هذه الدعوة وأن هنالك مرونة كبيرة للاستماع إليه والاستجابة لدعوته فبدأ يحقق نجاحاً كبيراً، وكان يبعث بالأخبار الطيبة السارة باستمرار إلى النبي ﷺ، كما أنه لم يكن يركز في حركته ودعوته على قبيلة دون أخرى بل شمل الأوس والخزرج على حد سواء، فضلاً عن باقي الأعراب الموجودين في المدينة<sup>(١)</sup>.

لقد وظف مصعب بن عمير ما تمتع به مع سمات طيبة في شخصيته للتأثير في الناس، فكانوا يستمعون إليه وهو يتلو عليهم آيات القرآن أو يتحدث اليهم عن مبادئ الدين الإسلامي، ومما يذكر في هذا الشأن أن بعض زعماء الأوس كأسيد بن حضير وسعد بن معاذ كانا على دين الشرك وما أن استمعا إليه والى أحاديثه وتلاوته للقرآن حتى دخلا في الإسلام، كما نقل عن سعد بن معاذ وهو من كبار زعماء الأوس أنه

(١) ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٢٩٦؛ ابن سعد، الطبقات، م ٤، ج ١، ص ١٤٨.

قال: ما أسمع إلا ما أعرف وكلامه فيه إشارة واضحة إلى أن ما ورد في القرآن الكريم كلام لا يتقاطع ولا يتناقض مع ما لديه من معرفة واضحة حول النبوة والتوحيد. لقد أسهم مصعب بن عمير مساهمة كبيرة في إحداث استجابة عالية لدى الأوس والخزرج حتى أن سعد بن معاذ أصرّ على أن ينتقل مصعب إلى داره وعمل هو وأسيد بن حضير على تسهيل دخول الأوس إلى الإسلام، وبعد أن تكاثرت أعداد المسلمين في المدينة قام مصعب يؤمهم بالصلاة، ثم أذن له النبي ﷺ أن يصلي فيهم صلاة الجمعة، فكانت أول صلاة جمعة في الإسلام تقام في المدينة قبل الهجرة النبوية المباركة، إذ لم تكن هذه الصلاة مقامة حتى ذلك الوقت عند المسلمين<sup>(١)</sup>. على ما يبدو أن سبب عدم إقامتها حتى هذا الوقت يعود للظروف التي لم تكن ملائمة في مكة حتى تقام هذه الصلاة هناك، فالبيئة التي تقام فيها صلاة الجمعة واجتماع الناس لأدائها يلزم أن يتوافر فيها عنصر الامان، وفي مكة لم يأمن النبي ﷺ على سلامة أصحابه، فلما توافرت في المدينة أذن إلى مصعب بن عمير أن يقيمها هناك.

### بيعة العقبة الثانية

إذن الأجواء في المدينة أصبحت مناسبة وملائمة لانتقال النبي ﷺ وأصحابه المكيين، فحصل اللقاء الثالث بينه وبين أهل المدينة، وعرفت ببيعة العقبة الثانية. ففي شهر ذي الحجة من السنة الثانية عشرة من بعد البعثة وفي موسم الحج وازدحام الناس في مكة، وصل جمع غفير من أهل المدينة الأوس والخزرج بلغ عددهم نحو خمس وسبعين فرداً من بينهم امرأتان. وفي وقت متأخر من الليل تسلل هؤلاء الرجال بصحبة من معهم من النساء إلى منطقة العقبة إذ كان موعدهم مع النبي ﷺ، وتذكر المرويات أن رسول الله ﷺ اصطحب معه لهذا اللقاء وفداً من أهله يتقدمهم عمه العباس على الرغم من أن العباس في ذلك الوقت مازال مشركاً غير مسلم<sup>(٢)</sup>. إن هذه

(١) ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٢٩٦-٢٩٨؛ الطبري، تاريخ، جـ٢، ص ٢٥٦-٢٥٩؛ ابن الأثير، الكامل، جـ١، ص ٦١١-٦١٢.

(٢) ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٣١١، ٣٠٢؛ ابن سعد، الطبقات، م ٤، جـ١، ص ١٤٩؛ الطبري، تاريخ، جـ٢، ص ٣٦١-٣٦٢.

الاشارات قصدت الارتقاء بمكانة العباس واعطائه دور بارز ومهم في بيعة العقبة، وهي في واقع الحال صناعة مفتعلة لا تستند إلى العقل والمنطق، ترمي إلى إعطاء أهمية كبيرة مبالغاً فيها للعباس لخدمة المواقع السلطوية اللاحقة التي حصل عليها العباسيون.

إن قدوم الوفد من المدينة بهذا الحجم الكبير الذي يدل على تقدير شخص النبي ﷺ وتكريمه، وأخبار النجاحات التي تحققت في المدينة التي كان يبعث بها مصعب بن عمير لرسول الله ﷺ، قد أسهمت بدرجة عالية في طمأنة النبي ﷺ بنتائج هذا اللقاء قبل أن يتم، كما أنه لم يكن بحاجة إلى من يتحدث نيابة عنه. ولذلك أظن أن من رافقه في هذا اللقاء هم المقربون جداً منه ومنهم علي بن أبي طالب (عليه السلام) وزيد بن حارثة وعمه حمزة بن عبدالمطلب وابو بكر بن قحافة، كما أن النبي ﷺ كان يرغب في أن تبقى أخبار هذا اللقاء غير معلومة لأهل مكة وأن لا تصل إلى مسامعهم حتى يتم الأمر بالكامل.

يلخص ابن هشام الحوار الذي جرى بين النبي ﷺ وزعماء هذا الوفد إذ يقول: «فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن بداية حديثه ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم، قال: فأخذ البراء بن معرور وهو من الخزرج بيد النبي ﷺ ثم قال والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أزارنا فبايعنا يارسول الله فنحن والله ابناء الحروب واهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر. يقول ابن هشام: «فقاطعه ابو الهيثم بن التيهان فقال يارسول الله ان بيننا وبين الرجال حباً وأنا قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم انا منكم وانتم مني احارب من حاربتم واسالم من سالمتم»<sup>(١)</sup>. وبذلك فقد تعهد لهم النبي ﷺ ان لا يفارقهم حتى مماته مهما فتحت امدن والأراضي وهذا ما حصل بالفعل، اذ بقي في المدينة ودفن فيها التزاماً بعهده لهم، وكان بمقدوره العودة إلى مكة بعد أن خضعت لسلطته ونفوذه قبل وفاته بأكثر من عامين.

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٣٠٢-٣٠٣.

### أسباب اعتناق الأوس والخزرج الإسلام

لابد هنا من تسليط الضوء على موقف قبيلتي الأوس والخزرج الذين ظهروا بموقف مشرف وعظيم حينما اعتنقوا الإسلام وقبلوا ان يحتضنوا النبي ﷺ واصحابه من اهل مكة في مدينتهم ويقاسموهم ما يملكون، بل قبلوا بمعادة قبائل كبيرة مع علمهم انهم قد يتعرضون لأخطار جسيمة على اثر ذلك الموقف. ان القبول بالدين الإسلامي والعمل على توفير الحماية للنبي ﷺ واصحابه هو تحدٍ كبير، عرض بيوتهم وعيالهم ومصالحهم الى مخاطر كبيرة، فما الذي دفعهم لهذا التحدي والقبول بالإسلام؟

سبق ان تعرضنا لجزء من الإجابة عن هذا السؤال حينما تطرقنا باختصار الى احوال الأوس والخزرج قبل دخولهم الإسلام، اذ كانوا في حالة من النزاع المستمر والاقتتال الذي حصد من الطرفين أرواحاً كثيرة<sup>(١)</sup>، وقد شعر أبناء القبيلتين بضرورة وقف هذا النزاع بينهم، ولكنهم كانوا بحاجة إلى من يتبنى هذا الأمر ويوقف نزيف الدم، ولم يظهر لهم من يمتلك القدرة على ذلك سوى النبي محمد ﷺ الذي وجدوا فيه خير من يحقق وحدتهم وخلاصهم من نزيف الدم المستمر.

الأمر الآخر ان الأوس والخزرج بحكم احتكاكهم في المدينة بالقبائل اليهودية، جعلهم يطلعون على بعض ما يتداوله اليهود من أمور النبوة والأنبياء، وكانت لديهم احاديث يتداولونها بشأن نبي سيعثه الله تعالى في زمانٍ ما من بين أبنائهم اي من أبناء اليهود وان الله تعالى سيفتح على يديه الأرض وينصره، فكان اليهود يتوعدون به الأوس والخزرج انه اذا ما ظهر هذا النبي لن يبقوهم في المدينة فأما ان يقتلونهم أو يطردونهم<sup>(٢)</sup>، وقد ذكر ذلك في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كَذَبُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ

(١) للمزيد من المعلومات حول النزاعات والحروب التي نشأت بين الأوس والخزرج وتفصيلها يمكن مراجعة: يعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٣٧؛ ابن الاثير، الكامل، ج١، ص ٥١٩ - ٥٤٠.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٢٩٢؛ يعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٣٧ - ٣٨؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

وَكَاثُومٍ مِّن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾، يبدو إن هذه الأحاديث كانت تؤثر في عقول أهل المدينة من الأوس والخزرج، وتشكل جزءاً من هواجسهم ومخاوفهم. فلما سمعوا بظهور نبي في مكة ويدعو لدين جديد سارع قسمٌ منهم للقاءه، ذلك اللقاء الذي تحدثنا عنه عند جبل العقبة في شهر ذي الحجة من نهاية السنة العاشرة من البعثة.

ومن الأسباب التي دفعت الأوس والخزرج للدخول في الإسلام هو الفارق الكبير بينهم وبين يهود المدينة في جانب المعرفة الدينية، فالعرب كانوا يتعبدون الأصنام وليس لديهم معرفة عن النبوة والأنبياء السابقين، معرفتهم الدينية كانت محدودة قياساً بما يمتلكه يهود المدينة <sup>(٢)</sup>، لهذا يمكننا القول إن إحساسهم بمحدودية معرفتهم الدينية قد خلق لديهم طموح وروح منافسة للتفوق على اليهود، فلما ظهرت دعوة دينية موحدة لله تعالى مع كتاب ونبي شعروا بأن هذه الدعوة يمكن أن تمنحهم التفوق على ما لدى اليهود ولذلك أقبلوا على اعتناق الإسلام.

كما أن شخصية النبي محمد ﷺ لم تكن شخصية مجهولة لدى أهل المدينة، فبنو النجار وهم من الخزرج كانوا أحوال جده عبدالمطلب، ووالده عبد الله دفن عندهم، كما ذكر عن النبي ﷺ أنه كان يتردد على بني النجار منذ صباه وهذا التردد خلق المزيد من المعرفة، ومن ثم فإن خصال شخصية النبي ﷺ من صدقه وأمانته، وما عُرف به من أخلاق طيبة وسيرة عطرة كانت حبالاً متينة بينه وبين أهل المدينة ما دعاهم إلى التصديق به، وقبول دعوته، والايمان بها.

(١) سورة البقرة، الآية (٨٩).

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٢٩٢؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٣٥٤.



## الفصل الرابع:

# (التنظيمات في المدينة والصراع مع اليهود حتى سنة ٥ هـ)

- الهجرة إلى المدينة المنورة
- تنظيمات النبي ﷺ في المدينة
- أولاً: بناء المسجد
- ثانياً: المؤاخاة
- ثالثاً: وثيقة المدينة
- الصراع مع يهود المدينة حتى نهاية السنة الخامسة للهجرة
- إجلاء بني قينقاع
- إجلاء بني النضير
- معاقبة بني قريظة





## الفصل الرابع:

### **التنظيمات في المدينة والصراع مع اليهود حتى سنة ٥ هـ**

#### **الهجرة إلى المدينة المنورة**

ترتب على بيعة العقبة الثانية جملة من الأمور التي أسهمت في بلورة مستقبل الإسلام والمسلمين في المدينة وشبه الجزيرة العربية. لقد اتفق النبي ﷺ معهم على أن تبدأ عملية انتقال المسلمين من مكة إلى المدينة، هذا الانتقال الذي عُرف لاحقاً باسم الهجرة النبوية المباركة والذي على أساسه قام التقويم الهجري الخاص بالمسلمين. لقد وجه النبي ﷺ أصحابه من أهل مكة إلى التهيؤ والاستعداد لمغادرة مكة، ثم الخروج منها سراً من دون إثارة الانتباه، كان خروجهم على شكل جماعات صغيرة متفرقة أما أسرى بعينها أو مجموعات من الأفراد، وبمرور الأيام وبعد خروج عدد كبير منهم، انتشرت الاخبار لان غيابهم عن مكة قد لفت الأنظار على الرغم من الحرص الشديد في سرية الحركة فانتشرت اخبار خروجهم من مكة صوب المدينة<sup>(١)</sup>. ان مسألة غياب أسرى كاملة عن مكة أمر يلفت الانتباه ما يُسهم في وقوف قريش على طبيعة هذا الغياب وأسبابه، فالخروج من مكة وترك الديار فارغة والابواب مقفلة يؤدي الى لفت انتباه المحيطين بتلك المنازل القريبين من تلك الأسرى، أو قد يوصي بعضهم من يثق بهم للمحافظة على تلك المنازل، لأننا نتحدث هنا عن مسألة مهمة جداً وهي ان المهاجرين من مكة الذين أمرهم

(١) ابن سعد، الطبقات، م ٥٠، ج ١، ص ١٥٢؛ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٣٦٩.

النبى ﷺ بالخروج إلى المدينة لم يكن لهم علم ودراية بالمدة التي سيقضونها خارج مكة أو موعد عودتهم إليها، فهم لا يعلمون أن تلك الدور والمنازل التي خلفوها وراءهم سيعودن مرة أخرى إليها أم لا؟ ومتى سيكون ذلك؟

السؤال الآخر الأكثر أهمية هنا والذي لم يطرح بشكل واضح وصريح من قبل: ما مدى استجابة المسلمين الأوائل لأمر النبي ﷺ حين أمرهم بالخروج من مكة؟ هل اطاعوه بالكامل ونفذوا ما أمرهم به وفارقوا ديارهم دون أن يتخلف أحد منهم في ذلك؟ ان مفارقة الديار هي مفارقة البيئة والناس والمكان الذي ولدوا ونشأوا فيه، ليس بالأمر السهل إطلاقاً بل هو من اصعب المواقف التي قد يمر بها في حياته، ان يترك ويهجر الانسان دياره مجبراً تاركاً كل شيء خلفه امر في غاية الصعوبة. لذلك فمن الطبيعي ان لا تكون الاستجابة لأمر النبي ﷺ استجابة كاملة والدليل على ذلك ان عدد الذين خرجوا من مكة الى المدينة لم يتجاوز السبعين بحسب المصادر التاريخية!! وهذا العدد لا يتناسب إطلاقاً مع عدد الذين اعتنقوا الإسلام من اهل مكة خلال العهد المكي. ولا سيما قد علمنا أن عدد الذين دخلوا الإسلام خلال السنوات الثلاث الأولى من البعثة قارب الخمسين، فكيف نفتنع ان النبي ﷺ وخلال العشر سنوات المتبقية من المرحلة المكية لم يتمكن من أن يقنع سوى عشرين شخصاً للدخول في الإسلام عدا من هاجروا إلى الحبشة من قبل!!.

ان الرقم الذي ذكرته المصادر التاريخية لمن هاجروا من مكة الى المدينة يؤشر إلى أن درجة الاستجابة للأمر الذي أصدره النبي ﷺ بالهجرة لم تكن كاملة ويمكننا أن نفترض أن نسبة الاستجابة لم تتجاوز (٦٥ - ٧٠ ٪) وعلى هذا الأساس نفترض أيضاً أن من بقي في مكة ما بين (٣٠ - ٣٥ ٪) ممن كانوا قد أعلنوا إسلامهم في وقت سابق ولكن لم يتمكنوا من الهجرة لأسباب كثيرة منها:

السبب الأول: ان البعض كانوا اما مملوكين ليسوا أحراراً أو ممن ينتمون إلى أسر كانت متشددة في معارضتها الدعوة فحُبسوا أو منعوا من الهجرة أو جرى التأثير فيهم بطريقة أو أخرى عن طريق ممارسة الضغوط والحبس والتقييد

وأساليب أخر لم يتمكنوا معها من الهجرة. بذلك هم لم يستجيبوا لأمر النبي ﷺ مكرهين.

السبب الثاني: نظنّ أنّ بعض المسلمين لم يكن قادراً على التضحية بمفارقة الديار والتوجه نحو المصير المجهول، وهو امر طبيعي جداً حينما نضع انفسنا في ذلك الموقف نجده في غاية الصعوبة ان تخير بين ترك الديار والأموال والأحبة وتهاجر إلى مكان لا تعرفه، ولا تعرف الناس فيه، ليس لنا فيه مسكن، وليس لنا فيه عمل يمكننا من العيش الكريم، كل ذلك من اجل ان نحافظ على ديننا ونلتزم بأمر نبينا. وبين البقاء في مكة للمحافظة على ما لدينا من مساكن وأعمال وعلاقات طيبة مع الناس مع إخفائنا لإسلامنا. هو بلا شك خيار افضل بكثير من المضي باتجاه المجهول عند بعض المسلمين الأوائل الذين ظننا أنهم لم يهاجروا الى المدينة وفضلوا البقاء في مكة مع إخفاء إسلامهم. ان التفكير المنطقي المعقول سيفرز لنا فئة من المسلمين تخلفوا عن الهجرة، فبعضهم لم يكن جريئاً امام هذه المعادلة الصعبة وهذا الموقف المصيري.

من المهم الإشارة هنا إلى ما حصل لما خلفه المهاجرون، إذ ذكر ابن هشام ان ما تركوه خلفهم تعرض لتعدي قريش، فقد تعدى ابو سفيان بن حرب على دار بني جحش بن رئاب واخذها ثم باعها وتصرف بالأموال، وقد تكرر هذا العمل مع منازل أخر للمهاجرين قد جرى التصرف بها من قبل اخرين من اهل مكة<sup>(١)</sup>. ورد عند الأزرق في كتابه (اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار) أن معتب بن أبي لهب قام بالاستيلاء على بيت السيدة خديجة عليها السلام، وكان اقرب الناس اليه جواراً فقام ببيعه بمائة الف درهم<sup>(٢)</sup>.

ان قرار الهجرة الذي عمل به بعض المسلمين الأوائل لم يكن قراراً سهلاً، ولم يكن بلا ثمن فثمته كبير، بعض الذين هاجروا تركوا آبائهم، أمهاتهم، إخوانهم

(١) ابن هشام، السيرة، جـ ٢، ص ٣٢٣.

(٢) الأزرق، ابو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت- ٢٥٠ هـ / ٨٣٧ م)، اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح، (دار الأندلس، ط ٣، بيروت، ١٩٨٣)، جـ ٢، ص ٢٤٦.

وأحبتهم غاضبين وناقمين عليهم. لم يجر الأمر بسهولة ولم تكن التضحية بسيطة. المشاعر الإنسانية لا تقدر بثمن حينما تخسر قلب أمك وأبيك وإخوتك لاشك في أنها خسارة ما بعدها خسارة، إنّ الذين هاجروا خلفوا وراءهم اثماً باهظة، يمكن القول إنها خسائر كبيرة على المستوى الوجداني العاطفي ناهيك عن الخسائر المادية التي تحدثنا عنها بترك المنازل والأعمال والمصالح المادية. ان المسلمين الأوائل باستجابتهم تلك لأمر النبي ﷺ وطاعتهم لأمر الله تعالى بالخروج من مكة إلى المدينة على الرغم من أن المعطيات لم تكن واضحة بالانتصار والظفر ونجاح الدعوة، فميزان القوى في زمن الهجرة كان في مصلحة قريش ومصلحة عبادة الأصنام والأوثان. لذلك نقول إنّ الموقف الذي وقفه المسلمون الأوائل موقف عظيم ومشرف وتضحيتهم كانت كبيرة، من الصعب على أي مسلم اليوم أن يقف موقفاً موازياً له ويضحى هذه التضحية العظيمة، إنّ من غير المنصف أن نحاكم أي مسلم ينتمي إلى تلك المرحلة من المهاجرين من مكة إلى المدينة تنفيذاً لأمر الله تعالى وبنية المصطفى ﷺ من دون النظر بعقلانية وعدالة إلى طبيعة هذه التضحية وحجمها الكبير.

ان كل مسلم اليوم لو أراد أن يختبر شجاعته وتضحيته في نصرة الإسلام لأجل ان يرى مقدار تلك الشجاعة والتضحية التي كان عليها المسلمون الأوائل سيجد ان قرار هجرتهم الى المدينة كان في غاية الصعوبة، فعليه اولاً ان يسأل نفسه: هل هو قادر على ترك دياره واهله واحبائه وعمله والهجرة الى مكان مجهول لا يعرف عنه شيئاً وليس فيه إلا أناس أغراب عنه، وانه سيتحمل الجوع والحاجة والغربة من أجل دينه. هل هو قادر على ذلك؟ إن من دواعي الإنصاف في تقييم الناس والحكم عليهم أن أضع نفسي في مواقف مماثلة لما تعرضوا له من مواقف صعبة حتى يكون الحكم عادلاً ومنصفاً، والا فالأولى بنا ترك الاحكام لله تعالى وحده.

حقاً ان المسلمين الأوائل كانت لهم مواقف عظيمة تجلت في طاعتهم لرسول الله ﷺ ومسارعتهم لتنفيذ اوامره وان كان ذلك المضي نحو المجهول، كما

ان السرور الذي كانوا يدخلونه على قلب النبي ﷺ حينما يعلن احدهم انه آمن بدعوته ودخل الإسلام في وقت كان النبي ﷺ في تلك السنوات بأمس الحاجة للشعور بنجاحه ونجاح دعوته. هل نستشعر الفرح الكبير والغامر الذي كان يشعر به النبي ﷺ حينما يأتي احدهم بين يديه ويقول (اشهد ان لا اله الا الله وانك يا محمد رسول الله)، هل تخيلنا حجم السرور الذي كان يصيب قلبه الطاهر ﷺ، ثم بعد ذلك نسأل انفسنا أي جزاء سيصيب صحابته الذين منحوه السرور والإحساس بالنجاح؟ انهم يستحقون كل الاحترام والثناء والتقدير لمواقفهم تلك.

### هجرة النبي ﷺ الى المدينة

بعد ان اطمئن النبي ﷺ على خروج معظم المسلمين من مكة إلى المدينة على امتداد شهرين أو ثلاثة بعد بيعة العقبة قرر اللحاق بهم، وفي الاثناء كانت قريش تخطط لقتله قبل خروجه من مكة. كان هذا اقتراح أبو جهل: ان يأخذوا من كل قبيلة شاباً قوياً، فيدخلوا على النبي ﷺ بأسيا فهم ويضربونه ضربة رجل واحد، فيقتلونه ويتفرق دمه بين القبائل، فيعجز أبناء عمومته عن الثأر ويقبلوا بالدية، وبذلك ينتهي أمره.

اجتمع القتلة على باب دار النبي ﷺ، كان عددهم نحو خمسة عشرة مسلحاً، لقد اخبره الله تعالى بمكرهم وخطتهم، ثم قام هو بإخبار ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام بما عزم عليه قريش، واتفق معه على ان ينام بدلاً عنه في فراشه، فقال له: أتسلم بميستي هناك يا نبي الله؟ قال النبي ﷺ: نعم، فنام على فراشه ملتحفاً ببردته وهو في قمة السرور ان يفتديه بنفسه، وبعد ان ودعه النبي ﷺ خرج من بين المسلحين الذين يحيطون بداره وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾<sup>(١)</sup> فلم يشعروا به بعد ان رمى قذبة من التراب على رؤوسهم، ثم أخذ طريقه الى غار ثور، حيث أدركه أبي بكر ودخل معه الغار، في حين استمر المسلحون يحيطون بالدار لم يفعلوا شيء حتى الصباح،

(١) سورة يس، الآية (٩).

حينذاك سلوا سيوفهم واقتحموا الدار، وإذا بهم يفاجئوا بعلي عليه السلام نائم على سرير النبي ﷺ، فخاب مسعاهم وفشلت خطتهم<sup>(١)</sup>.

جن جنون المشركين في مكة بعد فشلهم في اغتيال النبي ﷺ، فسارعوا في طلبه واقتفاء اثره، حتى انهم وضعوا جائزة كبيرة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، وخلال عمليات بحثهم الواسعة تمكنوا من الوصول الى غار ثور، الا انهم وجدوا ان باب الغار قد نسجت عليها العنكبوت خيوطها، والحمامة كانت حاضنة لبيضاتها، فاستنتجوا ان الغار مهجورة منذ زمن وليس بداخلها أحد، وبذلك انجاهم الله تعالى من كيد وغدر المشركين.

بعد ثلاثة أيام من مكوثهم في الغار، وبعد ان خفت عمليات البحث عنهم، بدأت رحلتهم نحو المدينة فكان تاريخ انطلاقهم من مكة في أول ليلة من شهر ربيع الاول من السنة الثالثة عشرة بعد البعثة، ولكن من اين لهم بالرواحل التي حملتهم حتى بلوغ اطراف المدينة؟ المرويات التاريخية تنقسم إلى قسمين: منها ما يؤكد على ان أبا بكر كان قد اشتراها من ماله الخاص وجهزهما، ومن ثم اعطاه النبي ﷺ ثمن راحلته. ومنها ما يشير إلى قيام النبي ﷺ بتكليف الإمام علي عليه السلام بشراء تلك الرواحل وتجهيزها لأمر الهجرة. السؤال المهم هنا في الوقت الذي اختبئ به النبي ﷺ في غار ثور وقريش تبحث عنه وتدقق في جميع الاماكن التي تتوقع ايجاده فيها، ومن البديهي انها كانت تراقب تحركات أفراد أسرة النبي ﷺ وبالخصوص ابن عمه الإمام علي عليه السلام، وأفراد أسرة أبي بكر، فكيف تمكنوا من اخفاء الرواحل في ذلك الظرف العصيب وكيف اوصلوهن اليهم؟

إن التصور المنطقي المقبول يجبرنا على استبعاد القصتين، بالرغم من عدم قدرتنا على طرح تصور بديل لكيفية حصول النبي ﷺ ورفيقه أبي بكر على الرواحل، لأننا نظن أن التواصل معهم قد انقطع تماماً فور توجههم إلى غار ثور، وأن النبي ﷺ تكتم على خطة اختبائهم هذه ولم يُطلع عليها احداً حتى أبي بكر

(١) العاملي، جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي الاعظم ﷺ، دار الهادي، ط٤، بيروت، ١٩٩٥، ج٤، ص٧-١١.

الذي على ما يبدو أخبره بها بعد أن اصطحبهُ للغار. كما ان النبي ﷺ في هذا الوقت بلغ الثالثة والخمسين من عمره، قضى ما يقرب من نصفها مشغولاً بالتجارة وعارفاً بمدن الحجاز وطرق التنقل فيما بينها، لذلك احسبُ أنه لم يكن بحاجة إلى دليل مع أن جميع المرويات إشارة إلى دور عبد الله بن ارقط في كونه الدليل الذي اوصلهم إلى اطراف المدينة.

إن الإضافات الكثيرة التي نجدها في ضمن تفاصيل حادثة الهجرة النبوية هذه، في تقديرنا انها جاءت في مراحل زمنية متأخرة لسد بعض الثغرات التي ظهرت في الرواية، فالمسلمين الذين عاصروا الهجرة وشهدوا احداثها كان همهم الأكبر يتركز في سلامة وصول النبي ﷺ إلى المدينة، اما باقي التفاصيل: أي طريق سلكوا، ماذا اكلوا، كيف حصلوا على الرواحل؟ هذه التفاصيل لم تكن لتشكل أهمية لديهم بقدر أهمية سلامة الوصول. وفي الاوقات اللاحقة كان البحث عن هذه التفاصيل في غاية الأهمية لاسيما بعد ظهور الحفظة والمتطلعين لمعرفة أخبار النبي ﷺ وأحاديثه. الأمر الآخر نعتقد ان هذه الإضافات أسهمت في إعطاء أدواراً بارزة ومهمة لبعض الشخصيات.

اما الإمام علي عليه السلام فقد تأخر في مكة لان النبي ﷺ كلفه ان يؤدي الامانات عنه، حتى لا يبقى بدمته شيء للناس، فكان ينادي في الابطح من كانت له أمانة عند رسول الله ﷺ فليأت حتى نعطيها إليه، فلما اكمل تسديد الامانات أخذ يتهيأ للهجرة نحو المدينة مستصحباً معه الفواطم: السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وفاطمة بنت أسد (والدته)، وفاطمة بنت الزبير بن عبدالمطلب. عند خروجهم من مكة وقريباً من منطقة ضجنان لحقهم ثمانية من فرسان قريش فأمروا الإمام علي عليه السلام ومن معه بالرجوع، فرفض ذلك، ثم حاولوا ارغامهم بالقوة، الا ان بسالة وشجاعة الإمام علي عليه السلام في صدهم جعلتهم ينسحبون ويعودون ادراجهم خائبين. ثم لحق بهم نفر من المسلمين المستضعفين وفيهم أم أيمن مولاة النبي ﷺ. وكان عليه السلام يياشر بالمسير ليلاً، اما في النهار فكان يكمن للمشركين خشية غدرهم ومهاجمتهم، إلى أن وصلوا اطراف المدينة بسلام حيث كان النبي ﷺ بانتظارهم



في قباء، فكان الإمام علي عليه السلام مجهداً قدماه قد تفتطرت من الدماء، فاحتضنه النبي ﷺ وفرح بسلامتهم، ليدخلوا بعدها سوياً إلى المدينة<sup>(١)</sup>.

### تنظيمات النبي ﷺ في المدينة

بعد دخوله المدينة واستقباله بفرح غامر وحفاوة من أهلها، وجد النبي ﷺ ان امامه عمل شاق وكبير يجب أن يباشر فيه منذ اليوم الأول، فكان التركيز على الجانب التنظيمي في مجمل شؤونهم الحياتية، فضلاً عن ضرورات التأسيس لحالة الاندماج الجديدة بين العناصر المختلفة. لقد ظهر النبي ﷺ خلال هذه المرحلة بهيأة رجل دولة بامتياز، لم يكن دوره مقتصرًا على تبليغ الرسالة فحسب، بل أخذ يؤسس لدولة ويُنشأ مجتمع وفق ما جاءت به الدعوة الإسلامية، وهذا الامر لم يكن بالسهل واليسير ضمن المفاهيم والمعارف والثقافة السائدة آنذاك. فمن أهم ما قام به من تنظيمات بعد وصوله المدينة:

#### أولاً: بناء المسجد

وهو في مقدمة تلك التنظيمات من حيث الأهمية، لقد باشر النبي ﷺ باختيار موضعاً أقيم عليه المسجد ليكون مركزاً للعبادة ومقرّاً له ولإصحابه يؤدي وظائف عدة منها:

أولاً: الوظيفة الدينية، وهي اول الوظائف واهمها التي دفعت لإقامة هذا المسجد، تتم فيه عبادة الله تعالى وإقامة الصلاة منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا.

ثانياً: الوظيفة السياسية، والتي قدمها المسجد بعد اتخاذه مركزاً لهم للمشاورات والقرارات والتبليغات التي تخص شؤون المسلمين ومستقبلهم وعلاقاتهم المحيطة بالقبائل والقوى في شبه الجزيرة العربية، إذ تمت كل تلك الممارسات في المسجد.

(١) العاملي، الصحيح من سيرة النبي ﷺ، ج٤، ص ١٢-١٣.

إلا ان مسجد المدينة هذا لم يكن الأول بحسب بعض الآراء، إذ صلى النبي ﷺ قبل دخوله المدينة في طرفها الجنوبي عند قباء لعدة أيام، حين كان ينتظر وصول ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام ومعه الفواطم، بعدها قام بنو عمرو بن عوف الذين كان يقيم عندهم النبي ﷺ بتشيد مسجد على المكان الذي صلى فيه وعرف لاحقاً باسم مسجد قباء<sup>(١)</sup>.

يرى بعض المؤرخين ان مسجد قباء هو اول المساجد التي شيدت في الإسلام، في المقابل هنالك اكثر من وجهة نظر بشأن أول المساجد التي شيدت، منها ما يخص المكان الذي كان يصلي فيه مصعب بن عمير قبل هجرة النبي ﷺ وباقي المسلمين في المدينة، المكان الذي صلى خلفه اهل المدينة وتعلموا منه عباداتهم كما شهد اقامة اول صلاة جمعة في الإسلام<sup>(٢)</sup>، ألا يعد ذلك المكان هو اول مسجد للمسلمين؟ لاشك في ان البحث في مسألة اول المواضع التي اتخذت مسجداً للمسلمين سيضعنا إزاء آراء متعددة كل منها يريد الفوز بالفضيلة والسبق، ويمكن الفصل بين هذه الآراء حينما نحدد الموضع الذي اتخذهُ النبي ﷺ بنفسه وشيد عليه المسجد في المدينة عندها سيكون واضحاً جلياً ان مسجد المدينة الحالي الذي يجاورهُ قبر النبي ﷺ هو اول المساجد التي شيدها في الإسلام لاسيما وقد كان تشييد هذا المسجد بإشراف مباشر من قبله بكل التفاصيل.

اما عن قصة اختيار الموضع وتشييد البناء فيذكرها المؤرخون بالتفصيل: مما قيل فيها إن النبي ﷺ لما دخل الى المدينة تسابق الناس يريدون الظفر به ليقيم عندهم، الكل اراد ان يتشرف باستضافته في داره، لكنه كان يعتذر من هذا ومن ذاك، كان يقول لهم خلوا سبيل الناقة فإنها مأمورة، تركوها تسير في طرقات المدينة والنبي ﷺ وباقي المسلمين يتابعونها حتى توقفت عند فناء لأحد الدور العائدة لغلامين يتيمين من بني النجار، بركت الناقة في هذا الموضع، فسئل النبي ﷺ عنه

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٣٤٣؛ ابن سعد، الطبقات، م٥، ج١، قسم ٢، ص ٥-٦.

لمن يعود؟ فقليل له أنها تعود لغلامين يتيمين، فاشترها منهنّ بعشرة دنانير ثم امر ان يقام عليها المسجد<sup>(١)</sup>.

لقد شرّع المسلمون من المهاجرين ومن اهل المدينة معاً ببناء هذا المسجد شاركهم النبي ﷺ بنفسه في العمل، وكان دار أبي ايوب الأنصاري (خالد بن زيد من بني النجار) مجاوراً لموقع العمل، فنزل عنده النبي ﷺ ريثما يكتمل بناء المسجد ومسكنه. كان مسكن النبي ﷺ عبارة عن غرفة صغيرة الحجم ملاصقة لجدار المسجد اول الأمر ثم تعددت الغرف الصغيرة بتعدد زوجاته، اما مساحة المسجد فلم تتعدّ مائة ذراع مربعة وهي لا تتجاوز (٦٠) ستون متراً مربعاً بحسب ما ذكرته المصادر التاريخية، وهذه المساحة الصغيرة على ما يبدو كانت في زمن انشائه ولم يستمر على ذلك الحجم بل جرت عليه اول عمليات التوسعة بعد الانتصار في غزوة خيبر، حتى بلغت مساحته بحدود (١٤٠) مائة واربعون متراً مربعاً وفقاً للحدود التي لازالت واضحة الى اليوم ولا سيما علامات جدار المسجد من جهة قبر النبي ﷺ التي لم يطرأ عليها اي توسعه، فجعلوا منبر النبي ﷺ وسط المسجد، اما مادة البناء فكانت اللبن وهي طين تُخمّر لمدة حتى تُصبح مهياة للاستعمال في عملية البناء، كانت الجدران من اللبن والسقف من جريد النخيل، اما الأعمدة التي يقوم عليها هذا السقف فكانت من جذوع النخيل<sup>(٢)</sup>.

تختلف المرويات في المدة التي استغرقها بناء المسجد ومسكن النبي ﷺ فهناك من يحدد زمناً طويلاً يصل الى سبعة أشهر، وهو وقت طويل جداً لإكمال مساحات صغيرة من البناء البسيط<sup>(٣)</sup>. ان الاهمية الكبيرة للمسجد بالنسبة للمسلمين كونه مقراً ومركزاً للعبادة وكذلك للمداولات والمشاورات مع النبي ﷺ لا شك في ان ذلك يدفع المسلمين إلى انجازه في مدة قصيرة لحاجتهم اليه، فهو يشابه في قيمته ووظائفه

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٣٤٣-٣٤٤؛ ابن سعد، الطبقات، م٥، ج١، قسم ٢، ص ٢؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٣٩٦؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ٩.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٣٤٣-٣٤٤؛ ابن سعد، الطبقات، م٥، ج١، قسم ٢، ص ٢-٣؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٣٩٦-٣٩٧.

(٣) ابن سعد، الطبقات، م٥، ج١، ص ١٦١.

ما يقوم به كل من مقر ادارة الدولة والمؤسسات التعليمية فضلاً عن دور العبادة مجتمعة، لذلك نعتقد ان المسجد انجز في وقتٍ قصير جداً ولكن مسكن النبي ﷺ قد تأخر عن ذلك.

لقد تطورت وظائف المسجد لاحقاً واخذ يلعب ادواراً كبيرة ومؤثرة في واقع المجتمعات الإسلامية المتعاقبة، فقد شغل الوظيفة التعليمية التي بدأت منذ عصر النبي ﷺ ولم ينحصر دور المسجد بالعبادة فحسب، أو ادارة شؤون المسلمين، بل تحول الى مكان للتعليم وطلب العلم بدءاً من تعلم قراءة القرآن والوقوف على معانيه ومضامينه الى التفرع بعلومه جميعها، بذلك يمكن القول ان البذور الأولى للعملية التعليمية في المجتمعات الإسلامية بدأت في مسجد المدينة وبإشراف النبي ﷺ وتوجيهه، فهو المعلم الأول اذ كان يجلس في مسجده يسأله الناس فيجيب ما التبس عليهم ويوضح لهم ما نزل من القرآن، يقرؤه عليهم ويستمع الى تلاوتهم وقراءاتهم فيصحح لهم وهكذا هي مراكز التعليم تؤدي هذه الوظائف. اذن المسجد الذي شيد في هذه المرحلة بعد الهجرة كان من الإجراءات الذكية والمهمة التي تعبر عن قيمة هذا الدين وقيمة الخطوات التي قام بها النبي ﷺ لبناء وتأسيس مجتمع إسلامي إنساني صالح.

### ثانياً: المؤاخاة

من التنظيمات الأخر بعد الهجرة هي المؤاخاة التي دعا إليها النبي ﷺ وهي باختصار علاقة أخوية ومشاركة تضامنية بين فرد من المهاجرين وفرد من الانصار دون أن يرث أحدهما الآخر، أراد النبي ﷺ أن يعالج بها ظروف المهاجرين الصعبة الذين وصلوا إلى المدينة ولا يمتلكون شيئاً، فضلاً عن التقارب والانسجام وحالة الاندماج الذي قصد إحداثه بين خليطين غير متجانسين ينتميان الى بيئات مختلفة: الخليط الأول ينتمي الى البيئة المكية، والآخر ينتمي إلى بيئة المدينة، وليس من السهل إحداث حالة الانسجام بينهما، إلا ان حنكة النبي ﷺ وحسن معالجته للأمر جعلته يتكرر هذا الأسلوب القائم على إنشاء علاقات إنسانية تتجسد فيها

معاني المشاركة والمساندة والأخوة بعد ان دعا الى مبدأ المؤاخاة بين المهاجرين والانصار.

اما عدد الذين آخى النبي ﷺ بينهم، فقد كانوا بحدود المائة رجل على اختلاف المرويات نصفهم من المهاجرين ونصفهم الآخر من الانصار، إلا ان العدد على ما يبدو لم يتوقف عند هذا الحد فالمدينة استمرت في استقبال المسلمين الجدد على امتداد سنوات الدعوة والنبي ﷺ يجدد المؤاخاة كما حصل مع أبي ذر الغفاري والمنذر بن عمرو اذ آخى النبي ﷺ بينهما بعد قدوم أبي ذر إلى المدينة عقب انتهاء معركة أحد<sup>(١)</sup>.

لقد آخى النبي ﷺ بين أبي بكر وخارجة بن زهير، وبين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك، وبين عمه حمزة وزيد بن حارثة وهكذا باقي الصحابة<sup>(٢)</sup>، وقيل انه ترك علي بن أبي طالب ﷺ لم يؤاخيه مع احد فسأله: يا رسول الله آخيت بين اصحابك وتركتني؟ فقال النبي ﷺ: انما تركتك لنفسي أنت أخي وانا أخوك، فأن ذكرك أحد فقل: أنا عبد الله وأخو رسوله، لا يدعيها بعدك إلا كذاب. والذي بعثني بالحق ما أخرجتك إلا لنفسي، وانت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي<sup>(٣)</sup>.

حققت المؤاخاة أهدافاً كثيرة إذ إنّ النبي ﷺ لم يقصد منها معالجة العوز

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٣٥٢؛ ابن سعد، الطبقات، م ٥، ج١، ص ١؛ المقرئ، امتاع الاسماع، ج٢، ص ٦٩.

(٢) للاطلاع على كافة الأسماء التي آخى النبي ﷺ بينها من المهاجرين والانصار يمكن الرجوع الى: ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٣٥١-٣٥٣.

(٣) هذا الحديث ورد في اغلب المصادر ومنها على سبيل المثال لا الحصر: الترمذي، أبي عيسى محمد بن عيسى (ت-٢٧٤ هـ/٨٩٢ م)، سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦)، ج٧، ص ٨٤، حديث ٣٧٢٠؛ الطبري، محب الدين أحمد بن عبد الله (ت-٦٩٤ هـ/١٢٩٥ م)، ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، تحقيق: محمد امين طناوي، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧١)، ص ٨٢؛ المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين (ت-٩٧٥ هـ/١٥٦٧ م)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري الحياتي صفوت السقا، (مؤسسة الرسالة، ط ٥، بيروت، ١٩٨٥)، ج١٣، ص ١٠٥-١٠٦.

المادي فحسب، بل هي مفهوم جديد للعلاقة الإنسانية أسهمت في توثيق العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامي، فالمهاجرون قدموا من مكة بأنفسهم لا يملكون شيئاً من الأموال وليس لديهم مساكن ولا اعمال، في حين ان الأوس والخزرج كانت أحوالهم الاقتصادية أفضل من المهاجرين فأراد النبي ﷺ ترسيخ مفهوم المشاركة، وان لا تكون هنالك فوارق فيما بينهم، فتقاسم اهل المدينة مع اخوانهم من المهاجرين ما يمتلكونه.

لم يتوقف النبي ﷺ عند هذا الحد بل عمل على ردم الفجوة بين الأوس والخزرج منذ اللحظات الأولى لمقدمه الى المدينة، من خلال دفعهم نحو الشعور بحالة الانتماء الواحدة حينما منحهم تسمية جديدة باسم (الأنصار) التي سرعان ما حلت محل التسميات السابقة وأسهمت في إدخالهم في ضمن حالة انتماء جديدة ضمن المنظومة الإسلامية فأصبحوا يعتزون ويتفاخرون بكونهم من الانصار الذين نصروا رسول الله ﷺ، وأزال بذلك المشاكل الكبيرة والنزاعات القديمة بينهما التي سرعان ما اختفت وحلت محلها رابطة وثيقة تحت خيمة الإسلام.

ان هذه الإجراءات التي قام بها النبي ﷺ في ضمن التنظيمات الأولى لهذا المجتمع الإسلامي الناشئ قصد منها ان تؤدي الى خدمة الدعوة الإسلامية وإحداث حالة انسجام عالية بين افرادها، والشعور بالانتماء الواحد لمجتمع خالٍ من الخلافات والنزاعات الداخلية، مما أسهم وبشكل كبير في استمرارية الدعوة ونجاحها حتى وفاة النبي ﷺ.

### ثالثاً: وثيقة المدينة

وثيقة المدينة التي عرفت بتسميات آخر منها صحيفة المدينة أو دستور المدينة وهي في الأصل جزء من التنظيمات التي قام بها النبي ﷺ بعد الهجرة. هذه الوثيقة يدور حولها الكثير من الجدل بسبب التضارب والاختلاف الذي احتوته المرويات فيما يخص تاريخ عقدها والأطراف الذين اشتملت عليهم، ما منح المستشرقين الفرصة للطعن بصحتها والتشكيك في بعض بنودها.

عند مناقشة اصل هذه الوثيقة وما اشتملت عليه لابد من فهم منهج النبي ﷺ في إدارة الأمور في المدينة والمسارات التي اتخذها بعد هجرته، لقد أحس بالمسؤولية الكبيرة تجاه من آمنوا بدعوته ولذلك شرع بعملية تنظيم لجميع مفاصل حياة هذا المجتمع، وفي مقدمة ذلك تنظيم العلاقات مع الوثنيين واليهود في داخل المدينة. ان تنوع الأطراف المتعايشة في المدينة مع وجود مشاكل ونزاعات قديمة واختلاف واضح في العقائد والمصالح دعا النبي ﷺ لوضع أسس وقواعد واضحة يعلم عن طريقها كل طرف ما عليه من واجبات وما له من حقوق يجب الالتزام بها لاستمرارية التعايش السلمي بين الجميع، من هنا برزت الوثيقة في أهميتها وقيمتها في حياة المسلمين ومستقبلهم.

لقد اشتملت الوثيقة على كل ما أقره النبي ﷺ واتفق عليه مع اهل المدينة من مسلميهم ويهودهم لتنظيم الحياة فيها، وتعريف الجميع بالحقوق والواجبات لتكون المسارات سليمة وواضحة لدى الجميع، ولكون النبي ﷺ في سلوكه يمثل المنهج القرآني الذي حث على المكاتبه والتوثيق في المعاملات وحضور من يشهد ذلك، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُم بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِعَ لَهُ فْلْيُمْلِلْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رِضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَفَسَطَ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ﴾<sup>(١)</sup>، لذا لا يمكن له ان يُهمل هذه المسألة فيترك الاتفاقات في المدينة شفوية غير موثقة، اذن هو كان شديد الحرص على كتابة تلك المواثيق ولا سيما البنود الخاصة بتنظيم العلاقة مع القبائل اليهودية من اهل المدينة، ومنهجها هذا يتطابق وما جاء في القرآن الكريم من تأكيد وتشديد على ضرورة توثيق وكتابة المعاملات، لذا فأنا نعتقد ان

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٢).

النبي ﷺ تكاتب على ذلك عن طريق وثيقة واحدة جامعة لكل البنود أو انها جملة من الوثائق عرفت بمجملها باسم (وثيقة المدينة).

بحث المستشرقون مسألة الوثيقة في دراستهم السيرة النبوية المطهرة، واختلفوا في تاريخ كتابتها فبعضهم حدده بالشهر الخامس من بعد الهجرة وبعضهم يرى أنه قبل وقوع معركة بدر، وآخرون جعلوه بعد بدر<sup>(١)</sup>. هذه الآراء الاستشرافية المختلفة نجد ما يشابهها عند المسلمين كونهم جميعاً يختلفون في تحديد وقت كتابة الوثيقة.

اما نحن فنحسب ان تنظيم العلاقات في داخل المدينة كان امراً ضرورياً جداً، النبي ﷺ كان يدرك أهمية هذا الأمر وأهمية الاستعجال في وضع المواثيق التي تنظم هذه العلاقات، لذلك يُستبعد ان يؤجل كتابة الوثيقة حتى الشهر الخامس أو السنة الثانية من بعد الهجرة. إن وجود اطراف متعددة داخل المدينة قد يؤدي إلى نشوب خلافات وصراعات قد تؤثر على مستقبل المسلمين، لذلك نحسب ان النبي ﷺ لم يتأخر اطلاقاً في عقد تلك المواثيق لأجل أن يعلم كل طرف ما عليه من واجبات يجب الالتزام بها وما له من حقوق، ما يعني أن بعض بنود الوثيقة وضعت بعد اسابيع معدودة من وصول النبي ﷺ للمدينة، ثم ألحقت بها بنود آخر في أوقات مختلفة.

اما عن البنود التي احتوتها الوثيقة السؤال المهم هنا: هل كتبت جميع البنود في وقت واحد ام في أوقات متعددة؟ من المعلوم ان الوثيقة احتوت على سبع وأربعين بنداً نحسب أنها تمثل نتاج مجموعة من الاتفاقيات التي عقدها النبي ﷺ أو التي اقرها على اهل المدينة، اي ان هذه البنود لا تمثل وثيقة واحدة، لان الطرف الثابت فيها هو النبي ﷺ في مجموع الاتفاقيات، الا ان المؤرخين عمدوا الى التعامل

(١) ومن أبرز هؤلاء المستشرقين الذين حددوا وقت كتابة الوثيقة سواء قبل أو بعد معركة بدر هم: (١) فلهوزن، يوليوس، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام الى نهاية الدولة الاموية، ترجمة: محمد عبد الهادي ابو ريده، (لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، القاهرة، ١٩٦٨)، ص ١١؛ وات، مونتجمري، محمد في المدينة، ترجمة: شعبان بركات، (المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٢)، ص ٣٤٦، ٣٤٣.

فلهوزن، يوليوس، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام الى نهاية الدولة الاموية، ترجمة: محمد عبد الهادي ابو ريده، (لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، القاهرة، ١٩٦٨)، ص ١١؛ وات، مونتجمري، محمد في المدينة، ترجمة: شعبان بركات، (المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٢)، ص ٣٤٦، ٣٤٣.



معها على انها وثيقة واحدة وجمعوا كل ما اتفق عليه النبي ﷺ مع باقي الاطراف تحت مسمى وثيقة المدينة، بدليل احتواء بنودها ما يشير الى ازمة متعددة واطراف مختلفة ومنها: البنود (١٧)، و(١٩)، و(٤٥)، ففي البند (١٧) جاء فيه (وان سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواءٍ وعدلٍ بينهم)، اما البند (١٩) فقد ورد فيه (وان المؤمنين يبيئ بعضهم على بعض بما نالت دماءهم في سبيل الله وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه)<sup>(١)</sup>، هذه البنود التي ذكرناها مع البند (٤٥) فيها إشارة الى وقوع القتال فإذا رجعنا الى قولنا الأول ان الوثيقة قد وضعت في بداية وصول النبي ﷺ الى المدينة اي قبل وقوع القتال نجد أنفسنا ازاء تناقض واضح؟ ان القتال وقع في معركة بدر<sup>(٢)</sup> اي بعد ثمانية عشر شهراً من الهجرة وقد سبقه اقتتال بين افراد معدودين في غزوة نخلة<sup>(٣)</sup> ما يوحي بأن هذه البنود الخاصة بأمور القتال وما يرتبط بها قد وضعت لاحقاً وُضمت إلى الوثيقة بعد ذلك.

كما ان هنالك بنوداً آخر من تسلسل (١٦) الى (٣٠)، وكذلك من (٣٧) الى (٤٦) فيها كثير من القضايا التي توحى الى ان بنود هذه الوثيقة لم تكتب دفعة

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٣٤٩-٣٥١؛ ابن سيد الناس، محمد بن عبد الله بن يحيى (ت- ٧٣٤ هـ/ ١٣٣٤ م)، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، (مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦)، ج١، ص ٢٦٠-٢٦٢؛ ابن كثير، البداية، ج٣، ص ٢٧٤-٢٧٦.

(٢) حدثت في السنة الثانية من الهجرة في شهر رمضان، وكان سببها قتل عمرو بن الحضرمي واقبال أبي سفيان بن حرب في غير لقريش عظيمة من الشام وفيها اموال كثيرة وفيها ثلاثون رجلاً أو اربعون، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ ندب المسلمون اليهم، لمزيد من المعلومات ينظر: الواقدي، أبي عبد الله محمد بن عمر (ت- ٢٠٧ هـ/ ٨٢٣ م)، المغازي، (عالم الكتب، ط٣، بيروت، ١٩٨٤)، ج١، ص ١٩ وما بعدها؛ ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٤٠؛ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٤٥-٤٦؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٤٢١-٤٦٠؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ١٤.

(٣) وتسمى بسرية عبد الله بن جحش، حيث بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رثاب الأسدي في رجب وبعث معه ثمانية رهطاً من المهاجرين وكتب له كتاباً وأمره ان لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ويمضي لما أمره به ولا يكره احداً من اصحابه ففعل ذلك ثم قرأ الكتاب وفيه يأمره بنزول نخلة بين مكة والطائف فيرصد قريشاً ويعلم اخبارهم فأعلم اصحابه فساروا معه، لمزيد من المعلومات ينظر: الواقدي، المغازي، ج١، ص ١٣-١٩؛ ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٣٥-٤٣٦؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٤١٠-٤١٥؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ١٢-١٣.

واحدة، انما هي نتاج سلسلة من المواثيق عقدها النبي ﷺ. الأمر المهم في هذا كله أنها إحدى الإجراءات الضرورية التي قام بها رسول الله ﷺ لتنظيم الحياة في المدينة بين المهاجرين والأنصار من جهة، والمسلمين ويهود المدينة من جهة أخرى، وقد تمخض عن ذلك أن يتعهد اليهود (بنو قينقاع، بنو النضير، بنو قريظة) امام النبي ﷺ على ان لا يعينوا عليه احداً، ولا يتعرضوا لأحد من اصحابه بلسانٍ ولا يدٍ ولا بسلاح ولا بكراع، في السر ولا في العلانية، لا بليل ولا بنهار، فأن فعلوا فرسول الله ﷺ في حل من سفك دمائهم، وسبي ذراريهم ونسائهم، وأخذ أموالهم. لقد كتب النبي ﷺ بهذا لكل قبيلة يهودية كتاباً خاصاً بها ودعاهم للالتزام بالعهد وعدم خرقه<sup>(١)</sup>.

#### الصراع مع يهود المدينة حتى نهاية سنة ٥ هـ

ابتداءً لابد من الحديث عن موقف النبي ﷺ وطموحه في التعامل مع يهود المدينة، وآماله الكبيرة في موقف ايجابي منهم بصفتهم أصحاب شريعة سماوية قريبة جداً مما كان يدعو اليه، فأمر النبوة والكتاب جزء من معارفهم الدينية، لهذا منى نفسه الطاهرة بتصديقهم إياه وإيمانهم بدعوته ونصرته ومساندته، ولا سيما هذه القبائل اليهودية التي تشترك مع المسلمين في المدينة وتمتلك من العدة والعدد والأموال ما يجعلها قوة كبيرة تستند إليها الدعوة، فضلاً عن تأثيرها الفكري في الوثنيين المشركين، إذ إن موقف اليهود الايجابي والتصريح بصحة نبوة سيدنا محمد ﷺ له تأثير كبير في مواقف القبائل العربية الوثنية القريبة من اليهود.

هنالك كثير من المشتركات ما بين الدعوة الإسلامية واليهودية، منها ما يتعلق بالاعتقاد بوحدانية الله تعالى، ومفهوم النبوة، كذلك في مفهوم الوحي والأحكام، ومنها ما يتعلق بالفهم التاريخي لمسار النبوات السابقة وفي قصة بداية الخليقة وخلق الإنسان وعلاقته بالخالق. هذا المستوى من المشتركات وغيرها كثير بين

(١) لمراجعة بنود الوثيقة بصورة كاملة يمكن الرجوع الى: ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٣٤٨-٣٥١؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، جـ١، ص ٢٦٠-٢٦٢؛ ابن كثير، البداية، جـ٣، ص ٢٧٣-٢٧٦.

الإسلام واليهودية- بغض النظر عن الاختلافات الجزئية- لا نجده متحققاً في العلاقة بين الإسلام والوثنية فكلاهما يسير في اتجاه مغاير للآخر ابتداءً من العقيدة.

اذن النبي ﷺ كان يأمل الحصول على استجابة فاعلة من القبائل اليهودية في المدينة. وقد أصبح اليهود إزاء هذه الدعوة في موقفٍ حرج، فهم كانوا على معرفة يقينية بأن النبي محمداً ﷺ مبعوث من قبل الله تعالى خاتماً للنبيين كما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>، فدرجة المعرفة لدى هؤلاء بحسب النص القرآني عالية جداً ليس فيها أدنى مجال للشك تتجلى في هذا الوصف البليغ (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) اذ لا يمكن ان يشتبه اي انسان عن ابنه، لذلك نعتقد ان موقف اليهودية في المدينة قد برز فور وصول النبي ﷺ أو قبل وصوله الى المدينة بعد ان انتشرت أخبار اتفاقه مع الأوس والخزرج وبيعة العقبة التي حصلت في مكة. ثم اتضحت معالم موقفهم مع مرور الأيام بعدم التصريح الواضح والعلني بحقيقة نبوة محمد ﷺ ومصادقته، ثم تكذيبهم دعوته مع انهم كانوا يعرفونها أو على اقل تقدير إن فريقاً منهم كان كذلك، إلا أنهم كتموا هذه المعرفة عن أصحابهم ولهذا الكتمان اسباب بينها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup> لأن ما معهم من كتب احتوت على البشارات والإشارات الدالة على اسم النبي محمد ﷺ وصفاته ومكان وزمانه خروجه، تلك المعلومات التفصيلية قد احتوتها كتبهم بعد ان بلغها أنبياءهم السابقين، لقد كان اليهود يتحدثون امام المشركين عن ذلك النبي الذي سيعثه الله تعالى والذي سيفتح على يديه الأرض بما يملكونه من أخبار ونصوص في كتبهم المقدسة، ولكنهم كانوا يعتقدون ان هذا النبي سيعث من بينهم اي من أبناء اليهود، فلما بعث الله تعالى نبيه من بين العرب وليس من اليهود كفروا به وأنكروا معرفتهم له لأنه ليس من أبنائهم، فكشف

(١) سورة البقرة، الآية (١٤٦).

(٢) سورة البقرة، الآية (٨٩).

اللَّهُ تعالى هنا السبب الحقيقي لموقف اليهود من نبوة محمد ﷺ ودعوته، وبمرور الوقت اتضح موقفهم العدائي الرافض للدعوة بشكل اكبر، وتصاعدت اعتراضاتهم بممارسة كل السبل الممكنة التي تؤدي الى الإضرار بالدعوة وإضعافها، وكذلك إضعاف العلاقة بين النبي ﷺ وأصحابه. لقد ظهر هذا بشكل واضح في ممارساتهم التي قصدوا بها إحداث حالة الشك والريبة في قلوب وعقول الذين امنوا به وبدعوته، حينما قصدوا إحراجه أمام المسلمين فطالبوه ان يثبت صدقه وحقيقة دعوته عن طريق الإتيان بالمعجزات كما فعل من سبقه من الأنبياء، لقد طالبوه ان يُنزل عليهم كتاباً من السماء<sup>(١)</sup>، ولم يكن هدفهم البحث عن الحقيقة ومحاولة التثبت من أمر النبوة انما كان قصدهم احراجه أمام أصحابه، فتفترط تلك الحلقات المحكمة من العلاقة الوثيقة بينه وبينهم فلا يثقون به بعدها ولا يصدقون بنبوته.

لقد كان معظم المسلمين بعد الهجرة حديثي الإسلام ولم تصل درجات ايمانهم الى المستويات التي تؤهلهم وتجعلهم محصنين تماماً من الشبهات التي يعمل على خلقها اليهود، الإيمان الراسخ هو فقط في قلوب القلة القليلة من المسلمين، وهذا الامر طبيعي جداً فالفروق موجودة وطبيعية في درجات الإيمان والثبات والتضحية عند الجيل الأول من المسلمين، لم يكونوا جميعاً على مستوى واحد، لهذا فإن هذه الأساليب اليهودية كانت تؤثر في نفوس بعض المسلمين وكان النبي ﷺ بحاجة الى العون الإلهي لمواجهة هذه التحديات الكبيرة، لم يتأخر العون الالهي في فضح اليهود وكشف نواياهم وبيان أكاذيبهم وإلقاء الحجة عليهم فمما نزل في هذا الشأن قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿٢﴾

من الأساليب التي لجأ إليها أو أستعملها اليهود في تضليل المسلمين في السنة الأولى بعد الهجرة هي توجيه سُفْهائهم لخلق الشبهة والارتباك في عقول المسلمين

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٣٨٩.

(٢) سورة النساء، الآية (١٥٣).

عن طريق عملية التحايل في إظهار التصديق والإيمان بدعوة النبي محمد ﷺ، ثم التصريح والإعلان بترك دين الإسلام ليقال انهم لم يجدوه الدين الحق فعادوا الى يهوديتهم، والغرض من ذلك واضح تماماً يريدون إحداث الشبهة في هذا الدين، هذه الحركة كانت تتم بإيعاز وتدبير من بعض زعماء يهود المدينة وعلى وجه الخصوص من كعب بن الاشرف ومالك بن الصيف (او الضيف)، اذ وظف هؤلاء بعض اليهود للقيام بذلك إلا ان العناية الإلهية بالنبي ﷺ ودعوته لأجل استمرار تأثيرها الإيجابي في الناس ونجاحها كانت حاضرة في مواجهة هذه المحاولات اليهودية<sup>(١)</sup>. لقد فضحهم الله تعالى وكشف حيالهم تلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولم يكتفوا بذلك بل وتيرة العداء والسعي للإضرار بالمسلمين استمرت، ففي الشهر السابع عشر بعد الهجرة اي في (السنة الثانية بعد الهجرة - السنة الخامسة عشر بعد البعثة) أمر النبي ﷺ أصحابه بتغيير القبلة والتوجه في الصلاة نحو مكة الواقعة جنوب المدينة، بعد ان كانوا يتوجهون في صلاتهم شمالاً صوب بيت المقدس<sup>(٣)</sup>. هذا الأمر قوبل باستجابة وطاعة تامة من المسلمين ولم تظهر عليهم اي اعتراضات ولا سيما الجهة التي توجهوا اليها الآن هي اقرب الى قلوبهم وجدانياً. إلا ان يهود المدينة وجدوا في هذه المسألة فرصة للنيل من النبي ﷺ فأخذوا يحرضون المسلمين ويطرحون تساؤلات مثيرة منها: لماذا غير محمد قبلته من بيت المقدس إلى مكة؟ ما الذي دفعه لذلك. هل كان على خطأ وعدل إلى صواب، بمعنى ان القبلة صوب بيت المقدس كانت على خطأ والان عدل إلى صواب، أم كان على صواب وعدل عن ذلك إلى خطأ، بمعنى كان إلى بيت المقدس على صواب وغيرها الى مكة خطأ!! وهل ان الأنبياء يقعون بالخطأ وهم

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٣٩١؛ ابن سعد، الطبقات، م ٥، ج١، قسم ٢، ص ٣-٥؛ المقرئ، امتاع الأسماع، ج١، ص ٧٨-٧٩.

(٢) سورة ال عمران، الآية (٧٢).

(٣) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٣٨٩-٣٩١.

من يحصلون على الإرشاد والتوجيه الإلهي، كيف لهم أن يخطئوا هذا الخطأ الفادح<sup>(١)</sup>.

هذه التساؤلات كان بعض المسلمين يجدها منطقية ومعقولة، وتؤثر فيه كما انها كانت محرجة لرسول الله ﷺ حتى جاء الرد الإلهي في موضوع تغيير القبلة نحو الكعبة في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَادَهُ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ \* قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْسَكَ قِبْلَةٌ تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

لقد كانت تلك التوضيحات والإجابات الإلهية مثبتة لقلوب المسلمين ومُرسخة لإيمانهم تدفع عنهم كل شبهة روج لها اليهود في سبيل التأثير.

من المهم هنا الإشارة إلى أن النبي ﷺ على الرغم من استعداده وتأهيله لأجواء النبوة وما تتخللها من تحديات فكرية ومواقف صعبة كالمناظرات والمجادلات والمسائل التي تطرح عليه لأجل الاختبار أو الإحراج، فالله تعالى لم يتركه يقارع هذه التحديات بمفرده بل ساندته ودعمه بشكل واضح وكبير بتلك الإجابات القرآنية التي فضح فيها نوايا اليهود ومواقفهم الحقيقية ودوافعهم.

كل ما ذكرناه سابقاً كان يمثل تحرك اليهود لمعارضة ومواجهة الدعوة الإسلامية على المستوى الفكري، لم يكتفوا بذلك بل شملت تحركاتهم مستويات أخرى غير الفكرية، فعلى المستوى الاقتصادي مارسوا ضغوطات واضحة على اهل

(١) فقالوا له ﷺ: «يا محمد ما وراك عن قبلك التي كنت عليها، وانت تزعم انك على ملة ابراهيم ودينه؟ ارجع الى قبلك التي كنت عليها تتبعك ونصدقك» انما يريدون بذلك فتنة عن دينه، ينظر: ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٣٩١.

(٢) سورة البقرة، الآيات (١٤٢-١٤٤).

المدينة لإبعادهم عن الإسلام، ساعدهم في ذلك انهم كانوا في المدينة أكثر مالا من العرب فبعض تجار اليهود وظفوا معاملاتهم التجارية مع العرب في المدينة للضغط عليهم ودفعهم باتجاه رفض الدعوة الإسلامية، لقد جعلوا من إقراضهم الأموال والتسهيلات التي يقدمونها في التجارة تخصص فقط لمن هم اصحاب مواقف سلبية من الدعوة.

كان المال في المدينة بنسبة كبيرة تحت سيطرة اليهود الذين بذلوا جهداً كبيراً لتوظيفه في إضعاف المسلمين، حتى إنهم كانوا يخاطبون النبي ﷺ والمسلمين في وقت حاجتهم للأموال وعند طلبهم الاقتراض من اليهود: «لماذا لا يعطيكم ربكم الأموال التي تحتاجونها: هل ربكم فقيرٌ حتى تأتون وتسالوننا عن الأموال؟»<sup>(١)</sup> هكذا تعاملوا مع المسلمين فجاء الرد الإلهي بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاكُمْ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾<sup>(٢)</sup>.

اما على المستوى الاجتماعي فقد كانت لهم تحركات خطيرة لتفتيت وحدة الأوس والخزرج بعد ان بذل النبي ﷺ جهد كبير لتوحيدهم وجمعهم في مسمى واحد، وانهاء حالة الصراع والنزاع القديم الذي على اثره سقط كثير من رجال القبيلتين. لقد عمد اليهود الى تذكيرهم بتلك الأيام والقتلى الذين فقدوهم والمواجه التي مروا بها، فتمكنوا من إثارة مشاعرهم وحفزوا مشاعر الكراهية والرغبة بالانتقام، ف وقعت الفتنة بين القبيلتين، لقد كان أمراً خطيراً جداً في هذه المرحلة بعد ان تواعد رجال من الأوس ورجال من الخزرج للقتال، ولم يتمكن من إطفاء نار هذه الفتنة التي أشعلها اليهود إلا النبي محمد ﷺ بعد ان وصلته الأخبار ونيتهم بالاقتيال سارع على الفور الى ذلك المكان الذي تواعدوا للاقتال فيه وقد لحق بهم، فجلس يتحدث اليهم مؤنباً ومعاتباً ومذكراً بما آل اليه حالهم من الدخول في الإسلام ونبد كل ما سبق من الماضي حتى شعروا بالخرج من رسول

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٣٩٩.

(٢) سورة ال عمران، الآية (١٨١).



اللَّهُ ﷻ<sup>(١)</sup>، فخطبهم الله تعالى كاشفاً لهم نوايا اليهود ومقاصدهم من التحريض على التنافر والقتال كما كانوا في جاهليتهم الأولى في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup>، لقد بينت هذه الآية الكريمة ما أراد اليهود تحقيقه من أهداف وفي الوقت نفسه دعت الأوس والخزرج الى العفو والصفح ونسيان الماضي والانغماس في الحالة الجديدة التي أصبحوا عليها إخوة في الدين تحت مظلة الإسلام الواحدة.

ان الأساليب التي اتبعها يهود المدينة لإضعاف المسلمين وتفتيت وحدتهم كالتخطيط والتدبير للقضاء على هذا الدين في المدينة قابلها النبي ﷺ خلال العامين الأول والثاني بعد الهجرة بمنتهى الصبر والتسامح عسى ان يتبدل موقفهم المعادي هذا الى موقف ايجابي أو على اقل تقدير التوقف عن ممارسة الضغوطات على المسلمين. الا ان استمرار اليهود في أساليبهم العدائية هذه استوجبت من النبي ﷺ ان يقابلهم بردة فعل مختلفة عما كان يظهره في السابق من الصبر والتسامح واللين. إذ لا يمكن ان يستمر هكذا معهم فجزء من مسؤوليته المحافظة على أفراد المجتمع الإسلامي الناشئ بتوفير بيئة آمنة، فالمسؤولية الملقاة على عاتق النبي ﷺ لم تنحصر بالتبليغ والدعوة للإسلام فحسب، بل تعدى ذلك الى كونه القائد السياسي والعسكري الذي يتولى إدارة شؤون الناس وحماية حياتهم ومصالحهم، وانطلاقاً من هذه المسؤوليات توجب عليه الآن ان يضع حداً للممارسات العدائية التي مازال يهود المدينة يقومون بحق المسلمين.

### إجلاء بني قينقاع

أراد النبي ﷺ ان يُلقي الحجة عليهم فيحذرهم من الاستمرار في تلك الممارسات العدائية، قبل ان يتخذ بحقهم اي موقف حازم، فكان ذلك التحذير عقب انتصار

(١) ابن هشام، السيرة، جـ ٢، ص ٣٩٦-٣٩٧.

(٢) سورة البقرة، الآية (١٠٩).



المسلمين على قريش في معركة بدر الذي رفع من شأنهم كثيراً في شبه الجزيرة العربية، إذ التقى النبي ﷺ بجماعة من قبيلة بني قينقاع اليهودية في السوق وتحدث إليهم معاتباً ومحذراً أياهم هذا الاستمرار في العداوة، ثم دعاهم الى ان يعيشوا بسلام مع المسلمين، فكان ردهم بلغة مليئة بالتحدي والاستكبار قالوا الرسول الله ﷺ: «يا محمد لا يغرنك من نفسك انك قتلت نفرًا من قريش، كانوا اغماراً لا يعرفون القتال، انك والله لو قاتلتنا لعرفت اننا نحن الناس وانك لم تلق مثلنا»<sup>(١)</sup> هذا الكلام فيه كثير من نبرة التعالي والتحدي التي كانت على ألسنتهم وظاهرة في مواقفهم وهي في تقديري الشخصي تمثل نتاج القلق الكبير الذي كان يعيشه يهود المدينة آنذاك، بعد أن شهدوا تنامي الدعوة الإسلامية واتساع نفوذ النبي ﷺ في المدينة وازدياد قوته، لا سيما بعد الانتصار الكبير في معركة بدر، كل هذا زاد من توترهم وقلقهم فظهر جوابهم بهذه الطريقة الانفعالية وقد توعدهم الله تبارك وتعالى بالخسران في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيُسَّ السَّيِّئَاتُ \* قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْأَعْيُنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾<sup>(٢)</sup>.

لم تمض الا مدة وجيزة على هذا اللقاء والتحدي الكبير حتى وقعت حادثة اعتداء اخرى في سوق بني قينقاع، اذ تذكر المرويات ان امرأة مسلمة جاءت الى هذا السوق تباع أو تشتري فجلست الى احد الصاغة اليهود وقد اخذ هذا الصائغ مع مجموعة من اليهود الموجودين بالقرب منه بالسخرية من المرأة، ثم حاولوا الاعتداء عليها، فصرخت وهي وسط السوق طلباً للنجدة، فسمعها أحد المسلمين الذي سارع الى نجدها، فوثب هذا المسلم على الصائغ اليهودي فقتله على الفور، مما جعل اليهود في السوق من بني قينقاع يجتمعون على هذا المسلم وقاموا بقتله. سرعان ما وصلت أخبار هذه الحادثة الى النبي ﷺ وعدّها اعتداءً على حرمة هذه المسلمة فضلاً عن قتل أحد المسلمين، كما ان يهود بني قينقاع لم يبعثوا الى رسول

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص ١٧٦؛ ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٣٩٣؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٤٧٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٢-١٣).

الله ﷺ وفداً يعتذر عما بدر منهم من اعتداء واضح فدعا النبي ﷺ باقي المسلمين وامرهم بالاستعداد والتهيؤ للخروج إلى ديار بني قينقاع<sup>(١)</sup>، في المقابل بني قينقاع كانوا يشعرون انهم في منعة وقوة وقدرة على مواجهة المسلمين، كان عددهم بحدود (٧٠٠) سبعمائة مقاتل كما انهم يمتلكون حصناً منيعاً يتحصنون به في الحروب أو عند تعرضهم للأخطار، فضلاً عن ارتباطهم بحلف مع بني عوف وهم من الخزرج الذين يتزعمهم عبد الله بن أبي الشخصية المعروفة بالنفاق والسعي للإضرار بالمسلمين في مواقف عدة.

لقد ظنّ بنو قينقاع ان تلك التحالفات القديمة قد تسهم في دعمهم بالحرب ضد المسلمين ولا سيما بعد ان اتصل بهم عبد الله بن أبي ووعدهم بالمؤازرة والنصر. توجهت قوات المسلمين صوب حصن بني قينقاع وضربوا الحصار عليهم من كل جهة. استمر الحصار خمس عشرة ليلة وإرادة الله تعالى تزعزعت عزيمة بني قينقاع وتراجعت شجاعتهم وحصل لديهم الانكسار، فأرسلوا الى النبي ﷺ يعلنون فيه نزولهم على حكمه واستسلامهم. في هذه الأثناء توسط لهم عبد الله بن أبي عند رسول الله ﷺ لأجل ان يعفو ويصفح عنهم، فعفا عنهم شرط ان يخرجوا من المدينة ولا يشاركوا المسلمين السكن فيها جزاءً لما فعلوه ولهم ان يخرجوا سالمين ويحملون معهم أموالهم وممتلكاتهم وحدد لهم النبي ﷺ ثلاثة أيام، فكان خروجهم من المدينة هو اول خروج لقبيلة يهودية بعد ان نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ، مما نتج عن ذلك جملة من النتائج الايجابية التي جاءت في صالح المسلمين<sup>(٢)</sup>.

### إجلاء بني النضير

بعد إخراج بني قينقاع من المدينة كان يفترض ببني النضير وبني قريظة أن

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص ١٧٦-١٧٧؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٤٧٩-٤٨٠؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ٣٣-٣٤.

(٢) الواقدي، المغازي، ج١، ص ١٧٧-١٧٩؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٤٨٠-٤٨١؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ٣٣-٣٤.

يتعظوا ويستفيدوا من الدرس جيداً، الا ان الامر لم يجر على وفق هذه الفرضية فقد استمروا في أساليبهم العدائية ولاسيما بنو النضير وهم الاكثر كرهاً وحقداً للمسلمين وللنبي ﷺ بشكل خاص، كان لزعيمهم حُيي بن اخطب النضري مواقف متشددة ورافضة للمسلمين ودعوتهم. لقد عرف حُيي هذا بكثرة مخططاته ومساعيه لضرب المسلمين ويكفي ان نقول اليه يعود الفضل في السنة الخامسة من الهجرة في جمع قريش وحلفائها من القبائل والخروج لقتال المسلمين في غزوة عرفت بغزوة الأحزاب<sup>(١)</sup>.

اذن في السنة الرابعة من الهجرة اي ما يوافق السنة السابعة عشرة من بعد البعثة قام اليهود من بني النضير بتدبير مؤامرة خطيرة لاغتيال النبي ﷺ، جاء في المرويات أن النبي ﷺ قصد ديار بني النضير يستعينهم بدفع دية قتيلين من بني عامر قد قتلوا بالخطأ، قتلها عمر بن أمية الضمري في حادثة عرفت باسم (بئر معونة)<sup>(٢)</sup>، ولم يكن القتل مقصوداً لذلك اراد النبي ﷺ ان يدفع دية هذين القتيلين بالرغم من عدم امتلاكه للأموال الكافية في حينها، فأرسل إلى بني النضير يطلب منهم المساعدة في دفع أموال الدية. ف شعر اليهود ان تلك اللحظة مناسبة جداً للتخلص من النبي ﷺ لذلك اظهروا له الترحيب العالٍ والرغبة في المساعدة، لذلك توجه الى ديارهم بصحبة بعض المسلمين الذين رافقوه ولم يكن عددهم بالكبير. بعد وصوله اليهم كان الترحيب عالياً به، فأجلسوه الى جوار جدار عالٍ وذهبوا يتداولون في أمرهم ماذا يصنعون وقد قدم عليهم بنفسه وليس معه من الرجال إلا أفراداً معدودين، ثم اتفقوا على ان يقوم احد رجالهم برمي حجارة كبيرة على رأس النبي ﷺ من فوق هذا الجدار، وبينما هم يدبرون هذا الأمر ويسعون لتنفيذه نزل الوحي على رسول الله ﷺ واخبره بما عزم عليه بني النضير، فنهض النبي ﷺ من مكانه وترك المجلس مغادراً ديارهم، حتى وصل إلى المسجد فدعا أصحابه واخبرهم بما خطط له بني

(١) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧٠٠.

(٢) بئر معونة: هي بئر بين ارض بني عامر وحره بني سليم، لمزيد من المعلومات ينظر: الحموي، معجم، ج١، ص ٣٠٢.

النضير ومحاولتهم اغتياله في ذلك المجلس، ثم دعاهم إلى ارتداء لباس الحرب والتهيؤ للخروج وأرسل إلى يهود بني النضير أحد أصحابه وهو محمد بن مسلمة يخبرهم بالمهلة التي حددها لهم للخروج من المدينة على أن يحتفظوا بأرضهم وأموالهم، فالأموال يأخذونها معهم أما الأرض فتبقى ملكاً لهم بإمكانهم أن يوكلوا أمرها إلى من يشاؤون.

إلا أن بني النضير لم يقبلوا بهذا العرض وكانوا يحسبون أن حصونهم منيعة وهم يمتلكون القوة لمواجهة المسلمين، فضلاً عن أملهم في أن يتمكن يهود خيبر من نصرتهم في هذه المواجهة. على أثر رفضهم الخروج من المدينة، توجه النبي ﷺ والمسلمون إلى ديارهم وضرب عليهم الحصار في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة<sup>(١)</sup>.

تختلف المرويات في تحديد مدة ذلك الحصار ما بين ثماني عشرة ليلة أو أربع وعشرين ليلة. لم يكن الحصار على بني النضير سهلاً على المسلمين فهؤلاء كانت حصونهم منيعة ليس من السهل اختراقها، كما كانوا مزودون بالمؤنة الكافية من حاجتهم للغذاء والسلاح والرجال، نقطة ضعف هؤلاء كانت بساتين النخيل التي تعود اليهم والتي تقع خارج الحصون، كان النبي ﷺ يعلم مقدار تعلقهم بتلك البساتين وما فيها من نخيل، لذلك وبعد أن طالت مدة الحصار خشى أن تصلهم الامدادات العسكرية من يهود خيبر شمال المدينة، فأمر بحرق أجزاء من بساتينهم وتقطيع بعض النخيل، وحينما شرع بعض المسلمين بتنفيذ هذا الأمر على مرأى بني النضير ومسمعهم من خلف الحصون فت ذلك من عزيمتهم وانقلبت معنوياتهم وكسرت شوكتهم<sup>(٢)</sup> كما جاء في وصف القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص ٣٤٧-٣٥٢، ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٠٣، الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٥٣-٥٥٠.

(٢) الواقدي، المغازي، ج١، ص ٣٧٢-٣٧٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص ٦٥.

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿١﴾، لاحظ الوصف القرآني لانكسارهم الذي حصل بإرادة الله تعالى، إن عملية حرق المزروعات التي أمر بها النبي ﷺ قد كسرت شوكة هؤلاء حتى إنهم كانوا ينادون النبي ﷺ من خلف حصونهم: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها! ﴿٢﴾ فنزل جواب الله تعالى على قول هؤلاء مجوزاً ومبرراً فعل النبي ﷺ هذا في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٣﴾ لقد جاءت هذه الآية الكريمة ليشيح فعل النبي ﷺ بقطع بعض النخل أو حرقه بقصد كسر شوكة بني النضير المتحصنين، والاستعجال بهزيمتهم قبل وصول الامدادات اليهم.

بعد ذلك نزلوا على حكم النبي ﷺ وأعلنوا الاستسلام، إلا ان الشروط السابقة التي عُرِضت عليهم لم تعد قائمة بعد تلويحهم بالقتال والحرب والاستعداد لذلك. لقد حكم عليهم النبي ﷺ الآن بالجلء من المدينة ولهم ان يحملون معهم ما يستطيعون من أموال وحاجات ثمينة دون السلاح، اما أراضيهم ودورهم فتصبح ملكاً للمسلمين. تقول المرويات (٤) انهم لما خرجوا من المدينة كانوا يقتلعون الابواب والشبائيك ويخربون بيوتهم قبل مغادرتها لانهم يعلمون انها اصبحت ملكاً للمسلمين (٥): ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى

(١) سورة الحشر، الآية (٢) .

(٢) الواقدي، المغازي، ج١، ص ٣٧٣ ؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٦٨٣؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: علي محمد هاشم، (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤)، ج١٧، ص ١٠٠؛ ابن كثير، البداية، ج٤، ص ٨٦.

(٣) سورة الحشر، الآية (٥) .

(٤) الواقدي، المغازي، ج١، ص ٣٧٤؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٦٨٣؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٥٤؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ٦٥؛ النويري، نهاية الأرب، ج١٧، ص ١٠١-١٠٢؛ المقريزي، امتاع الأسماع، ج١، ص ١٩٠.

(٥) وبحسب مذكره المستشرق ولفنسون «ان هدم نجاف البيوت كان يتعلق بعقيدة تلمودية معروفة وهي ان كل يهودي يعلق على نجاف داره صحيفة تشتمل على وصية موسى لبني اسرائيل ان يحتفظوا بالإيمان بإله واحد ولا يبدلوه ولو عذبوا وقتلوا فاليهود حين ينزحون من منازلهم يأخذوها معهم وهي عادة متبعة عند اليهود الى يومنا هذا كما يذكر ان يهود بلاد العرب كانوا يصنعون تلك الصحيفة داخل النجاف خوفاً من =

الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿١٠﴾

بذلك فقد تخلص النبي ﷺ وأصحابه من خطر كبير كان يُحدق بهم وقريب جداً منهم في المدينة، فضلاً عن العوائد المالية الكبيرة التي جناها المسلمون مما تركه بنو النضير من بساتين وأراضٍ ومساكن، لقد كان المسلمون بأمس الحاجة لتلك الأموال<sup>(١)</sup>، اما عن الجبهة الداخلية في المدينة واستقرار المجتمع وأمانه فقد كان لخروج بنو النضير فوائد جمّة. اذ غالباً ما كان يقوم رجال منهم ببث الشائعات ومحاولة التأثير في وحدة المسلمين، كما ان ذلك يمثل نجاحاً آخر وانتصاراً يضاف الى سلسلة الانتصارات السابقة، وهو دعم كبير للمسلمين أمام أنفسهم وأمام الآخرين والإحساس بان قضيتهم ودعوتهم ودينهم الذي اصبحوا عليه على حق.

### معاينة بني قريظة

الآن بعد ان تم إجلاء قبيلتين يهوديتين من المدينة، لم يبق فيها الا قبيلة يهودية واحدة هي قبيلة بني قريظة، ويفترض بهم ان يكونوا شديدي الحرص على الالتزام بمواثيقهم مع النبي ﷺ، فلا يتآمروا مع أعداء المسلمين ولا يسعون للإضرار بهم لأنهم شهدوا بأمر أعينهم ما حلّ بإخوانهم وأبناء عمومتهم من بني قينقاع والنضير حين خرقوا العهد مع المسلمين واعتدوا عليهم، فكانت النتائج وخيمة عليهم فقدوا ديارهم وارضهم بعد طردهم من المدينة.

يبدو ان بني قريظة لم يستفيدوا من تلك الدروس، مرةً أخرى تظهر الرغبة

= اتلاف الهواء أو مس الأيدي فلما رحلوا عن ديارهم هدموا نجاف البيوت واخذوها»، ولا تتفق مع ما ذكره ولفنسون لان اليهود من بني النضير كان هدفهم الاساس هو تخريب المنازل حتى لا يسكنها المسلمون من بعدهم ولم يكن همهم الأول هو الحفاظ على صحيفتهم ينظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب: في الجاهلية وصدر الإسلام، (مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٢٧)، ص ١٥١.

(١) كان النبي ﷺ يزرع تحت النخل في ارضهم (بني النضير) فيدخل من ذلك قوت اهله وازواجه سنة وما فضل جعله في الكراع والسلاح، ينظر: البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)، فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦)، ج١، ص ١٨؛ المقرئ، امتاع الأسماع، ج١، ص ١٩١.

لدى اليهود في التآمر والاعتداء على المسلمين، ولكن هذه المرة بطريقة مختلفة وبخطر أكبر. لقد تآمروا على حياة عموم المسلمين باشتراكهم مع جيش كبير قادم لغزو المدينة والقضاء على المسلمين، هذا الجيش عرف باسم جيش الأحزاب وعمليتهم العسكرية ضد المسلمين عرفت بغزوة الأحزاب.

بالعودة الى بدايات هذه الغزوة وفعل بني قريظة فيها نقول ان زعماء بني النضير وعلى رأسهم حُيي بن أخطب الذين أُخرجوا من المدينة في وقتٍ سابق وبفعل نقيمتهم على المسلمين قرروا الإعداد لغزو المدينة برجال القبائل المعادية للمسلمين وعلى وجه الخصوص من قبيلة قريش وقبائل حليفة آخر، لقد توجه هؤلاء الى القبائل التي ظنوا انها ستشترك معهم في قتال المسلمين وعملوا على تأليبهم وحثهم على المشاركة وتذكر كتب التاريخ ان من بين تلك اللقاءات ما حصل بين هذا الوفد اليهودي ورجال من قبيلة قريش اذ وجه بعض رجال قريش لليهود سؤالاً في غاية الأهمية على اعتبار ان هؤلاء أصحاب معرفة دينية فسألوهم: «يا معشر يهود، انكم اهل الكتاب الأول والعلم بما اصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خيرٌ ام دينه؟»<sup>(١)</sup> هذا السؤال حقيقةً سؤال في غاية الأهمية لأن هؤلاء اليهود من المفترض انهم يوحدون الله تعالى كما هو حال المسلمين، ولا يمكن ان يكون جوابهم تفضيل الشرك على توحيد الله تعالى الذي يعتقدون به، وبالرغم من كل ذلك فقد أجابوا بما ينسجم ومصلحتهم وبخلاف الحقيقة التي يعرفونها فقالوا: «بل دينكم خير من دينه وانتم اولى بالحق منه»<sup>(٢)</sup>، وكانوا بذلك يحرفون الحقائق عن قصد ويتلاعبون بعقول الناس فقط لأجل ان يصلوا الى هدفهم بتحريض قريش وباقي القبائل المتحالفة معهم لقتال المسلمين. لقد أشار القرآن الكريم الى هذه الحادثة وفضحهم وكشف تلاعبهم بعقول الوثنيين في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ

(١) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧٠٠؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٦٥؛ النويري، نهاية الأرب، ج١٧، ص ١١٩.

(٢) المصادر والصفحات نفسها.

كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿١﴾.

بعد ان اتفقوا مع قريش انتقلوا الى قبيلة غطفان وهي من القبائل الكبيرة التي تمتلك القوة والعدد وتمكنوا من إقناع زعماء هذه القبيلة للاشتراك بالغزوة ويبدو ان موافقة غطفان هذه لم تكن لشدة معاداتهم للنبي ﷺ أو معارضتهم للدعوة الإسلامية كما هو حال قريش واليهود، انما كان لأجل الحصول على الغنائم والأموال كما اشتركت مجموعة اخرى من القبائل ولكن بأعداد اقل مما اشتركت به قريش وغطفان فقريش اشتركت بـ (٤٠٠٠) أربعة آلاف مقاتل وكذلك قبيلة غطفان اما باقي القبائل منها قبيلة سليم التي اشتركت بـ (٧٠٠) سبعمائة مقاتل، وقبيلة أسد التي لم يعرف عدد مقاتليها، كما كان هنالك مقاتلون من قبائل أشجع، وفزارة، ومُرة حتى بلغت هذه القوات مجتمعة نحو عشرة آلاف مقاتل<sup>(٢)</sup>.

ان عملية تأليب القبائل وترغيبها في الاشتراك في هذه الغزوة كان بفعل هذا النفر من اليهود، الذين خرجوا من المدينة ولو تم القضاء عليهم في حينها لما تمكنوا من القيام بهذا التحشيد وتجميع الأعداء في غزوة واحدة لقتال المسلمين.

في المقابل كان للنبي ﷺ وأصحابه جملة من الإجراءات الدفاعية المتميزة التي ستتحدث عنها بالتفصيل لاحقاً عند الحديث عن معركة الخندق، ولكننا هنا نشير الى بعضها كجزء من بيان حقيقة موقف بني قريظة. لقد فوجئ الاحزاب عند وصولهم إلى المدينة بالخندق المحفور الذي يعيق تقدمهم ويمنع اقتحامهم لها، وبعد ان عسكروا خارج المدينة اتصلوا بزعماء بني قريظة سراً واتفقوا معهم على ضرب المسلمين والتخلص منهم. كانت ديار بني قريظة وحصونهم خلف ظهور المسلمين المرابطين على طرف الخندق، اي ظهورهم مكشوفة لبني قريظة بوصفهم من سكان المدينة وملتزمين بالاتفاقات والمواثيق مع المسلمين ان لا يعينوا عليهم عدواً ولا يسعون في إضرارهم، ولكن الذي حصل في ظل

(١) سورة النساء، الآية (٥١).

(٢) ابن هشام، السيرة، جـ٣، ص ٧٠٠-٧٠١؛ المقرئ، امتاع الأسماع، جـ١، ص ٢٢٣-٢٢٤.



هذه الأجواء ان الأحزاب أقنعوهم بالتحالف والاشتراك معهم في قتال المسلمين وبذلك نقضوا المواثيق والعهود السابقة<sup>(١)</sup>.

بعد ان وصلت أخبار نقض بني قريظة العهد وخيانتهم المسلمين زاد من توتر بعض اصحاب النبي ﷺ واضطرابهم بعد ان شعروا بخطورة الموقف، بل اخذ بعضهم من هول الموقف وشدته يشكك بما كان يعدهم به النبي ﷺ من ان الله تعالى سيفتح على أيديهم الأرض وينصرهم وسيبشر الإسلام في ربوع الأرض. ان تحالف قريظة مع الأحزاب قد جعل بعض المسلمين يشعرون انها نهايتهم الحتمية وانه لا مفر ولا نجاة لهم اليوم. نقل عن احد المسلمين وهو معتب بن قشير يصف هذا الموقف العصيب قائلاً: كان محمداً يعدنا ان نأكل من كنوز كسرى وقيصر واحداً اليوم لا يأمن على نفسه ان يذهب الى الغائط. هكذا كان حال معتب بن قشير وحال بعض المسلمين الذين مازالوا حديثي الإسلام ولم يتغلغل الإيمان الى قلوبهم بشكل كامل بعد، الذين شككوا بأقوال النبي ﷺ وفي حقيقة دين الله تعالى<sup>(٢)</sup>. كما ان بني قريظة يتحملون الوزر الأكبر بتحالفهم مع الأحزاب وبكونهم السبب في هذا الارتباك وهذا الرعب عند بعض المسلمين حتى جاء الوصف القرآني لهذه الأجواء بأبلغ صورة في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا \* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا \* وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾<sup>(٣)</sup>.

بعد ذلك الموقف العصيب على المسلمين انتهت تلك الغزوة وذلك التحالف الغادر بالفشل وانسحب الأحزاب من حصار المدينة بإرادة الله تعالى وحنكة النبي ﷺ وثباته وثبات بعض من أصحابه المؤمنين كما سيأتي الحديث عن ذلك

(١) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧٠٥؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٧٠.

(٢) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٤٥٩-٤٦٠؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧٠٦؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٧٢.

(٣) سورة الأحزاب، الآية (١٠-١٢).

بالتفصيل لاحقاً. فأمر الله تعالى نبيه المصطفى بالتوجه الى ديار بني قريظة، وفعلاً تحركوا بعدة الحرب وضربوا الحصار عليهم في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة، واستمر الحصار خمساً وعشرين ليلة كما يقول ابن اسحاق قبل ان يعلنوا استسلامهم<sup>(١)</sup>.

كان امام بني قريظة خيارات متعددة قبل الاستسلام، احدها اعتناق الإسلام والاندماج في المجتمع الإسلامي وبذلك ينجون من العقوبة التي ستقرر بحقهم، الا ان حجم العداء والكراهية لديهم كان كبيراً لدرجة أنهم لم يفكروا بطريقة عملية، كما انهم استمروا يعبرون عن بغضهم للمسلمين وبشكل خاص للنبي محمد ﷺ. ومن الخيارات الأخر التي فكروا فيها: هو الخروج للمسلمين بكل رجالهم ومنازلتهم والقتال حتى الموت، فلم يحظَ هذان الخياران بالقبول من الجميع واخيراً اتفقوا على إعلان الاستسلام والخضوع لحكم النبي ﷺ ليقدر عقوبتهم<sup>(٢)</sup>، وفي تقديري كانوا يتوقعون ان تقتصر العقوبة على اجلائهم من المدينة كما حصل في السابق مع ابناء عموماتهم.

لم يكن من المنطق تركهم هذه المرة أحراراً مع ما يحملونه من بغض للمسلمين ورغبة في الانتقام، كما ان وجود تجمعات يهودية في شمال المدينة تحمل التوجهات والأهداف نفسها من المحتمل ان تنضم اليهم ويعودوا من جديد لمهاجمة المدينة وأهلها، كل ذلك كان في ذهن النبي ﷺ قبل تقرير العقوبة عليهم.

في هذا الوقت جاء جماعة من الأوس إلى النبي ﷺ يلتمسون الصفح والعفو عن بني قريظة باعتبار ان الأوس وقريظة كانوا في السابق حلفاء، فأرادوا ان يعفو عنهم كما فعل مع بني قينقاع إكراماً للخزرج، فقال النبي ﷺ لهم: أترضون ان يحكم فيهم رجلٌ منكم؟ قالوا نعم يا رسول الله وفرحوا بذلك، فقال اثنوني بسعد بن معاذ وهو من زعماء الأوس وكان مصاباً بجراح فجيء به الى النبي ﷺ محمولاً، فسأله ماذا يرى في حكم بني قريظة وقد علم بفعلهم وتحالفهم مع الاحزاب لقتال

(١) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧١٧.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٨٣.

المسلمين والخطر الذي شكلوه عليهم، فقال سعد بن معاذ الحكم عليهم بقتل الرجال<sup>(١)</sup>.

هذا الحكم له ما يبيحه ويجعله مقبولاً، ولكن المصادر التاريخية لم تسلط عليها الضوء بقدر ما تحدثت عن طريقة تنفيذ هذه العقوبة وبشكل خاص ما رواه المؤرخ الطبري<sup>(٢)</sup> من تفاصيل قد اعتمد عليها المستشرقون لنقد شخصية النبي ﷺ ووصفه ووصف الإسلام بأبشع الصور. إذن سوء النقل والمبالغة وعدم الدقة في مرويات السيرة سواء كان بقصد أو من دون قصد كان السبب في إلصاق تهمة التعامل القاسي والمبالغة في سفك الدماء بالنبي محمد ﷺ وأصحابه.

لا بد هنا ان نسلط الضوء على هذه المسألة ونناقشها بموضوعية تامة دون أي انحياز. فهناك تناقضات كبيرة بين ما احتوته النصوص القرآنية وكذلك الحقائق الثابتة بشأن شخصية النبي ﷺ من جهة، وبين هذه الصور المطروحة عند بعض المؤرخين من جهة أخرى، فمن باب إننا نمتلك آلاف الأدلة على ان النبي ﷺ كان مليئاً بالإنسانية عطوفاً رحيماً بالإنسان والحيوان والنبات من خلال أفعاله وأقواله ووصاياه للمسلمين، مما لا ينسجم مع ما نقلته المرويات في بعض المواضع من تفصيلات لتنفيذ الحكم بقتل اليهود من بني قريظة على شكل جماعات ودفنهم في خنادق حفرت في داخل المدينة.

المسألة الأخرى: جرى التأكيد في النص القرآني على نجاة البعض من رجال بني قريظة كما في قوله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبِهِمْ وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا \* وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْغُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾<sup>(٣)</sup> ان الوصف القرآني

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٥١٠-٥١٢؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧٢٠؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٨٦-٥٨٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص ٧٥-٧٦.

(٢) لمعرفة تفاصيل الحكم وتنفيذه بشكل كامل كما رواه الطبري يمكن مراجعة كتابه تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٨٨-٥٩٠.

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٢٦-٢٧).

لمصير رجال بني قريظة لم يشملهم جميعاً بعقوبة القتل ومع ذلك فإن المرويات الإسلامية نقلت صورة مختلفة قائمة على مقتل جميع رجال بني قريظة لذلك اعتمدها المستشرقون، فقله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقَتَّلُواْ وَتَأْسِرُواْ فَرِيقًا﴾<sup>(١)</sup> تدل على ان رجال بني قريظة قد تم تقسيمهم الى قسمين قسم منهم طالته هذه العقوبة وقُتل وهم يستحقون ذلك لإصرارهم على العداوة ورغبتهم في الانتقام ولذلك ليس من المنطق تركهم احياء، اما القسم الآخر على ما يبدو انهم اندمجوا في داخل المجتمع الإسلامي بعد ان تخلوا عن يهوديتهم واعتنقوا الإسلام.

المسألة الثالثة: ان طريقة تنفيذ الحكم بالقتل التي وصفها الطبري وغيره من المؤرخين تتقاطع مع ما نعرفه عن رسول الله ﷺ من رأفة ورحمة، ولكن هذا لا يمنع من قيامه بواجب الحفاظ على حياة المسلمين وتخليصهم من الأخطار المحدقة بهم، ولا سيما بعض زعماء اليهود الذين طالته العقوبة فقد عبروا عن رغبتهم في مواصلة العداوة للمسلمين وإلحاق الأذى بهم كلما ساحت الفرصة، فهذا حُيي بن أخطب حينما جيء به الى القتل، قال له رسول الله ﷺ: أَلَمْ يُمَكِّنَ اللَّهُ مِنْكَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، فَأَجَابَ بَلَى وَاللَّهِ مَا لَمْتُ نَفْسِي فِي عِدَاوَتِكَ<sup>(٢)</sup>، وتظهر بشكل واضح لغة العداوة والبغض عند بعضهم حتى عند لحظاتهم الأخيرة. بعد ذلك لم يكن للنبي ﷺ سوى خيار التخلص من هؤلاء.

ان عملية النقل ووصف الحادثة لم يوفق فيها الرواة والمؤرخون، ففيها كثير من المبالغة وقد نسجت تفاصيل تنفيذ العقوبة بطريقة دراماتيكية خلقت نوع من التعاطف مع اليهود على الرغم مما فعلوه مع المسلمين، ويوحى ذلك الى بصمات واضحة لرواة مسلمين ينحدرون من أصول يهودية كمحمد بن كعب القرظي على سبيل المثال والذي شهد تلك الأحداث بالكامل. كما ان حالات التسامح والعفو التي تخللت هذه الحادثة لم يسلط عليها الضوء كذلك ومنها ان سلمى بنت قيس وهي إحدى خالات النبي ﷺ طلبت منه ان يهبها رفاعة بن سموأل وكان من بين

(١) سورة الأحزاب، الآية (٢٦).

(٢) الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٨٨.

الأسرى من بني قريظة فوهبه لها النبي ﷺ، ثم قالت: يا رسول الله انه سيصلي، ويأكل لحم الجمل. فقال النبي ﷺ ان يصل فهو خير له، وان يثبت على دينه فهو شر له<sup>(١)</sup>.

اما عن عدد من قتلوا من بني قريظة ضمن هذا الحكم فلا نمتلك من المعلومات ما يمكننا من تحديد العدد الدقيق، فعدد الرجال عند نزولهم على حكم النبي ﷺ كان بحدود السبعمئة مقاتل ولكن لم يشملهم القتل جميعاً كما بينا سابقاً، وتختلف المصادر في عدد من قتلوا ولكننا نعتقد ان اكثر من نصف العدد الذي ذكرناه قد شملهم القتل ممن كانوا مندفعين لقتال المسلمين وقبل ذلك تحالفهم مع الأحزاب<sup>(٢)</sup>، اما الأعداد المتبقية ممن لم تكن لهم ادوار إجرامية وظهرت عليهم علامات الندم والرغبة في حياة مسالمة مع المسلمين، نعتقد انهم نجوا من العقوبة واعتنقوا الإسلام وأصبحوا جزءاً منه<sup>(٣)</sup>.

على هذا الأساس بحسب ما مرّ بيانه فان العمل الذي قام به النبي ﷺ وأصحابه مع يهود بني قريظة مقبول جداً ومنطقي، ولا يمكن الاعتراض عليه أو التعامل معه على أساس ما جاء في كتب المستشرقين بوصفه عملاً قاسياً سفكت فيه دماء الابرياء من اليهود.

بعد الانتهاء من معاقبة بني قريظة أصبحت المدينة خالصة للمسلمين لا يشاركهم فيها أحد من اتباع الأديان الأخرى، لقد عدّ ذلك تطوراً كبيراً في مسار مستقبل المسلمين، وبسبب ذلك أصبحوا أكثر قوة واستعداد للدفاع عن أنفسهم ومدينتهم والمضي في نشر الدعوة الإسلامية.

إن الصراع الذي شهدته المدينة بعد مقدم النبي محمد ﷺ وحتى نهاية السنة الخامسة للهجرة بين المسلمين ويهود المدينة من اكثر الموضوعات التي ركزت

(١) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧٢٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج١٧، ص ١٣٩-١٤٠؛

(٢) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٥١٧-٥١٨؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧٢١؛ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٥٢؛ النويري، نهاية الأرب، ج١٧، ص ١٣٧.

(٣) فمن امثلة من اسلم واعفي عنه هم كل من ثعلبة بن سعية واسيد بن سعية واسد بن عبيد وهم يهود من اهل المدينة من بني هذل ابنا عمومة بني قريظة كانوا معهم، ينظر: ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧١٩.

عليها الدراسات الاستشراقية من اجل الطعن في السيرة النبوية المطهرة ومحاولة تشويه صورة النبي ﷺ بالصاق تهم القسوة وسفك الدماء بشخصه الطاهر، ساعدهم في ذلك كما قلنا سابقاً ما وجدوه في بعض مضامين مروياتنا من الثغرات التي احتوتها، فاعتمدوا عليها للطعن بسيرة النبي ﷺ والدين الإسلامي، لقد نجحوا الى حد كبير في ترسيخ الصورة التي طرحوها في ذهنية الفرد الغربي أو البيئة التي ينتمون اليها في الغرب فأصبحت صورة النبي محمد ﷺ في ذهنية الفرد الغربي وفي الثقافة الغربية صورة خالية من الإنسانية لا تحتوي على المبادئ الأخلاقية بعد تسليطهم الضوء على قتل اليهود من بني قريظة وطريقة سفك دمائهم.



## الفصل الخامس:

# الصراع المسلح مع قريش وحلفائها حتى سنة ٥ هـ

- معركة بدر

- معركة أحد

- أحداث معركة الخندق





## الفصل الخامس :

### **الصراع المسلح مع قريش وحلفائها حتى سنة ٥ هـ**

كان النبي ﷺ يعلم تماماً بعد استقراره في المدينة ان هنالك جملة من المخاطر المحدقة بالمجتمع الإسلامي الناشئ الذي اخذ يؤسسه ويعدّه. الأخطار لم تكن من مصدر واحد فحسب انما كانت متعددة إلا ان أهمها كان الخطر الذي تشكله قبيلة قريش فضلاً عن القبائل الأخرى المحيطة بالمدينة. من المهم ان لا ننسى طبيعة المجتمع في شبه الجزيرة العربية وثقافته القائمة على ان القوي كثير العدد يتجرأ على من يعتقد انه اقل عدداً وقوةً منه بغزوه وسلب ما لديه من أموال وحاجات ثمينة وسبي نسائهم وأطفالهم ان تمكنوا من ذلك.

النبي ﷺ لم يغب عن ذهنه ثقافة العربي في شبه الجزيرة ومفاهيمه القائمة على ان القوة هي الحصن المنيع الذي يدرأ عنه وعن اصحابه التعرض لمهاجمة القبائل المحيطة والقريبة منه وغزوها، كما انه يعلم ان هنالك قلوباً مليئة بالحقد والضعينة والكره صوبه وصوب اصحابه كالتي يحملها معظم زعماء مكة ومن تحالف معهم. كان النبي ﷺ يفكر في مخططات قريش ونواياهم لذلك عندما وصل الى المدينة مع كل ما ذكرناه عمل على انشاء قوة عسكرية واضحة المعالم اشرك فيها عموم المسلمين المهاجرين منهم والأنصار، اراد بهذه القوة حماية مجتمع المسلمين الناشئ في المدينة تحسباً منه لأي هجوم قد يتعرضون له في المستقبل القريب، فكانت تلك القوة البسيطة البذرة الأولى لجيوش من المسلمين التي سيقدر لها ان تقاتل على امتداد جبهات واسعة في المشرق والمغرب لاحقاً.

عمد النبي ﷺ الى إظهار هذه القوة للآخرين ضمن البيئة المحيطة بالمدينة كجانب إعلامي ولم يكن الهدف القتال والغزو، فقد بعث بعض السرايا الى اهداف محددة، كما خرج بنفسه على رأس بعضها الى مناطق متعددة من شبه الجزيرة العربية وكانت أعداد المسلمين تتراوح ما بين (١٥٠) مقاتلاً و(٢٠٠) مقاتل يزيدون أو ينقصون كل ذلك كان بهدف إظهار القوة وليس القتال بدليل ان جميع السرايا التي بعثها النبي ﷺ لم تقاتل إلا سرية عبد الله بن جحش المعروفة بغزوة نخلة. هذا الأمر في الواقع يشابه ما تقوم به اليوم بعض الدول التي لديها مشاكل مع دول آخر أو التي تريد اظهار ما لديها من قوة وإمكانات عسكرية فتقوم بعمل الاستعراضات العسكرية لتبرز ما تمتلكه من قوة ضاربة ومعدات فتاة حديثة، ان هذه الطريقة في إظهار القوة تمثل رسالة واضحة الى من يترصد بهذا البلد أو ذاك. فأراد النبي ﷺ من ذلك العمل تحذير القبائل المحيطة بالمدينة من التعرض للمسلمين وأحسب أن هدفه قد تحقق بشكل فعال في الأشهر الأولى من بعد الهجرة.

الأمر الآخر تجلّى في الإمكانية الكبيرة التي ظهر عليها النبي ﷺ في حسه الأمني وسعيه للاطلاع السريع على اخبار اعدائه ولاسيما قريش، فعملية ارسال بعض المسلمين على شكل سرايا أو بعوث لمناطق قريبة من مكة أو محيطة بالمدينة، مناطق يحددها النبي ﷺ لرصد تحركات قريش والاطلاع على أخبارهم وإيصالها بأسرع وقت الى رسول الله ﷺ ليتخذ التدابير والاستعدادات المناسبة وحتى لا يفاجأ بهجوم غادر. هذا الحس الاستخباري كما تفعل اليوم منظومة الاستخبارات في الدول حينما تترصد التحركات المعادية وتطلع عليها وتزود الأجهزة الأمنية في الدولة بالمعلومات السريعة لمواجهة تلك الأخطار وهم على أهبة الاستعداد.

اذن هكذا كان النبي ﷺ يتعامل في تلك المرحلة وعلى الرغم من هذا النشاط العسكري الذي شهدته المدينة في وقت مبكر فالقتال لم يقع قبل غزوة نخلة.

أول تلك الغزوات التي قادها النبي ﷺ بنفسه هي «غزوة ودان»<sup>(١)</sup> أو ما عرفت «بغزوة الأبواء»<sup>(٢)</sup> هذه الغزوة وقعت في شهر صفر بعد سنة كاملة من الهجرة النبوية المباركة ومعظم من خرج مع رسول الله ﷺ كانوا من المهاجرين يتقدمهم عمه حمزة بن عبد المطلب الذي حمل اللواء<sup>(٣)</sup>. بعض المصادر تشير الى ان هذه الغزوة كانت تستهدف احدى القوافل التجارية لقريش وهذا الرأي يصطدم مع طبيعة ظروف المسلمين واستعدادهم للقتال خلال تلك المرحلة، فمن المعلوم ان النبي ﷺ واصحابه لم يكونوا مستعدين لخوض الحروب والمنازلات العسكرية وبشكل خاص مع قريش خلال الأشهر الأولى من بعد الهجرة، ناهيك عن ان عملية الاعتراض لأي قافلة تجارية تعود لقريش ستؤدي الى ردة فعل قوية كما قلنا لم يكن المسلمون على استعداد لها حتى هذا الوقت، لذلك نظن ان خروج النبي ﷺ في هذه الغزوة والسرايا الأخر التي كان يبعثها لم تكن بهدف القتال، انما كان بهدف إعلامي اكثر من اي شيء آخر فضلاً عن عمليات رصد تحركات الأعداء كما ذكرنا سابقاً. فالقوة التي تتكون من عشرات المقاتلين عندما تخرج وتنتقل من منطقة الى أخرى في شبه الجزيرة العربية أو المنطقة المحيطة بالمدينة فان أخبار ذلك الأمر تنتقل بسرعة البرق بين الناس.

استمرت السرايا تخرج من المدينة فكان الدور لسرية «عبدة بن الحارث» وخرجت في شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة وكان المقاتلون من المهاجرين يتراوح عددهم ما بين (٦٠-٨٠) مقاتل، كانت وجهتهم نحو منطقة تسمى «بمنطقة ماء» بأسفل ثنية المرة وهي من ارض الحجاز، لم يصادف هذه السرية اي اقتتال مع المشركين. ثم تلتها سرية «حمزة بن عبد المطلب» التي قادها

(١) ودان: وادٍ معروف من حدود الحجاز، وقيل انها قرية جامعة بين مكة والمدينة بينها وبين الأبواء نحو ثمانية اميال، لمزيد من المعلومات ينظر: الزمخشري، أبي القاسم محمود بن عمر (ت-٥٣٨ هـ/١١٤٣م)، الجبال والامكنة والمياه، (بريل، ليدن، ١٨٥٥)، ص ١٥٤؛ الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ٣٦٥.

(٢) الأبواء: قرية كبيرة قرب منطقة ودان، تتوسط الطريق بين مكة والمدينة، فيها قبر السيدة امته ام النبي ﷺ، لمزيد من المعلومات ينظر: الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٧٩.

(٣) الواقدي، المغازي، ج١، ص ١١-١٢؛ ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٢٨؛ ابن سعد، الطبقات، م١، ج٢، ص ٣.

الى منطقة «سيف البحر» من ناحية العيس ومعه ثلاثون مقاتلاً من المهاجرين، كان ذلك في ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة. بعد ذلك خرجت سرية» سعد بن أبي وقاص» وهذه السرية تكونت من ثمانية رجال فقط من المهاجرين توجهوا نحو «منطقة الخرار» من ارض الحجاز ولم يشهدوا أي قتال<sup>(١)</sup>.

بعدها خرج النبي ﷺ في «غزوة بواط»<sup>(٢)</sup> في آخر شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة باتجاه ناحية رضوى، تتكرر بشأن هذه الغزوة ما ذكرته المصادر سابقاً حول نية النبي ﷺ اللحاق بقافلة تجارية لقريش! لقد استبعدنا هذا الرأي فيما سبق من غزوات ونستبعده هنا للأسباب نفسها التي ذكرناها، النبي ﷺ خرج على رأس مائتين من أصحابه وبلغ مناطق جبلية خلف منطقة جبال جُهيّنة وهي تقع على الطريق المؤدي الى الشام. ثم حدثت غزوة العشيرة والنبي ﷺ على رأس المسلمين في أواخر جمادي الأولى بعد عودته من غزوة بواط في حدود ستة عشر شهراً من بعد الهجرة، كان معه مائة وخمسون رجلاً من أصحابه، اما المنطقة المقصودة فهي بين مكة والمدينة<sup>(٣)</sup>.

بعدها حدثت «غزوة سفوان» أو ما عرفت «بدر الأولى» وهي في واقع الامر ردّة فعل على محاولة اعتداء قام بها كرز بن جابر الفهري على مكان يحتوي على الابل والمواشي في المدينة، فخرج النبي ﷺ على رأس قوة من المسلمين لملاحقة من قاموا بهذه الغزوة ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق بهم حتى بلغوا وادياً يدعى سفوان من ناحية آبار بدر لذلك سميت بغزوة سفوان وهي الغزوة الأولى التي تأتي كردة فعل لغزوه تعرضت لها المدينة في عهد النبي ﷺ<sup>(٤)</sup>. ان ما تعرضت

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص ٩-١١؛ ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٣٤، ٤٣١، ٤٢٨؛ ابن سعد، الطبقات، م١، ج٢، ص ٢.

(٢) بواط: هو وادي بين جبال جهينة من ناحية ذي خشب وبين بواط والمدينة ثمانية برد أو اكثر، لمزيد من التفاصيل ينظر: الزمخشري، الجبال والأمكنة، ص ٢٤.

(٣) الواقدي، المغازي، ج١، ص ١٢-١٣؛ ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٣٣؛ ابن سعد، الطبقات، م١، ج٢، ص ٣-٤؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٤٠٧.

(٤) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٣٥.

له المدينة يوضح طبيعة البيئة المحيطة بها وثقافة اهلها ومنطق الحياة القائمة آنذاك، لذلك كان النبي ﷺ يستعرض ما لديه من قوة ليضمن عدم تجرؤ تلك القبائل على مهاجمة المسلمين في ديارهم.

إلا ان التطور الكبير في النشاط العسكري للمسلمين قد حصل في سرية «عبد الله بن جحش» التي تعرف باسم آخر هي «غزوة نخلة» استناداً الى اسم المنطقة التي وقع فيها القتال. النبي ﷺ بعث هذه السرية الى المنطقة التي تقع بين الطائف ومكة وتدعى نخلة وكانت السرية مؤلفة من ثمانية أشخاص يقودهم عبد الله بن جحش كُلفوا بالتوجه الى منطقة نخلة ورصد تحركات قريش واخبارها، ومن الواضح ان المهمة هي الرصد وليس القتال بدليل عدد أفراد السرية القليل، كما ان المكان الذي أرسلوا اليه بعيد جداً عن المدينة يقع في جنوب مكة في حين ان المدينة تقع شمال مكة، توجهت هذه السرية الى المكان المقصود واخذ رجالها يترصدون أخبار قريش، إلا ان قافلة تجارية تعود لقريش كانت قادمة من الطائف ومتوجهة الى مكة، وكانت تحمل الزبيب والأديم وغيره مما تحمله القوافل، ولم يكن عليها من المرافقين سوى أربعة رجال، توقفت بالقرب منهم، فتحرك في عروق افراد السرية روح الثأر والانتقام مما تعرضوا له من اذى ومعاناة وخروجهم من مكة مكرهين وتركهم لدورهم واموالهم كل ذلك كان امام اعينهم حينما رأوا تلك القافلة من قريش، فبادروا الى قتال افرادها وتمكنوا من قتل احدهم وهو عمر الحضرمي وأسروا اثنين هما عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وتمكن الرابع من الهرب وهو نوفل بن عبد الله الذي استطاع الوصول الى مكة واخبارهم بما وقع.

وقعت هذه الحادثة في شهر رجب السنة الثانية للهجرة بما يوافق نهاية الأشهر الحرم، فاستثمرت قريش هذا الامر واتهمت النبي محمداً ﷺ بانه انتهك حرمة الأشهر الحرم حينما قام أتباعه بمهاجمة قافلة لهم وقتل احد افرادها، وهذا مما يخالف الاعراف العربية السائدة في انهم لا يسفكون الدم في الأشهر الحرم، لقد عملت قريش على خلق حالة من الرفض والسخط القبلي بحق المسلمين

موظفين كل امكانياتهم الإعلامية واتصالاتهم بالقبائل المحيطة والمتحالفة معهم<sup>(١)</sup>.

اما عن موقف النبي ﷺ وأصحابه من أفراد السرية الذين قاموا بمقاتلة هذه القافلة القرشية فتقول المصادر ان النبي ﷺ كان غير راضي عما فعلوه وينقل ابن هشام قول النبي ﷺ مخاطباً أفراد السرية: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». كما انه اوقف غنائم هذه الغزوة مما كانت تحمله تلك القافلة القرشية وامر بعدم التصرف بها حتى ينظر في الامر<sup>(٢)</sup>. ويبدو ان النبي ﷺ كان ينتظر التوجيه الإلهي الخاص بالتصرف بهذه الغنيمة كونها اول الغنائم التي وقعت بأيدي المسلمين. وفعلا نزل الجواز الإلهي لما قام به المسلمون في هذه الغزوة جاء ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، لقد احتوى هذا النص القرآني المبارك على إجازة وإباحة واضحتين لقتال المسلمين، فقريش كانت ومازالت تتعرض لكل ما يخص المسلمين من مصالح، لم يفوتوا أية فرصة للنيل من النبي ﷺ واصحابه، لذلك عبد الله بن جحش ورفاقه بدؤوا بالقتال هنا في هذه الغزوة كجزء من الدفاع عن النفس وليس من باب الاعتداء، فقريش مازالت هي المعتدية وهي التي تسعى لمحاربة المسلمين والضغط عليهم ليرتدوا عن دينهم.

من الضروري هنا ان نعلق على موقف النبي ﷺ من أفراد السرية هذه، فقد أشرنا الى ان ما ذكرته بعض المصادر التاريخية من انه كان غير راضي عنهم وغضب

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص ١٣-١٩؛ ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٣٥-٤٣٧؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٤١٠.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٣٧.

(٣) سورة البقرة، الآية (٢١٧).

لقتالهم في الأشهر الحرم! نتساءل هنا: لما بعثهم النبي ﷺ لمنطقة نخلة وهي قريبة من مكة مع احتدام الصراع والتوتر بين المسلمين ومشركي مكة الم يخطر على باله انهم سيتعرضون للمواجهة والقتال؟ مما لا شك فيه ان النبي ﷺ كان يحسب لكل صغيرة وكبيرة وهو مدرك تماماً لطبيعة الصراع مع مشركي مكة وأجوائه وظروفه، ومن ثم فأنا نستبعد تماماً فكرة غضب النبي ﷺ وعدم رضاه عما جرى من القتال، انما تعطيله للغنائم وعدم توزيعها إلا بعد نزول الآية المباركة والتوجيه الإلهي فُسر بعض الرواة على انه عدم قبول. انتهت هذه الغزوة التي سبقت معركة بدر ومثلت اول اصطدام عسكري يقع فيه القتال بين المسلمين وجماعة من قريش بجواز الله تعالى للمسلمين بذلك.

### معركة بدر

هي أول المعارك الكبيرة والمهمة التي وقعت بين المسلمين من جهة ومشركي مكة من جهة أخرى، وقعت هذه المعركة في الشهر التاسع عشر من بعد الهجرة اي في السنة الثانية وفي شهر رمضان المبارك. وقد جاءت مقدمات المعركة بحسب ما ذكرته المصادر التاريخية: بان الأخبار قد وصلت الى النبي ﷺ حول عودة قافلة تجارية كبيرة لقريش من الشام متوجهة الى مكة وكان فيها (١٠٠٠) الف بعير واموال كثيرة حتى قيل انه لم يبق بيت في مكة إلا وقد أسهم في تلك القافلة التي يقودها ابو سفيان، في هذه الاثناء جاء امر الله تعالى للنبي ﷺ واصحابه بقتال قريش والتعرض لقوافلهم التجارية التي تشكل العصب الأساس في اقتصاد مكة<sup>(١)</sup>، ان قرار الاستيلاء على قافلة قريش التجارية آنذاك شكل نوعاً من انواع الدفاع عن النفس إزاء استمرار قريش في محاربة المسلمين والاستيلاء على اموالهم ومصلحتهم ومساكنهم فضلاً عن تحويل مكة الى مكان غير آمن لهم، كما انه شكل محاولة للضغط على قريش عسى ان يغيروا من موقفهم العدائي للمسلمين.

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص ١٩-٢١؛ ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٤٠؛ ابن سعد، الطبقات، م١، ج٢، ص ٦.



في تقديري ان محاولة الاستيلاء على القافلة لم يكن الهدف الرئيس فيها هو الحصول على الاموال بالرغم من حاجة المسلمين الشديدة لها آنذاك، بل يبدو ان النبي ﷺ اراد ان يوصل رسالة الى اهل مكة بأن العمود الفقري والعصب الأهم لتجارتكم وحياتكم هي مهددة بالخطر وهي تحت ارادة المسلمين اذا ما قرروا قطع هذا الشريان عنكم وبإمكانهم ذلك، كان النبي ﷺ يأمل ان يدفعهم الشعور بان تجارتهم في خطر الى تغيير موقفهم العدائي ومفاوضة المسلمين لتأمين الطريق التجارية كما كانوا يفعلون مع باقي القبائل الواقعة على الطريق والمهددة لقوافلهم.

خطط النبي ﷺ لان يجعل من منطقة آبار بدر مكاناً للكمين، وآبار بدر هي محطة استراحة القوافل لكثرة آبار المياه فيها ووقوعها على منتصف الطريق التجاري الرئيس الرابط بين مكة والشام وهي تبعد عن المدينة بحدود ١٥٠ كم. خرج معه من المسلمين بحدود (٣١٤) مقاتلاً فيهم من المهاجرين (٨٣) ومن الخزرج (١٧٠) ومن الأوس (٦١). اما القافلة القرشية فقد كانت تحت زعامة أبي سفيان على وفق سياقاتهم الامنية كانوا يمتلكون العيون الذين يستطلعون الطريق قبل القافلة لضمان مسيرها بأمان، وصلتهم أخبار المسلمين واستعدادهم للاستيلاء على القافلة، فاسرع ابو سفيان بتغيير المسار وسلك طريق اخر لا يؤدي الى منطقة آبار بدر، سلك طريقاً محاذياً لساحل البحر الأحمر للنجاة بالقافلة، وهذا من الطرق الوعرة الذي عادة لا يُطرق من قبل القوافل التجاري، وصلت هذه الأخبار الى مكة فجئن جنونهم وعلنوا النفير العام، واخذوا يجهزون قواتهم حتى خرجوا بجيش كبير ناهز الالف مقاتل، اي ما يعادل ثلاثة أضعاف عدد المسلمين.

ظهر الحماس الكبير للقتال عند معظم زعماء مكة ومنهم ابو جهل بن هشام في حين كان بعض الزعماء كعتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام اقل حماساً لهذه المنازلة، استمرت قریش بمسيرها نحو آبار بدر لمنازلة المسلمين بالرغم من علمهم ان القافلة قد تخلصت من الكمين ونجت<sup>(١)</sup>.

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٤٩-٤٥٠؛ ابن سعد، الطبقات، م١، ج٢، ص ٧٩، الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٤٣٧-٤٣٨.

قبل وصول جيش المشركين الى منطقة آبار بدر تؤكد المرويات الإسلامية على ان النبي ﷺ امر بطمر الآبار بمشورة الحباب بن المنذر الذي قال للنبي ﷺ: «يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمزلاً أنزلكه الله ليس لنا ان نتقدمه ولا نتأخر عنه ام هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال الرسول ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة قال الحباب: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي ادنى ماء من القوم اي اخر تلك الآبار فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب نطمرها ونكتفي ببئر واحدة نستقي لأنفسنا ثم نبني عليه حوضاً فنملأه من الماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال الرسول ﷺ: لقد أشرت بالرأي»<sup>(١)</sup>، وهكذا امر النبي ﷺ بتنفيذ هذا المقترح الذي تقدم به الحباب بن المنذر.

والحق أن هذه الرواية احتوت كثيراً من الإضافات غير الدقيقة، فالإشارة الى ان الحباب قد اقترح على النبي ﷺ تغيير موقع المسلمين وطمر الآبار لحرمان العدو من المياه لأجل إضعافهم، خبر يحتاج الى اكثر من وقفة، هذا الخبر اعطى للحباب بن المنذر دوراً عظيماً في هذه المعركة، فضلاً عن انه يظهر النبي ﷺ قليل الخبرة والمعرفة في الامور العسكرية وهذا خلاف ما رصدناه في المعارك اللاحقة للمسلمين، لقد كان ذكياً حكيماً في اختيار المواقع وادارة المعارك. الامر الاخر ان مسألة طمر الآبار وحرمان العدو من التزود بالماء لأجل اضعافهم تصرف لا ينسجم إطلاقاً مع ما عُرف عن النبي ﷺ من خلق وانسانية عالية في التعامل حتى مع أعدائه، كيف لنا ان نُصدق بانه امر بطمر الآبار لحرمان أعدائه من شرب الماء وإبقائهم عطاشاً لتسهيل منازلتهم وهزيمتهم!! كما انه من الصعب القبول بسياق روائي يؤكد على ان تخريب منشأ وطمره يسهم في ارواء مختلف الكائنات كان بأمر النبي محمد ﷺ!!.

هذه المؤاخذات على هذا النص تدفعنا الى رفضه وعدم قبوله، مستندين فضلاً عما ذكرناه الى موقف مماثل تعرض له الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في خلافته، وكان بإمكانه ان يمنع الماء عن أعدائه في معركة كبيرة ومحتممة وحاسمة هي معركة صفين سنة ٣٦ هـ وكان بإمكانه ان يمنع جيش معاوية من التزود بالماء

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٥٢؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٤٤٠.

من نهر الفرات فيسهم ذلك في إضعافهم وانكسارهم ومع ذلك فإنه لم يفعل، بل ارسل اليهم من يخبرهم نحن وانتم سواء فمن اراد ان يتزود بالماء فليتزود منه<sup>(١)</sup>. موقفه الإنساني هذا وهو قد تربى في حجر النبي ﷺ وتخلق بأخلاقه وتعلم منه يثير علامات الاستفهام حول الرواية الاولى التي تشير الى قيام النبي ﷺ بطمر الآبار لحرمان اعدائه من الماء، فلا يمكن ان يتعرضوا لموقف واحد ويكون لاحدهما قرار مختلف عن الآخر، ومن ثم فإننا نظن ان الخبر مزور والفعل منسوب للنبي ﷺ بقصد الحصول على تبرير شرعي مقبول شعبياً لفعل شنيع حصل في عهد يزيد بن معاوية الاموي حينما حرموا الامام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام وعياله من التزود بالماء في معركة الطف الشهيرة<sup>(٢)</sup>، اذ نال خلالها يزيد هذا كثيراً من اللوم والاستهجان الشعبي لفعلة المستنكرة.

قلنا ان النبي ﷺ نزل في موضع من مواضع آبار بدر وقد اختار هذا المكان قبل ان تصل قوات المشركين اليه، ثم بدء بتنظيم اصحابه وتهيأ للقتال، فلما وصلت قريش بدأت هذه المعركة كما هو معتاد في تقاليد العرب بالمنازلات الفردية التي تمثل مقدمات اي معركة من المعارك، على ما يبدو ان هذه المبارزات الفردية تؤدي الى اثاره حماس المقاتلين وتحفيزهم على المضي والاندفاع وتقديم كل ما لديهم على ارض المعركة، جاء في المرويات ان المعركة بدأت حينما خرج من معسكر قريش كل من عتبة بن ربيعة واخيه شيبة وابنه الوليد، فخرج لمنازلتهم كل من حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث، وعلي بن أبي طالب عليه السلام، ثم جرت المباراة امام انظار المعسكرين، حتى انتهت بمقتل قادة المشركين الثلاثة في حين تمت اصابة عبيدة بن الحارث بجراح من طرف المسلمين.

(١) كما اشار فلهوزن في كتابه تاريخ الدولة العربية الى هذا الامر بقوله: [قاتلهم جيش علي حتى غلبهم على الماء وأراد منعهم منه لولا تدخل علي ومنعه من ذلك]، ص ٧٣؛ اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٨٨؛ الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٥٣؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٧٥-٣٧٧.

(٢) وهذا ماكداه الكاتب الفرنسي يان ريشار بقوله: «اما الوصول الى ماء الفرات فقد قطع عليه من قبل عدوه الإسلام الشيعي عقائد وايدولوجيات، ترجمة حافظ الجمالي، (دار عطية للطباعة، بيروت، ١٩٩٦)، ص ٥٣؛ اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٤٣؛ الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٤١٢.

بعد ذلك اشتبك الجيشان بضراوة مستعملين كل اشكال الاسلحة النبال والرماح فضلاً عن السيوف. وسرعان ما لاحت بوادر الانتصار للمسلمين على الرغم من قلة عددهم امام عدد المشركين، ولم تستمر هذه المعركة كثيراً إذ انكسرت قريش فيها وانهزمت شر هزيمة، فلاذوا بالفرار مخلفين وراءهم (٧٠) قتيلًا و(٧٠) اسيراً في حين كان عدد شهداء المسلمين (١٤) شهيدا كان منهم (٨) من الأنصار و(٦) من المهاجرين، من بين قتلى قريش كان عدد كبير من زعماءهم لاسيما اولئك المعارضين والمتشددين على الدعوة والنبي ﷺ وفي مقدمتهم كما ذكرنا عتبة بن ربيعة واخيه شيبة وابو جهل بن هشام وامية بن خلف وعدد اخر من المشركين<sup>(١)</sup>، ومن الطبيعي ان تظهر علامات الفخر والفرح وعلامات السرور على النبي ﷺ واصحابه بهذا الانتصار الكبير الذي لم يكن وارداً في حسابان معظم المسلمين بهذا الشكل، كما ان القبائل العربية بشبه الجزيرة المحيطة بالمدينة ومكة لم يتصوروا ولم يحسبوا انتصاراً بهذا الحجم سيحققه المسلمون مقابل هزيمة مذلة بهذا الحجم ستعرض لها قريش وعلى يد المسلمين.

تختلف اراء المؤرخين في اليوم الذي وقعت فيه هذه المعركة على الرغم من انهم يتفقون على انها وقعت في شهر رمضان السنة الثانية للهجرة، فبعض الآراء تقول انها وقعت في يوم السابع عشر من رمضان، واخرى تقول في التاسع عشر من رمضان، ولكن الاتفاق قائم على انه في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة الخامسة عشرة من البعثة<sup>(٢)</sup>.

اما نتائج هذه المعركة فهي عديدة وشملت الجوانب الاقتصادية والسياسية وحتى الاجتماعية، في مقدمة هذه النتائج التي عادت بالخير الوفير على المسلمين هي الغنائم التي حصلوا عليها من المعركة، ويذكر الواقدي في المغازي ان الغنائم

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص ١٤٤-١٤٥؛ ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٥٥-٤٥٦، ٥٢٥، ٥٣١؛ ابن سعد، الطبقات، م١، ج٢، ص ١٠-١١.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٥٦؛ ابن سعد، الطبقات، م١، ج٢، ص ١٣-١٤؛ يعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٤٥؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ١٤.

التي حصل عليها المسلمون قد بلغت (١٥٠) بعيراً و(١٠) خيول واسلحة متنوعة قد غنموها بعد ان هرب رجال قريش وخلفوها وراءهم، فضلاً عن جلود كثيرة واشياء أخر كانوا يحملونها معهم يستخدموها في معسكرهم وكل تلك اصبحت جزءاً من الغنائم التي حصل عليها المسلمون<sup>(١)</sup>.

بهذا يمكن القول ان اول النتائج المهمة كانت مقدار تلك الغنائم التي حصل عليها المسلمون في الوقت الذي كانوا بأمس الحاجة اليها، فأحوالهم في السنوات الاولى بعد الهجرة كانت صعبة للغاية لم تكن لديهم اموال تغطي حاجاتهم، لذلك النبي ﷺ واصحابه في المدينة كانوا يمرون بظروف صعبة، ولم يكن هنالك من طعام يكفي الجميع على الدوام، غالباً ما كان البعض من المسلمين يبيتون وبطونهم فارغة، فالحاجة كانت كبيرة في السنوات الاولى، لذا نقول ان هذه الغنائم التي حصلوا عليها في هذه المعركة جاءت في وقتها، وبذلك يمكن عدّ تلك الغنائم من النتائج الاقتصادية المهمة التي ساعدت المسلمين في قضاء حوائجهم وتحفيزهم إلى المشاركة في المعارك القادمة بمستوى من الفاعلية اعلى مما حصل في بدر.

اللافت للنظر هنا ان معظم المرويات الإسلامية تشير الى نشوب الاختلاف بين المسلمين في توزيع تلك الغنائم. اعتقد انه امر طبيعي ان تنشأ خلافات على نطاق ضيق جداً وحول طريقة توزيع الغنائم، وليس كما جاء في المرويات الذي حمل روح المبالغة، كان في الجاهلية بعض الاعراف والقواعد السائدة في تقسيم الغنائم وفق مقادير محددة ومعروفة بين المقاتلين، لذلك ليس هنالك من داعي لمثل هذا النزاع حول الغنائم، ناهيك عن اننا نتحدث عن البديون وهم افضل صحابة رسول الله ﷺ تحملوا ما تحملوا في سبيل اعلاء كلمة لا اله الا الله، وليس في سبيل الحصول على الغنائم، اذن الامر لا يدعو الى وقوع خلاف ونزاع كبير، الامر الاخر انهم الان تحت راية واحدة وزعامة واحدة وفي حالة جديدة متمثلة بمبادئ انسانية وقيم عليا وطاعة تامة للنبي ﷺ، وهذا التحول باتجاه الالتزام والطاعة لله تعالى ولرسوله يقتضي ان لا يؤدي الى خلاف بالصورة التي نُقلت لنا في المصادر

التاريخية، لذلك يمكن الاعتقاد بحصول خلاف بسيط على نطاق ضيق تمت السيطرة عليه وانهاؤه.

هناك رأي حول سورة الانفال انها نزلت بعد ان وقعت بيد المسلمين هذه الغنائم الكبيرة، يقال ان الانفال نزلت بعد احتدام الخلاف على الغنائم في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾<sup>(١)</sup>. اجمع المؤمنون والمؤرخون وحتى اهل التفسير على ان الانفال نزلت بشأن الغنائم وما وقع حولها من اختلافات حادة وكبيرة بين المسلمين على الرغم من النقاط التي ذكرناها ان الخلاف كان بسيطاً، ولكن هكذا يرى المفسرون ان هذه الآية الكريمة نزلت بهذا المعنى وعلى اساسه النبي ﷺ انتزع الغنائم من ايدي المسلمين وجعلها لله تبارك وتعالى حتى يقسمها بينهم لاحقاً بالمساواة، بعد ذلك نزلت الآية الكريمة التي تحدد طريقة التوزيع والتقسيم في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾<sup>(٢)</sup>، وعلى اساس ذلك وضع النبي ﷺ اسس وقواعد تشريعية ثابتة تقوم على تقسيم الغنائم الى خمسة اخماس، توزع اربعة من هذه الاخماس على المقاتلين المشتركين في المعركة، يكون التوزيع عليهم على اساس ثلاثة اسهم للفارس وسهم واحد للراجل، اما الخمس الخامس فهو يوزع على وفق ما جاء في هذه الآية الكريمة: فان لله خُمُسُهُ وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، يقسم الى اربع حصص ربع لله تعالى ولرسوله ولذي القربى، ربع لليتامى، ربع للمساكين وربع لابن السبيل وهو الضيف الفقير المحتاج الذي ينزل عند المسلمين<sup>(٣)</sup>.

اما النتائج الأخر ومنها ما نطلق عليه تسمية «النتائج النفسية» التي تمخضت عن معركة بدر، فكانت على مستوى عالٍ من الاهمية، اعتقد ان المسلمين كانوا خلال تلك المرحلة بحاجة الى هذا الانتصار ليمنحهم الثقة والطمأنينة بانهم على الطريق

(١) سورة الانفال، الآية (١).

(٢) سورة الانفال، الآية (٤١).

(٣) الواقدي، المغازي، ج١، ص ١٣١؛ ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٤٦٩-٤٩٠، ٤٧٠ وما بعدها.

السليم، وكل المخاطر التي مروا بها أو مازالت محدقة بمستقبلهم وحياتهم كانت تستحق هذه المجازفة، هذا الانتصار تأكيد وتطمين لقسم كبير من المسلمين ولا سيما أولئك الذين نُعبر عنهم دائماً بأنهم ضعيفو الإيمان أو قليلو الإيمان، هم بحاجة دائمة للتأكيدات والتطمينات وللبراهين التي تعزز ثقتهم بهذه الدعوة وبالنبي ﷺ. إذن جاء هذا الانتصار خلافاً لكل التوقعات، لأن جيشاً يفوق المسلمين بثلاثة اضعاف العدد، كما انهم الأكثر عدداً واستعداداً للحرب، ثم يهزم هذه الهزيمة المذلة، فلا شك في أنه عزز كثيراً من ثقة المسلمين بأنفسهم وقدراتهم، ومن ثم فإن الجوانب النفسية كانت واضحة ومن أهم النتائج التي تمخض عنها هذا الانتصار.

كما ان لهذا الانتصار نتائج ايجابية أخرى على المستوى الإعلامي، فالبيئة المحيطة بالمسلمين سواء كانت البيئة الداخلية في المدينة أو الخارجية لها، فعلى مستوى البيئة الداخلية المتمثلة بالمنافقين أو اليهود أو المحايدين الذين لم يدخلوا الإسلام بعد، هؤلاء بالتأكيد تأثروا بأخبار المعركة وانتصار المسلمين فيها مما انعكس على موقفهم واندفعوا لاعتناق الإسلام والانضمام تحت لوائه.

اما البيئة خارج المدينة من القبائل المحيطة وشبه الجزيرة، فلا شك فيه أن أصدقاء هذا الانتصار الكبير انتشرت في شبه الجزيرة العربية، وساهم ذلك في خلق مكانة جديدة للمسلمين لدى هذه القبائل تقوم على الاحترام والهيبة، فليس من السهل التفكير بمهاجمتهم بعد الان خصوصاً من القبائل الصغيرة، لانهم أصبحوا قوة لا يستهان بها في المنطقة بما يمتلكونه من القدرة على الرد والتصدي والانتصار.

### معركة أحد

النشاط العسكري الآخر الذي يقع في ضمن موضوع صراع النبي ﷺ مع قريش وحلفائها هي معركة أحد التي وقعت في نهاية السنة الثالثة من بعد الهجرة أي ما يوافق السادسة عشرة من بعد البعثة<sup>(١)</sup>.

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص١٩٩؛ يعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٧؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص٤٩٩؛ المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٢٨٨.

قد تبدو دوافع قريش في هذه المعركة واضحة تماماً، فهم الآن يسعون الى معركة جديدة بعد الهزيمة في بدر، فضلاً عن الشعور المؤلم نتيجة الخسائر الكبيرة التي تكبدوها امام المسلمين في المعركة، فانهم يشعرون بقلق كبير ازاء قوافلهم التجارية التي اصبحت معرضة للأخطار وبدرجة عالية، لذلك فقد شعر مشركو مكة بالتهديد الحقيقي لمصالحهم التجارية ولحركة القوافل ومستوى تدفق الاموال على مكة واهلها. لم يكن هنالك من بديل يعوض الارباح الطائلة للتجارة مع مدن الشام، فالقوافل المتوجهة لليمن لا تعوض ذلك اطلاقاً، ثم حاولوا البحث عن طريق اخر ليعوض تلك الخسائر التي تكبدوها من تعطيل التجارة مع مدن الشام فقرروا التوجه صوب العراق، ومن خلال الطريق الذي يقع شرق المدينة وليس غربها إلا أن المصادر التاريخية تؤكد على ان احدى هذه القوافل التجارية التي توجهت الى ارض العراق قد اعترضها المسلمون وتمكنوا من الاستيلاء عليها بعد ان هرب رجال الحماية المرافقين لها. أسهمت هذه الحالات بتراجع تجارة مكة والتأثير في اهلها بشكل كبير فكانت هذه المسألة من بين اهم الاسباب الحقيقية التي دفعت قريش الى الاستعداد والتجهيز لقتال المسلمين، ولذلك اوقفوا كل اموال القافلة التجارية السابقة التي كان يقودها ابو سفيان لكي تتحول هذه الاموال الى مبالغ مالية تساهم بتجهيز القوات وتجميعها والخروج لمقاتلة النبي ﷺ واصحابه<sup>(١)</sup>.

اذن الانتقام والثأر والبحث عن ماء الوجه واسترداد الكرامة التي انكسرت بعد الهزيمة في معركة بدر كل ذلك دفع قريش للتفكير والإعداد وحتى الاتصال بالقبائل الحليفة لتشاركهم في قتال المسلمين، فدعوا كل من قبيلة ثقيف وعبد مناة وكذلك الأحابيش، الا ان مشاركة هذه القبائل كانت على نطاق محدود بأعداد قليلة، فقد ذكر ان عدد المقاتلين الذين انضموا إلى جيش المشركين في معركة أحد لم تتجاوز مئة رجل من ثقيف وبذلك كانت الاستجابة محدودة، وعلى الرغم من

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص ١٩٩-٢٠٠؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٥٨١-٥٨٢؛ ابن سعد، الطبقات، م١، ج٢، ص ٢٥.



ذلك تمكنت قريش من جمع ثلاثة الاف مقاتل<sup>(١)</sup>، وتشير المصادر الإسلامية وفي مقدمتها كتاب المغازي للواقدي على ان العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ الذي كان على شركه وما زال في مكة، انه كان يبعث الى النبي ﷺ بأخبار مكة من حيث اعدادهم وتجهيزهم لغرض التوجه إلى المدينة وقتال المسلمين<sup>(٢)</sup>.

سياق هذه القصة قد يبدو معقولاً جداً ولذلك جرى التأكيد على هذه الجزئية واعطاء دور واضح وجوهري للعباس بن عبدالمطلب. ولكن في المقابل نحن امام دوافع قوية تشجعنا على الشك في هذا الخبر فأحفاد العباس استولوا على الخلافة والحكم لقرون من الزمن وكانوا بحاجة الى كل خبر وحديث يشير إلى الفضل لجدهم الاعلى العباس بن عبدالمطلب ليواجهوا به من يتهمهم بانهم اغتصبوا الخلافة، لذلك نعتقد ان ما احتوته الرواية السابقة هو جزء من عمليات التزوير لأجل تحسين صورة العباس بن عبد المطلب وازافة ادوار هامة له خلال مرحلة الصراع الاولى التي عاشها النبي ﷺ مع قريش. ان القول بأن العباس بن عبد المطلب كان يكتب أو يرسل النبي ﷺ ويبعث بأخبار مكة وتحركات القرشيين ليستعد النبي ﷺ واصحابه لذلك، كلام غير دقيق بدليل ان النبي ﷺ كما ذكرنا سابقاً كان يبعث السرايا والبعوث ذات الاعداد القليلة من الرجال لغرض رصد تحركات المشركين ومعرفة اخبارهم، فلو كان النبي ﷺ يعتمد على عمه العباس في معرفة اخبار مكة لما احتاج الى ارسال السرايا والبعوث لرصد تحركات اعدائه، وكان بإمكانه الاعتماد فقط على العباس في الحصول على اخبار قريش وتحركاتهم المعادية، إلا ان النبي ﷺ كان قد زاد من اعمال الرصد بعد الانتصار في معركة بدر لأنه يعلم ان قريش لن تكتفي بتلك الهزيمة وستحاول ان تنتقم وتثأر لكبريائها وستقوم بمهاجمة المدينة لذلك استمر بإرسال السرايا لرصد التحركات ومعرفة الاخبار.

بعد ان وصلت اخبار قريش واستعداداتها للحرب، اخذ النبي ﷺ يستعد للمواجهة، ومما قام به انه جمع المسلمين ليستشيرهم في شكل المواجهة

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص ٢٠٠-٢٠٣؛ ابن سعد، الطبقات، م١، ج٢، ص ٢٥.

(٢) ج١، ص ٢٠٣-٢٠٤؛ ابن سعد، الطبقات، م١، ج٢، ص ٢٥؛ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٤٧.

والتصدي لقريش، كانت اراء الصحابة مقسومة بين رأيين اما البقاء في المدينة والتهيؤ والاستعداد لمواجهة قريش والدفاع عن الانفس والاموال والديار، وكان ابرز المؤيدين لهذا الرأي هو عبد الله بن أبي اذ قال للنبي ﷺ: «يا رسول الله، اقم بالمدينة لا تخرج اليهم، فوالله ما خرجنا منها الى عدو قط إلا اصاب منا، ولا دخلها علينا إلا اصابنا منه فدعهم يا رسول الله»، اما الرأي الثاني فكان الخروج من المدينة ومقاتلتهم خارجها خشية ان يصيب ثمار المدينة وبساتينها ومزارعها التلف والأضرار اذا ما بقوا في المدينة لمواجهة قريش، على اية حال كان هذا الرأي هو الاكثر ترجيحاً والذي نال قبول اغلب الصحابة لذلك قرر النبي ﷺ الخروج من المدينة فخرج على رأس قوة مؤلفة من (١٠٠٠) ألف رجل متوجهاً الى جبل احد يوم السبت السابع من شهر شوال في الشهر الثاني والثلاثين من بعد الهجرة اي نهايات السنة الثالثة للهجرة السادسة عشرة للبعثة<sup>(١)</sup>.

من المفارقات المؤلمة التي اصابته جيش المسلمين قبل المعركة، انه كان مؤلفاً من ألف مقاتل، الا ان المنافقين في المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أبي عمل على كسر معنويات هذا الجيش حينما قام بالانسحاب منه قبل الوصول الى مكان المعركة، وانسحب معه اكثر من (٣٠٠) ثلاثمائة مقاتل<sup>(٢)</sup> ولا يُستبعد انه كانت له اتصالات مع يهود المدينة أو مع قريش واتفاق حول فكرة الانسحاب من جيش النبي ﷺ على امل كسر معنوياتهم قبل المعركة. لقد كان الانسحاب تحت ذريعة ان النبي ﷺ لم يأخذ برأيه لقتال المشركين داخل المدينة.

وصل النبي ﷺ عند جبل احد وتمركزت قواته هناك، فجعل الجبل خلف ظهورهم ووضع عدداً من الرماة نحو (٥٠) خمسين رامياً على جبل يدعى عينان وهو قليل الارتفاع بجوار جبل احد، وكان واجب هؤلاء كما امرهم النبي ﷺ هو

(١) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٥٨٣-٥٨٤؛ الزهري، الطبقات، م ١، ج٢، ص ٢٦؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٠٢-٥٠٣.

(٢) الواقدي، المغازي، ج١، ص ٢١٩؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٥٨٤؛ ابن سعد، الطبقات، م ١، ج٢، ص ٢٧؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٠٤.

حماية ظهور المسلمين عند القتال واوصاهم بجملة من الوصايا من ضمنها عدم ترك مواضعهم ابداً وجعل عليهم اميراً هو عبد الله بن جبير، ثم جعل النبي ﷺ اللواء بيد مصعب بن عمير، كما جعل للجيش ميمنة وميسرة وقسم اصحابه، ودفع لواء الأوس الى اسيد بن حضير ولواء الخزرج الى سعد بن عباد. ثم بدأت المعركة بين المسلمين بـ (٧٠٠) سبعمائة مقاتل والمشركون بـ (٣٠٠٠) ثلاثة الاف مقاتل. لم تسبق المعركة اية مبارزات فردية كما هو المعهود، يبدو ان قريش ارادت المحافظة على معنويات قواتها بالابتعاد عن المبارزات الفردية، انطلقت المعركة وكانت الأجواء تسير لمصلحة المسلمين وسرعان ما حصل الانكسار في جيش المشركون، واخذت قواتهم تلوذ بالفرار عندما ظهرت بوادر الهزيمة، الا ان بعض المسلمين تعجل الامر وبدأ يجمع ما سقط من المشركون خلال فرارهم، كما ان الرماة تركوا مواضعهم المهمة التي كانت تحمي ظهور المسلمين ونزلوا يشاركون في جمع الغنائم، ما ادى الى حصول ثغرة واضحة في صفوف الجيش استغلتها فرقة من المشركون، فقاموا بالالتفاف حول جبل عينان ليصبحوا خلف ظهور المسلمين، ويحدثوا مفاجأة وإرباكاً لهم، سرعان ما تحولت مسارات المعركة لصالح قريش، ف وقعت الهزيمة بالمسلمين في هذه المعركة<sup>(١)</sup> فكانت خسائرهم كبيرة قدرت بعض المصادر عدد الشهداء بـ (٦٥) شهيداً منهم اربعة من المهاجرين وبقية الشهداء من الانصار، اما الواقدي فذكر ان عدد الشهداء كان بحدود (٧٤) منهم (٤) من المهاجرين، كانوا من خيرة الصحابة من بينهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش وشماس بن عثمان، لقد ترك هذا العدد الكبير من الشهداء اثراً عميقاً في نفوس المسلمين، اما عدد القتلى من طرف المشركون فقد بلغ بحدود (٢٢) رجلاً<sup>(٢)</sup>، وبذلك انتهت المعركة لمصلحة قريش ولكن لا بد من مناقشة هذه الهزيمة بشكل يختلف عما جاء في المرويات الإسلامية.

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص ٢١٩-٢٣٠؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٥٨٦؛ ابن سعد، الطبقات، م١، ج٢، ص ٢٧؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٠٧-٥٠٨.

(٢) الواقدي، المغازي، ج١، ص ٣٠٠؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٦٣٩، ٦٤١.

الهزيمة وقعت وكانت مفاجئة وصدمة كبيرة لعموم المسلمين، بعد انتصارهم الكبير في معركة بدر، الذي منحهم الثقة العالية بان الله تعالى سوف ينصرهم في كل حرب يخوضونها، لقد اكدت المصادر التاريخية على ان الهزيمة وقعت بسبب مخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ وتركهم لمواضعهم التي كانت تحمي ظهور جيش المسلمين. في تقديري ان هذا التبرير فيه شيء من المقبولية، ولكن هل هو كافٍ لنجعل منه سبباً رئيساً لهزيمة المسلمين في هذه المعركة؟ ام ان عدم التكافؤ العددي بينهما كان السبب في هزيمة المسلمين، لاسيما وان اعداد المشركين اكثر بأربعة اضعاف اعداد المسلمين. لاشك ان هنالك أسباباً اكثر اهمية مما ذكرناه أدت الى هذه الهزيمة، فما هي هذه الأسباب؟

في تصوري وضمن قناعاتي الشخصية ان اهم الأسباب التي ادت الى هزيمة المسلمين في هذه المعركة، هي حالة الثقة العالية التي انبثقت بعد انتصارهم في معركة بدر، اذ تشكلت بعد هذا الانتصار قناعة عند معظم المسلمين بأنهم لن يهزموا وان الله ناصرهم في كل معركة، وهو من سيبعث من عنده جنوداً ليقاتلوا معهم، هذه الفكرة ترسخت في اذهان المسلمين وكانت سبباً في حصول عملية اتكال عالية عند الكثير منهم، هذا الاتكال الذي ادى الى تقليل الجهد المبذول من المقاتل المسلم اعتماداً على فكرة ان النصر سيتحقق بإرادة الله تعالى ومؤازرته لهم، مما ادى الى بذل جهد بسيط في المعركة وتهاون واضح برز في عدم الالتزام الكامل بوصايا النبي ﷺ وأوامره في المعركة.

ان فكرة الاتكال على الله تعالى وتقليل الجهد المبذول في المعركة لضمانهم النصر فيها في تقديري كانت احد اهم اسباب الهزيمة، هذا الامر لا يمكن كشفه والوقوف عليه بسهولة، لأننا نفترض وجود حالة نفسية اصاب المسلمين ودفعتهم إلى هذا المقدار المحدود من العطاء، والحالات النفسية لم تكن معلومة وواضحة الا عند الله تبارك وتعالى وحده لذلك لم نجد لها اي اشارة في المصادر التاريخية التي تحدثت عن اسباب الهزيمة. ان الله تعالى اراد ان يعطي للمسلمين درساً بليغاً في بلوغ الاهداف وتحقيق النجاحات عن طريق بذل اقصى الجهد والسعي

الحديث لأجل ذلك، والغريب اننا نجد المقاتلين انفسهم الذين انتصروا في معركة بدر قبل عام انتصاراً ساحقاً، هم انفسهم انهزموا في هذه المعركة مع ان عددهم هنا تضاعف، وهذا يؤكد الفكرة التي طرحناها انهم لم يبذلوا الجهد نفسه الذي بذلوه في معركة بدر، فاراد الله تبارك وتعالى ان يجعل هزيمتهم درساً لهم، لان الله تعالى يريد من العبد ان يبذل كل الجهد ولا ينتقص منه شيئاً. لذلك أظن أن هذا أحد أهم اسباب الهزيمة يضاف إليه الاسباب الأخر التي تحدثنا عنها سابقاً، وهي عدم الالتزام بأوامر النبي ﷺ وترك المواقع الدفاعية ظناً منهم بان المعركة حُسمت، فضلاً عن عدم التكافؤ العددي بينهما.

مازلنا في الاثار التي ترتبت بعد هزيمة المسلمين في معركة احد، وقلنا ان الهزيمة كانت مفاجأة للمسلمين الذين ايقنوا بعد انتصارهم في بدر انهم سيتصرون في كل معركة، كما انها كانت بُشْرى وخبراً مفرحاً للمنافقين واعداء الدعوة من المشركين في داخل المدينة وخارجها وكذلك اليهود، هذه الاثار لم تكن هينة على النبي ﷺ ولا على المسلمين الذين اندفعوا صادقين باتجاه نشر الدعوة، في هذا الوقت تعالت اصوات المنافقين الذين أسهموا مساهمة كبيرة في هذه الهزيمة عن طريق حالة الانكسار التي حصلت والانسحاب الذي سبق المعركة بفترة قصيرة، لذلك تجدهم وفي مقدمتهم عبد الله بن أبي شيعون بين الناس قوله: «قد عصاني واطاع من لا رأي له» كما كان يردد في المدينة كلاماً آخر فيقول: «لو استمعت الي لما قُتلت منك هذه الاعداد»<sup>(١)</sup> ولكن الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران كان بالمرصاد لمثل هذه الشائعات والأقوال التي دارت على السن المنافقين فجاء الرد في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ يَوْمَ التَّنْعِيمِ إِلَّا جَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ \* وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَيَتَّبِعُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ \* الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢﴾

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص٢١٩؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٥٨٤.

(٢) سورة آل عمران، الآيات (١٦٦-١٦٨).

اذن في هذه الآية المباركة كشف الله تبارك وتعالى امر المنافقين وكيف انهم كانوا يُظهرون شيئاً ويُضمرون شيئاً آخر، كيف انهم يكتُمون موقفهم من الإسلام ونصرة النبي ﷺ والدين ويظهرون خلاف ذلك، وكيف انهم كانوا يرددون على مسامع الناس انكم لو اطعتمونا ولم تشركوا في الحرب ولم تخرجوا فيها ما قُتلتُم ولا اصابكم ما اصابكم. اذن هذا الكلام وطريقة اللوم فيها الكثير من الاستفزاز المقصود وكانت تؤذي النبي ﷺ واصحابه، في المقابل بين الله تعالى بان ما حصل في احد كان بإذن الله تعالى ومشيتته، ونحن نعلم بان الأفعال لا تتم الا بإذن الله تعالى مهما سارت مشيئة الإنسان وسعى لتنفيذ ارادته، فهي لن تتم وتحقق الا اذا توافقت مع مشيئة الله تعالى وارادته، هنا الله تعالى شاء ان ينهزم المسلمون في هذه المعركة لأنه يعلم ان مستوى عطائهم فيها كان اقل مقارنة بمستوى عطائهم في بدر، وهذا الانخفاض في مستوى العطاء في المعركة سببه الثقة الزائدة والاتكال الكامل على الله تعالى من دون بذل الجهد والسعي لتحقيق النصر، لذلك يقول الله تعالى وما اصابكم يوم التقى الجمعان اي ما تمخضت عنه نتيجة هذه المعركة انما كان بإذن الله وارادته ومشيتته.

بعد تلك الهزيمة، توقع النبي ﷺ ان تتعرض المدينة الى بعض الاعتداءات والتجاوزات من القبائل المحيطة بها، على اعتبار ان هذه الهزيمة خلقت فكرة لدى بعضهم ان المسلمين ليسوا بتلك القوة التي يحسب لها الحساب، لذلك قد يتجرأ بعضهم على مهاجمة المدينة فكان النبي ﷺ يُكثر من عمليات المراقبة والرصد لتحركات القبائل وتحركات قريش، في هذه الاثناء وقعت حادثة مهمة عرفت في كتب التاريخ والسيرة بحادثة «بئر معونة» وقد اشرنا اليها في معرض الحديث عن توجه النبي ﷺ الى ديار بني النضير في وقت سابق يستعينهم في دفع دية قتيلين قُتلا بالخطأ، وقلنا ان ذلك الامر ادى لاحقاً الى ان يتم اجلاء هذه القبيلة اليهودية من المدينة، وتفاصيل هذه الحادثة هي:

ورد في المرويات ان أبا براء عامر بن مالك الكلابي وهو احد زعماء قبيلة عامر بن صعصعة قدم على الرسول ﷺ فطلب منه ان يبعث معه من المسلمين من يقوم بتعليم قومه في نجد تعاليم الإسلام، فاستجاب النبي ﷺ لطلبه وارسل اليهم بعض

المسلمين، دون ان نعرف عددهم بالتحديد لاختلاف كتب السيرة والتاريخ في ذكرهم، وهم ما بين (٤٠-٧٠) رجلاً<sup>(١)</sup>، ويبدو ان هنالك مبالغة بهذا العدد، اذ لا يمكن للنبي ﷺ ان يبعث كل هذا العدد ليقوموا بتعليم اهل منطقة نجد تعاليم الإسلام في وقتٍ واحد ومكانٍ واحد، النبي ﷺ سبق ان اكتفى بمصعب بن عمير الذي ارسله لتعليم اهل المدينة فكيف يبعث بهذا العدد لمنطقة واحدة.

تقول المرويات التاريخية عندما وصل هؤلاء الذين بعثهم النبي ﷺ الى ديار بني عامر عند بئر معونة هجم عليهم القوم فقتلوه جميعاً عدا عمرو بن أمية الضمري الذي نجا من القتل وتمكن من الهرب، وفي طريق عودته الى المدينة وقبل ان يصل اليها صادف رجلين من بني عامر، فقام بقتلهما ثأراً لإصحابه على اعتبار ان هؤلاء من القبيلة نفسها، إلا ان النبي ﷺ رفض هذا الفعل وأنب عمرو بن أمية الضمري على ما قام به من قتل للأبرياء، بعدها سعى النبي ﷺ الى دفع ديتهما<sup>(٢)</sup> والقصة التي ذكرناها سابقاً بانه ذهب الى ديار بني النضير يستعين بهم لدفع الدية لأنه لم يكن يمتلك الاموال اللازمة لدفع الدية في حينها. على اية حال هذه الحادثة نعدّ من الاحداث المهمة التي تعرض فيها المسلمون الى الغدر والقتل وما اكثر الحوادث في ذلك الوقت لان المسلمين في بداية امرهم ما زالوا قوة ناشئة تتعرض بين الحين والآخر الى الاعتداءات.

### أحداث معركة الخندق

نصل الى المعركة الثالثة وهي إحدى اهم المعارك الكبيرة التي وقعت في عصر الرسالة، التي شكلت نتيجتها انعطافه كبيرة على مستوى واقع المسلمين ومستقبلهم السياسي، هذه المعركة عرفت باسم معركة الخندق وكذلك عرفت بغزوة الاحزاب، وقعت في السنة الخامسة من الهجرة الثامنة عشرة من البعثة،

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص ٣٤٦-٣٤٧؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٦٧٧-٦٧٨، ابن سعد، الطبقات، ١م، ج٢، ص ٣٦؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٤٦.

(٢) الواقدي، المغازي، ج١، ص ٣٤٧-٣٥٢؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٦٧٨-٦٨٠.

وتجمع المصادر التاريخية على ان فكرة هذه الغزوة انبثقت من بنات افكار اليهود، سبق ان تحدثنا عن أثر بني النضير وعلى رأسهم حُيي بن أخطب الذين توجهوا إلى القبائل يدعونهم لقتال المسلمين وتمكنوا في نهاية المطاف من جمع عشرة الاف مقاتل<sup>(١)</sup>، هذا الجمع الغفير من المقاتلين يمثل رقماً مهولاً وقوة خارقة غير مألوفاً في ذلك الوقت، ان يجتمع عشرة الاف مقاتل، ثم يتوجهون نحو هدف واحد وهو القضاء على المسلمين في المدينة وهذا أمر في غاية الخطورة، فالقبائل العربية عادةً مهما امتلكت من القوة وكثرة العدد غير قادرة على ان تجمع هذا الرقم في اي حال من الاحوال، لذلك نظن أن مسير هذا الجيش نحو المدينة وبهذه الاعداد الكبيرة يمثل اعلى درجات الخطورة التي تعرض لها المسلمون مدة الدعوة الإسلامية في عهد النبي ﷺ.

يبدو أن النبي ﷺ كانت تصل اليه الاخبار حول استعدادات قريش والقبائل المتحالفة معها للخروج نحو المدينة، فاخذ يشاور اصحابه في طريقة المواجهة والتصدي لهذا الهجوم، تذكر المرويات انه استمع الى نصيحة الصحابي سلمان الفارسي (المحمدي) بحفر خندق من الجهة الشمالية الغربية التي تمثل مدخل المدينة التي عادة ما يدخل الوافدون الى المدينة من خلالها كونها منطقة مفتوحة ليس فيها اي حواجز طبيعية، فقال سلمان لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله: انا كنا بفارس اذا حوصرنا خندقنا علينا»، فوجده النبي ﷺ رأياً صائباً واخذه به<sup>(٢)</sup>.

شرع اولاً بالتخطيط لتنفيذ الخطة الدفاعية عن المدينة، فدرس جهات المدينة ونقاط ضعفها وكيفية تأمين الحماية لأهلها، وجد النبي ﷺ انه ليس هنالك من حاجة لان يحفر الخندق بكل محيط المدينة، لان المناطق الجنوبية والغربية كانت مجموعة من الوديان والبساتين وهي تضاريس طبيعية تشكل جانباً دفاعياً للمدينة تعيق أية محاولة لاختراقها، اما الجهات الشمالية الشرقية فكانت وعرة غير منبسطة

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٤٤٠-٤٤٤؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٦٦٩-٧٠١؛ ابن سعد، الطبقات، ٢م، ج٢، ص ٤٧؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٦٤-٥٦٦.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٦٦.



وكان جبل أحد يمتد معها ليشكل حاجزاً طبيعياً يمنع اختراقها، لذلك لم تكن هنالك أية حاجة لحفر أي خندق في الجهات الجنوبية الغربية أو الشمالية الشرقية. الجهة المنبسطة الوحيدة التي تمثل ممراً سالكاً مفتوحاً يؤدي الى داخل المدينة هي الجهة الشمالية الغربية فقط، لأنها منطقة سهلة منبسطة ليس فيها من التضاريس الوعرة أو الحواجز المعيقة التي تمنع الوافد من الدخول الى المدينة.

امر النبي ﷺ اصحابه بالشروع بحفر الخندق في هذه المنطقة وعلى وجه السرعة، بعد ان قام بتوزيع المسلمين الى مجموعات كل منها تتكون من عشرة رجال يقومون بحفر مسافة اربعين ذراعاً، وكان العمل يجري بصورة سريعة لغرض الانتهاء من الخندق كاملاً قبل وصول جيش الاحزاب. عند الانتهاء منه بالكامل كانت ابعاده كما يأتي:

الابعاد	المسافة بالذراع	المسافة بالمترا
الطول	٥٠٠٠	٣٥٠٠
العرض	٩	٥.٦
العمق	٧	٥

لقد بذل المسلمون جهداً كبيراً في سبيل اكمال الخندق واكمال تحصين المدينة قبل وصول جيش الاحزاب، وهو اسلوب دفاعي لم يكن مألوف عند العرب في شبه الجزيرة، لذلك فان جيش الاحزاب عندما وصلوا المدينة تفاجئوا بوجود الخندق، وكانوا قد خططوا لاقتحامها والدخول اليها واستباحتها.

ان الاعداد التي جمعها المسلمون من المقاتلين لم تتجاوز ثلاثة الاف مقاتل<sup>(١)</sup> وهذا العدد لا يمثل مستوى واحد من العزيمة والصبر والثبات والشجاعة والايمان، لأننا سنلاحظ لاحقاً وجود مجموعة من المنافقين بينهم واخرى من المتخاذلين ومجموعة ثالثة من المنكسرين الذين هم جزء من هذا الجيش، كلما زاد الضغط

(١) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧٠٥؛ ابن سعد، الطبقات، م ٢، ج ٢، ص ٤٧؛ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٥٧٠.

عليهم كلما ظهر عليهم المزيد من الخوف والتخاذل، لقد أشار القرآن الكريم الى ذلك وفضحهم بشكل صريح كما سنأتي على ذكره لاحقاً.

وصل الاحزاب الى المدينة وعسكروا خارجها وبدؤوا يتفحصون الخندق لعلمهم يجدون ثغرة لينفذوا الى المدينة منها، في المقابل المسلمين اتخذوا مواضعهم الدفاعية المواجهة للخندق من الطرف الثاني يتصدون لكل من يحاول عبور الخندق بالنبال والرمح حتى يعيدوه الى اعقابه خارج المدينة. لقد قام النبي ﷺ بتنظيم المدينة بشكل مميز يسهم في ان لا يتشتت ذهن المقاتل عن موضعه الدفاعي وينشغل بأحوال عياله، فعمل على جمع النساء والاطفال من المسلمين في مكان واحد، جمعهم فيه وهو حصن لبني حارثة، مكان فيه من السعة والتحصين المناسب والملائم لجميع النساء والاطفال. كما قام النبي ﷺ بتنظيم مواقع المقاتلين وتقسيم المهام القتالية ونظم ايضاً عمليات التموين والغذاء<sup>(١)</sup>.

بدأت المناوشات بين الفريقين فبعض المقاتلين من قريش والمعروفين بالقوة والجرأة والشجاعة اخذوا يحاولون اقتحام الخندق من بعض الثغرات الموجودة فيه، وفي مقدمة هؤلاء عمرو بن ود العامري الذي تمكن من عبور الخندق مع مجموعة من فرسان المشركين، وكان من شجعان العرب فارس قريش ويُعد بألف فارس حسب بعض المصادر معروفاً بجرأته وشجاعته وشراسته، فلما عبر الخندق نادى بصوت عالٍ مطالباً ان يخرج اليه احد فرسان المسلمين للمنازلة، وامام ترقب المعسكرين تؤكد المرويات التاريخية ان المسلمين تحاشوا الخروج لمنازلة هذا الرجل خوفاً منه ولمعرفتهم بقوته، فلما اراد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الخروج لقتاله استأذن النبي ﷺ في ذلك فلم يأذن له في بداية الامر، الا ان صُراخ عمر بن ود وسخريته من المسلمين وهو يطلب منازلة احدهم والحاح الإمام علي عليه السلام على الخروج اليه، جعلت النبي ﷺ يأذن له بعد ان اعطاه سيفه المعروف بـ (ذا الفقار) والبسه درعه الخاص وعممه بعمامته ودعا له بالحفظ

(١) ابن هشام، السيرة، جـ٣، ص ٧٠٥؛ ابن سعد، الطبقات، م ٢، جـ٢، ص ٤٧-٤٨؛ الطبري، تاريخ، جـ٢، ص ٥٧٠.

والسلامة. فلما برز الإمام علي عليه السلام إلى هذا المشرك<sup>(١)</sup> كان النبي ﷺ يردد كلمته المشهورة «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»<sup>(٢)</sup>، وكان من المواقف الصعبة على الإسلام والمسلمين، فهكذا منازل فردية تسبق المعارك لها قيمة معنوية كبيرة على مجمل الجيش ومسار المعركة، ناهيك عن ما لهذه المنازل من خصوصية وظرف عصيب جداً على المسلمين.

لما تقدم الإمام علي عليه السلام نحو عمرو بن ود وعرفه بنفسه بدأ النزال بينهما، كان ذلك امام مرأى المعسكرين ومسمعهما، وكان النزال بينهما محتدماً والسيوف تتلاطم وإذا بالإمام علي عليه السلام يصرع هذا الرجل بضربة قاتلة<sup>(٣)</sup> لقد كان مشهداً عظيماً في لحظات حرجة وصعبة على الجميع، ان مصرع اشجع فرسان قريش زاد من عزيمة المسلمين ومعنوياتهم واعزهم ورفع من شأنهم امام هذا المعسكر الكبير القادم لاقتحام المدينة واستباحة دمائهم واموالهم ونسائهم، فاسرع باقي الفرسان بالهرب وعبور الخندق.

بعد ان انتهت هذه المُنازلة وايقنت قريش وحلفاؤها انه من الصعب اقتحام الخندق ولا بد من طريقة اخرى لهزيمة المسلمين بهذه المعركة، فكروا في الحصول على مساعدة قبيلة بني قريظة اليهودية، لذلك توجه رجال منهم سراً إلى ديار بني قريظة في داخل المدينة عبر طرق أخرى يصحبهم زعيم بني النضير حُيي بن أخطب وهو من بين العارفين بطرقها وممراتها، لما وصلوا حصل اللقاء مع زعيم بني قريظة كعب بن ازد القرظي وعرضوا عليه التحالف مع الاحزاب والمشاركة في قتال المسلمين والانقضاض عليهم، إذ إن حصون بني قريظة تقع خلف ظهور المسلمين وبإمكانهم ان يضربوا المسلمين ضربة واحدة مع الاحزاب، فمن امامهم معسكر الاحزاب جيش بعشرة الاف مقاتل ومن خلفهم بنو قريظة المسلحون الذين

(١) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧٠٩؛ ابن سعد، الطبقات، م٢، ج٢، ص ٤٩؛ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٥٠؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٧٣-٥٧٤.

(٢) القندوزي، سليمان بن ابراهيم الحسني، ينابيع المودة، (مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٧)، ج١، الباب الثالث والعشرون ص ١٠٩.

(٣) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧٠٩؛ ابن سعد، الطبقات، م٢، ج٢، ص ٤٩.

امتلاأت قلوبهم حقداً وكرهاً واستعداداً لمقاتلة المسلمين، لذا فان هذا التحالف سيؤدي بحسب تخطيطهم وظنهم الى القضاء على المسلمين دفعة واحدة، اقتنع زعيم بني قريظة بما عُرض عليه من امر التحالف.

في هذه الاثناء كانت اخبار الاتفاق بين بني قريظة والاحزاب قد تسربت ووصلت الى النبي ﷺ، كما وصلت الى مسامع المسلمين فأحدثت قلقاً كبيراً وخوفاً عالياً بين بعض المسلمين، لأنهم شعروا بإطباق الاحزاب الحصار عليهم بعد تحالفهم مع بني قريظة <sup>(١)</sup>، هذه الأجواء كانت صعبة على النبي ﷺ واصحابه بخاصة اولئك الذين لا يمتلكون درجات الثبات والايمان والاستقرار العالي.

اذن كانت ظروف صعبة لم تكن سهلة على المسلمين اطلاقاً، ما مروا به من مخاطر سابقة لم تصل الى مستوى هذا الموقف الأكثر خطورة، بعض المسلمين ايقنوا ان نهايتهم اقربت وهم على وشك ان يقضى عليهم هم وابنائهم ونسائهم وسوف تستباح المدينة بكاملها، فبدأ بعضهم يُشكك بما كان يعدهم به الله تعالى والنبي ﷺ من الفتح والنصر <sup>(٢)</sup>. بهذا الشعور بالخطر والخوف من الموت القادم حصلت حالة اضطراب في معسكر المسلمين لكنها لم تستمر طويلاً اذ سرعان ما بدأ النبي ﷺ يفكر في كسر شوكة هذا المعسكر وهذا التحالف، وكانت النية في بداية الأمر استمالة بني غطفان لإقناعهم بالانسحاب مقابل ان يدفع لهم جزءاً من ثمار المدينة، وكانت قبيلة غطفان من اكثر القبائل المشتركة مع الاحزاب عدداً بعد قريش وهم لا يحملون الدافع نفسه الذي تحمله قريش لمقاتلة النبي ﷺ واصحابه ولا الدافع نفسه الذي يحمله اليهود، وانما جاءوا لكسب الغنائم.

بدأ النبي ﷺ يفكر بجدية في مفاوضتهم على ان يقدم لهم ثلث ثمار المدينة مقابل الانسحاب من هذا المعسكر، وبينما هو كذلك اذ قَدِمَ عليه رجل يدعى نعيم بن مسعود وهو احد ابناء قبيلة غطفان كان يخفي اسلامه حذر مع جيش

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٤٥٤-٤٥٧؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٧٠٥-٧٠٦؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص٥٧٠-٥٧١.

(٢) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٤٥٩-٤٦٠؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٧٠٦.

الاحزاب وتسلك الى داخل المدينة من دون علم قومه والتقى بالنبى ﷺ فأخبره بأمره، بعدها عرض عليه فكرة ان يقوم هو بنفسه العمل على تشتيت هذا التحالف ويبث الشك والريبة بين بني قريظة والاحزاب، ثم اتفق مع النبي ﷺ على طريقة محددة. بعدها توجه نعيم بن مسعود إلى بني قريظة وتحدث الى زعمائهم قائلاً: «يا بني قريظة: قد عرفتم ودي اياكم... قالوا: صدقت، فقال لهم: ان قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد... وهم ليسوا كهياتكم... . فإن رأوا غنيمة اصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من اشرافهم فيكونوا بأيديكم ثقةً لكم على ان يقاتلوا معكم محمداً حتى تنجزوه، فقالوا: لقد أشرت بالرأي»<sup>(١)</sup>.

بعدها عاد الى معسكر الاحزاب واخبرهم انه يمتلك من الأخبار المهمة والخطيرة فاجتمع زعماء جيش الاحزاب، واخبرهم ان بني قريظة قد ندموا على تحالفهم مع الاحزاب وتوجهوا الى النبي ﷺ واعلنوا عن ندمهم واتفقوا معه على ان يأخذوا رهائن من الاحزاب للمسلمين لقتلهم، فتعجب الاحزاب من هذا الكلام وارسلوا بعض الرجال ليتأكدوا ويتيقنوا من كلام ابن مسعود، وبالفعل عند لقائهم ببني قريظة طالبوهم برهائن حتى يضمنوا بقاء الاحزاب الى نهاية المعركة. عندها تيقن الاحزاب ان كلام ابن مسعود صحيح، وبدأ الشك والريبة تظهر بين الطرفين ففشل تحالفهم ضد المسلمين وكان لنعيم بن مسعود دور كبير في ذلك<sup>(٢)</sup>.

الخطة التي رسمها النبي ﷺ اخذت تأتي أكلها فعلى صعيد الجانب التنظيمي الذي تمكن النبي ﷺ من الإعداد له والإشراف عليه قبل بدء غمار هذه الحرب وأثنائها كان على مستوى عالٍ، فضلاً عن المسلمين الذين كانوا

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٤٨٠-٤٨٤؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧١٢-٧١٣.

(٢) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٤٨٠-٤٨٤؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧١٢-٧١٣؛ ابن سعد، الطبقات، ٢م، ج٢، ص ٤٩-٥٠؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٧٨-٥٧٩.

منظمين وفي حالة دفاع بالرغم من الظروف الصعبة التي مروا بها. على عكس الجبهة المقابلة كانوا غير منظمين ليس لهم قيادة واحدة، لا يحملون مستوى واحد من الدافعية لهزيمة المسلمين، كما ان عدم الثقة والشك والريبة بين الاحزاب من جهة، وبني قريظة من جهة اخرى ساهم في انهيار قوة تحالفهم واضعاف معسكرهم المعادي للمسلمين. ناهيك عن الظروف المناخية التي لم تكن مناسبة للمكوث طويلاً في المعسكر خارج المدينة، إذ إنهم لم يكونوا مستعدين لذلك من حيث المستلزمات والمتطلبات الواجب توافرها لمعسكر كبير من المقاتلين، كانوا بحاجة الى مؤن غذائية وكذلك الدواب التي معهم من الأبل والخيول كانت بحاجة للأعلاف فلم يكن في الحسبان ان خروجهم في هذه الحملة سوف يستغرق مدة طويلة، كانوا يتوقعون ان تقع المعركة فور وصولهم المدينة، وستنتهي باليوم نفسه، فلما مر على حصارهم للمدينة خمسة عشرة ليلة قرروا الانسحاب في ظل اجواء البرد والرياح الشديدة التي ضربت معسكرهم، ولم تُبقَ لهم خيمة قائمة ولا قدر على النار حتى ان خيولهم ودوابهم هاجت في الارض فوجدوا انفسهم مجبرين على الانسحاب من حصار المدينة، فانسحبوا دون ان يقع القتال مع المسلمين ودون ان يتمكنوا من اقتحام الخندق الا ما ذكرناه من محاولات من بعض الافراد<sup>(١)</sup>.

بعد انسحاب الاحزاب اخبرهم النبي ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم»<sup>(٢)</sup>، وكان النبي ﷺ يبشرهم هنا بالنصر على قريش بباتهم وصبرهم، كما انه كشف لهم ما يمتلكه من معرفة ودراية قد احاطه الله تعالى بها، اي أن ما يريده الله تعالى يكون مكشوفاً امام النبي ﷺ معلوماً لديه يكون كذلك، فلا نقول ان كل الغيب مكشوف امام النبي ﷺ ولكن بعضه بالمقدار المحدد من الباري عز وجل.

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٤٨٨-٤٩١؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٧١٤؛ ابن سعد، الطبقات، م٢، ج٢، ص٥٠.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص٧٤؛ النويري، نهاية الارب، ج١٧، ص١٢٧-١٢٨.

على اية حال نحن تحدثنا في معرض العلاقة مع يهود المدينة قلنا ان بعد فشل هذه الغزوة أمر النبي ﷺ اصحابه بان لا يخلعوا عدة الحرب ولا يستريحوا من ذلك الجهد الكبير الذي قاموا به، انما يتوجهون على فورهم الى ديار بني قريظة، وهناك ضربوا عليهم الحصار حتى اعلن اليهود نزولهم على حكم النبي ﷺ، كما تحدثنا عن عقوبة بني قريظة على تحالفهم وتآمرهم واشترائهم مع الاحزاب<sup>(١)</sup>. القرآن الكريم رصد اجواء هذه الغزوة واحوال بعض المسلمين خلالها من حالات الخوف والاضطراب والتخاذل وموقف المنافقين، هذه الاجواء ذكرت بشكل واضح في سورة الاحزاب في الآيات من (١٠-١٢) من قوله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا \* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا \* وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا \*﴾، فالمقصود بالذين جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل منكم هما جيش الاحزاب وبني قريظة، إذ اصبح المسلمون بين كماشتين الاحزاب من امامهم وبني قريظة من خلفهم، ثم يأتي التعبير البليغ لوصف حالة الخوف الشديد التي اصابت بعض المسلمين ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ \*﴾، فالامتحان كان شديداً بالغ الصعوبة ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا \*﴾، وهنا بدأت حالة الشك التي وقع بها بعض المسلمين الذين اخذوا يشككون بصدق النبي ﷺ وما كان يعدهم به، فكان للمنافقين الأثر الأكبر في ذلك ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا \*﴾، فظهرت مواقف التخاذل عند بعض المسلمين والتخلي عن الواجب الدفاعي المشترك للمدينة، لم يتركهم الله تبارك وتعالى من دون ان يفضحهم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا \*﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٤٩٦-٤٩٧؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧١٦-٧١٧؛ ابن سعد، الطبقات، ٢م، ج٢، ص ٥٣-٥٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية (١٣).

صور متعددة نقلتها لنا الآيات الكريمة من سورة الاحزاب بيّنت معاني عدة: المعنى الاول، الحصار الذي اطبق على المسلمين. المعنى الثاني، الخوف الشديد الذي شعر به بعض المسلمين. المعنى الثالث، أثر المنافقين في تثبيط همم بعض المسلمين وتوهين معنوياتهم والدفع باتجاه حالة الانكسار والتخاذل وعدم الثبات والبحث عن المفر.

عند نهاية هذه الغزوة تحقق الانتصار الكبير للمسلمين بعد التخلص من يهود بني قريظة، فتحولت المدينة الى بيئة خالصة للمسلمين لا يجاورهم ولا يسكنهم فيها احد من اليهود ولا من المشركين، وهذا الامر يعد تطوراً كبيراً يهم مستقبلهم، لذلك اجد ان السنة الخامسة من الهجرة الثامنة عشرة من البعثة وتحديدًا بعد نهاية غزوة الاحزاب وفشلها والقضاء على بني قريظة، تمثل تاريخاً مفصلياً وهاماً بالنسبة للدعوة الإسلامية، وتشكل انتقاله نوعية في مستوى القدرات والاندفاع ومستوى تحقيق الانجازات.

احد المستشرقين وهو مونتجمري وات في كتابه (محمد في المدينة) يحاول الوقوف على اسباب فشل هذه الغزوة وتفوق المسلمين وانتصارهم فيها، فيؤكد على ان عامل التنظيم الذي قام به النبي ﷺ والاستعداد الدفاعي العالي للمعركة كانت اهم العوامل التي أسهمت في ذلك الانتصار وفشل الغزوة<sup>(١)</sup>، وأحسب ان مستوى الاندفاع والسعي للقضاء على المسلمين لم يكن بدرجة واحدة عند صفوف العدو، وهذا قد يشكل أهم اسباب الفشل فضلاً عما ذكرناه سابقاً، فالقبائل العربية المتحالفة مع قريش كانت مهتمة بالمكاسب التي ستحصل عليها نتيجة الغزو ولم يعينها كثيراً القضاء على هذا الدين. كما ان جيش الاحزاب لم يكن تحت زعامة واحدة وانما زعامات متعددة ولكل من هذه الزعامات رأي، مما يجعل الوصول

(١) فمن جملة ما ذكره مونتجمري عن سبب فشل هذه الغزوة والاستعداد العسكري الجيد للمسلمين هو قوله: «كان سبب فشل المكين من الناحية العسكرية استراتيجية محمد، وتفوق قلم استخباراته وعملائه السريين، وخاصة اختيار الخندق الذي كان ملائماً لتلك الاحول» كما أكد على عامل التنظيم لدى المسلمين بقوله: «وكانت النتيجة عدا هذه الاعتبار العسكرية، ثمرة وحدة المسلمين وتنظيمهم، على عكس انعدام الانسجام في التحالف وفقدان الثقة بين افراده»، ينظر: ص ٥٧ - ٥٨ وما بعدها.



الى اتفاق عام خصوصاً بعد توقف الجيش خارج المدينة بانتظار الحصول على فرصة لاقتحامها وبدء المعركة، وكلما طال امد الانتظار كلما زاد الاختلاف بين زعماء الجيش، لذلك لم يستمر هذا الجيش سوى خمس عشرة ليلة حتى بادر بالانسحاب من المدينة كما اشرنا إلى ذلك سابقاً.

## الفصل السادس :

# التطورات والأنشطة العسكرية بعد سنة ٥ هـ

- صلح الحديبية
- نتائج صلح الحديبية
- فتح حصون خيبر والمناطق المجاورة
- جيش المسلمين الى مؤته
- الانتصار الكبير فتح مكة
- معركة حُنين
- جيش المسلمين الى تبوك



## **التطورات والأنشطة العسكرية بعد سنة ٥ هـ**

بعد الانتصار الكبير في الخندق حصل تحول في ميزان القوى لصالح المسلمين، فاخذ النبي ﷺ يُكثر من إرسال السرايا والغزوات التي يخرج على رأس بعضها، فشهد ذلك النشاط العسكري خلال عام واحد فقط أكثر من ثماني عشرة سرية وغزوة، وكان معظمها قد خرج بحسب ما نقله ابن سعد الى القبائل التي اشتركت في غزوة الاحزاب كبني غطفان وبني اسد وبني سليم وبعض منها توجه الى مناطق شمال المدينة كخيبر وفدك ودومة الجندل، الواضح من الوجهات التي توجهت اليها تلك السرايا والغزوات ان النبي ﷺ اراد تأديب القبائل المعتدية على المسلمين في غزوة الاحزاب (الخندق)، فضلاً عن فرض الهيبة والاحترام للمدينة واهلها<sup>(١)</sup>، فمن خلال السرايا والغزوات اراد النبي ﷺ إيصال هذه المعاني الى تلك القبائل وغيرها ليؤدي إلى تأمين المدينة وتحصينها من الاعتداءات في المستقبل، فأى عدو سيفكر الف مرة قبل الاقدام على مهاجمتهم.

في الوقت نفسه استمر النبي ﷺ واصحابه بفرض الحصار على تجارة قريش الخارجية مع الشام، والعمل على رصد اي قافلة تجارية لهم ومصادرة ما فيها، هذا الامر صار يشكل عنصر ضغط كبير على قريش.

(١) الطبقات، م٢، ج٢، ص ٥٦ وما بعدها.

### صلح الحديبية

في هذه الاثناء وبعد مرور عام على احداث الخندق، وفي تطور مفاجئ للجميع بما فيهم المسلمين جاء الامر الالهي للنبي ﷺ واصحابه بالتوجه الى مكة لزيارة بيت الله الحرام واداء مناسك العمرة، كان ذلك في شهر ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة، التاسعة عشرة من البعثة. استعد النبي ﷺ للخروج صوب مكة بصحبة (١٤٠٠) الف واربعمئة رجل لا يحملون معهم الا السيوف في اغمادها، كما جهز بحدود (٧٠) سبعون ناقّة يسوقونها معهم لتُنحر هناك كأضاحي لله تعالى عند الكعبة.

كان امر الخروج مفاجئاً وسريعاً، تذكر المرويات عن رسول الله ﷺ قبل خروجه انه دخل الى بيته واغتسل ولبس ثوبه، ثم ركب راحلته القصواء وتوجه الى منطقة ذي الحليفة، وهناك صلى الظهر واحرم، ثم اخذ يليي بهذه الكلمات «لييك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك» وجميع من معه من المسلمين يرددون قوله بعد احرامهم، ثم انطلقوا نحو مكة قاصدين اداء العمرة<sup>(١)</sup>. ان القراءة المنصفة لهذا العمل وفي تلك الظروف تدل على تعظيم الله تعالى ونبيه والمسلمين لمكة، كونها تحتوي على بيت الله الحرام، وكان ينبغي ان يصل هذا المعنى الى زعماء مكة المشركين لعلهم يتراجعون عن موقفهم العدائي وهم ينظرون الى تقديس النبي ﷺ واصحابه مكة من دون الانتقاص من مكانتها الدينية.

لما وصلت اخبار نية النبي ﷺ في دخول مكة إلى زعماء مكة، استعدوا للحرب واعلنوا رفضهم القاطع لدخول المسلمين، فهم لم يستوعبوا بعد مقدار القوة والقدرة التي اصبح عليها المسلمون الان. عند وصول النبي ﷺ الى منطقة قريبة من الحديبية تسمى (ثنية المزار) بركت ناقه النبي ﷺ بحسب المرويات، فعلم ان الله تعالى لا يريد لهم التوغل اكثر من ذلك، لا يريد لهم الدخول الى مكة عنوةً. اراد

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٥٧٢-٥٧٥ ؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧٧٤؛ ابن سعد، الطبقات، م٢، ج٢، ص ٦٩؛ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٥٤؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٦٢٠-٦٢١.

النبي ﷺ اخبر اهل مكة بانه لم يأتي مقاتلاً بل جاء معتمراً، بعد ان استقروا في منطقة الحديبية ارسل على ناقه له شخص يدعى خُراش بن امية الخزاعي الى قريش لإخبارهم بعزم المسلمين ونيتهم زيارة بيت الله الحرام واداء مناسك العمرة، فما كان من زعماء قريش الا انهم حملوا على ناقه رسول الله ﷺ فعقروها وعزموا قتل خُراش، الا ان بعض العقلاء منعوا المتشددين من ذلك، كما ساهم الاحابيش بدرجة عالية في منعهم من قتله والسماح له بالعودة.

بدأوا بعد ذلك يبعثون ببعض رجالهم ويعمدون الى استفزاز المسلمين الذين كانوا على درجة عالية من الانضباط التزاماً بوصايا الرسول ﷺ<sup>(١)</sup>، الذي لم يشأ الرد على استفزازات قريش، بل اراد ايصال رسالة اليهم مفادها بأنهم جاءوا مسالمين لم يأتوا الى الحرب، جاءوا الى تقديس الكعبة المشرفة بيت الله تعالى وتكريمه<sup>(٢)</sup>، موقف المسلمين هذا نال رضا المعتدلين وقبول الحكماء ولا سيما قبيلتا خزاعة والاحابيش حلفاء قريش الذين تعاطفوا مع رغبة المسلمين في دخول مكة، فليس لاحد الحق في ان يرفض دخولهم ما داموا مُقبلين عليها بكل الاحترام والتقديس.

الا ان الرأي الغالب كان للمتشددين من زعماء قريش الذين اصرروا على المنع، ثم قامت قريش بعد ذلك بخطوة اخرى اقل تشدداً حين ارسلت شخصاً يدعى بديل بن ورقاء الخزاعي الى المسلمين، عمل على ايضاح موقف قريش بعدم السماح لهم بالدخول، فاخبره النبي ﷺ برغبته التوصل مع قريش الى اتفاق وعقد هدنة، ثم بدأت المفاوضات بين الطرفين حينما بعث النبي ﷺ بعثمان بن عفان لهما كان يتمتع به من حظوة ومكانة بين المكيين، اراد النبي ﷺ مواصلة الحوار والمفاوضات للوصول الى صيغة ترضي الطرفين، الا ان عثمان تأخر في مكة

(١) الواقدي، المغازي، جـ٢، ص ٥٧٩-٥٨٠؛ ابن هشام، السيرة، جـ٣، ص ٧٧٩-٧٨٠، ٦٠٠؛ ابن سعد، الطبقات، م٢، جـ٢، ص ٧٠؛ الطبري، تاريخ، جـ٢، ص ٦٢٣-٦٢٤، ٦٣١.

(٢) وهذا ماكداه بروكلمان، كارل، الذي يعد من ابرز المستشرقين الذي يؤخذ على موقفه من الإسلام والنبي ﷺ مأخذ كثيرة بقوله: «فقد خرج النبي ﷺ في ثياب الحج... ليس معهم من السلاح الا السيوف» ينظر: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه امين فارس، منير البعلبكي، (دار العلم للملايين، ط٥، بيروت، ١٩٦٨)، ص ٥٥.

لثلاثة ايام ما سبب قلق المسلمين، ظنوا ان قريشاً قامت بقتله، عندها دعا النبي ﷺ المسلمين الى مبايعته تحت الشجرة، فتمت بيعتهم للنبي ﷺ على الموت وان لا يكروا ولا يفروا في قتالهم لقريش، هذه البيعة التي عرفت ببيعة الرضوان، لقد اثنى الله تعالى عليهم كثيراً بعد اتمامهم هذه البيعة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾<sup>(١)</sup>.

إن مشاهدات ما حصل في بيعة الرضوان وصلت إلى قريش، فكان لها الاثر البالغ في سرعة استجابتهم وقبولهم بالهدنة التي عرضها عليهم النبي ﷺ، نعم لقد شكلت بيعة الرضوان عنصرَ ضغط كبيراً على المشركين وعجلت بقبولهم لعقد الهدنة والصلح. فأرسلت قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزة ومكرز بن حفص لعقد الصلح مع النبي ﷺ، فاستقبلهم وجلس معهم في مفاوضات لتثبيت بنود هذا الصلح، كان الصحابة الى جواره، فطلب من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ان يكتب وثيقة الصلح والاتفاق بخط يده. لقد تضمن اتفاقهم على جملة من البنود اهمها: ان لا يدخل المسلمون مكة عامهم هذا، وان يعودوا في العام القادم ويدخلونها لمدة ثلاثة ايام، ومنها كذلك ان يتوقف القتال بين الطرفين لمدة عشرة اعوام<sup>(٢)</sup>، فعُرف هذا الصلح بصلح الحديبية نسبةً للمكان الذي كُتبت فيه الوثيقة، ومما جاء فيها:

«هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمر اصطلاحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.....»<sup>(٣)</sup> بمعنى لا خيانة ولا سرقة ولا اعتداء من طرف على طرف اخر، وبالإمكان تلخيص بنودها بالنقاط الآتية:

(١) سورة الفتح، الآية (١٨).

(٢) الواقدي، المغازي، جـ٢، ص ٦٠٠-٦١٠؛ ابن هشام، السيرة، جـ٣، ص ٧٨٠-٧٨٢؛ ابن سعد، الطبقات، م ٢، جـ٢، ص ٧٠؛ اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٥٤؛ الطبري، تاريخ، جـ٢، ص ٦٣١-٦٣٤.

(٣) الواقدي، المغازي، جـ٢، ص ٦١١-٦١٢؛ ابن هشام، السيرة، جـ٣، ص ٧٨٢؛ ابن سعد، الطبقات، م ٢، جـ٢، ص ٧٠-٧١؛ اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٥٤-٥٥؛ الطبري، تاريخ، جـ٢، ص ٦٣٤-٦٣٥.

اولاً: إنهاء الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين، فبأمن الناس وتنتهي السرقة والأغلال والخيانة وغيرها.

ثانياً: أن يرد النبي محمد ﷺ من يجيئه مسلماً من قريش دون إذن وليه، اما قريش فليس عليها رد من يأتيها من النبي محمد ﷺ.

ثالثاً: للقبائل الحرية في التحالف مع المسلمين أو مع قريش، فدخلت خزاعة في عهد النبي محمد ﷺ، وبنو بكر في حلف قريش.

رابعاً: يخرج المشركون العام التالي من مكة ثلاثة أيام، ويدخلها المسلمون معتمرين بغير سلاح إلا بعض السيوف<sup>(١)</sup>.

بعض الصحابة عبروا عن رفضهم لصلح الحديبية، وكانوا يرون قدرتهم على الدخول الى مكة بالقوة، وان العودة دون تحقيق ذلك هو تنازل لقريش، الا ان الايام القادمة كشفت ان هذا الصلح كان في مصلحة المسلمين إذ أسهم بشكل كبير في نجاح الدعوة واستمراريتها وتوسع نطاقها بشكل واضح.

### نتائج صلح الحديبية

ان اعتراض بعض الصحابة الكبار على بنود صلح الحديبية يؤشر إلى مسألة في غاية الاهمية، وهي حجم قوة المسلمين في مقابل حجم قوة قريش، اذ ان طريقة الاعتراض التي اشرنا إليها وعدم القبول بالعودة للمدينة من دون دخول مكة يُعبر عن الثقافة العربية القديمة القائمة على منطق القوة والفرص وعدم التنازل ما دمت قوياً. كما ان قبول النبي ﷺ ببند صلح الحديبية يضعنا امام تساؤل مشروع: هل كان ذلك القبول اجتهاداً منه؟ أم انه أمراً الهياً؟.

ان الصلح مع قريش يمثل انتقاله كبيرة من حالة الحرب الطاحنة المستمرة وسفك الدماء الى سلام وتصالح وحالة من التوافق الجديد، هذا المتغير الكبير

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٦١١-٦١٢؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧٨٢؛ ابن سعد، الطبقات، م٢، ج٢، ص ٧٠-٧١؛ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٥٤-٥٥؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٦٣٤-٦٣٥.



مع حاجة المسلمين إليه في هذا الوقت بالذات، فانه لم يكن ليتم باجتهاد النبي ﷺ وحده، فالقول بان الصلح هو من اختيار النبي ﷺ واجتهاده حصراً يحوله الى قرار فيه الكثير من المغامرة، فالمصلحة التي تحققت لاحقاً جراء هذا الصلح لم تكن منظورة على الامد القريب.

ان اهم النتائج التي تمخضت عن هذا الصلح، في كونه مثل اعترافاً في غاية الاهمية من قبل قريش بكيان المسلمين ووجودهم وقوتهم، وهو تطور كبير في موقف قريش تجاههم. عادةً هذه الاتفاقيات تمثل اعتراف كل طرف بالطرف الاخر، فلو كان المسلمون اقل قوة من قريش لما تنازلت قريش وتعاملت معهم على انهم نظراًؤهم. على اية حال الصلح كان نوعاً من الاعتراف المهم الذي كان المسلمون بحاجة اليه.

النتيجة الاخرى الاكثر اهمية للمسلمين، ان الصلح سمح لهم بالتفرغ للصراعات العسكرية الاخرى، فهم كانوا في داخل دائرة من الصراعات على جبهات متعددة، وهذا الامر كان يستنزف منهم الكثير، لقد كانوا قبل الصلح في صراع مع يهود المدينة من جهة، والقبائل الطامعة بغزو المدينة من جهة اخرى، فضلاً عن صراعهم مع قريش، وبعد الصلح أصبح لديهم صراع مع التجمعات اليهودية شمال المدينة وهي جبهة جديدة سيتوجهون اليها بعد تأمين الجبهة الجنوبية مع قريش، كما سنلاحظ لاحقاً فتح جبهات جديدة اخر شمال الجزيرة في الاطراف الجنوبية لبلاد الشام والصراع مع الروم وحلفائهم من القبائل العربية. اذن فتح هذه الجبهات الجديدة ومحاولة نشر الإسلام في اماكن بعيدة عن المدينة من نتائج هذا الصلح.

من النتائج المهمة الاخر هي التمكن من اقامة علاقات طيبة مع بعض القبائل العربية في شبه الجزيرة، والارتباط بتحالفات معهم، ومن هذه القبائل قبيلة خزاعة.

### فتح حصون خيبر والمناطق المجاورة

وصلنا الى حادثة اخرى تلت صلح الحديبية، هي من افرازات هذا الصلح ونتائجه، فبعد ثلاثين يوماً من الحديبية قرر النبي ﷺ التوجه الى حصون خيبر الواقعة

شمال المدينة، والتي تبعد عنها نحو (١٥٠) مائة وخمسين كيلومتر، وهي حصون منيعة تتواجد بها التجمعات اليهودية سواء من كانوا يقطنون هذه المنطقة قديماً أو ممن التحق بهم من يهود المدينة الذين تم اجلاؤهم من بني قينقاع والنضير. لقد كانوا يشكلون تهديداً حقيقياً على المدينة ويتحنون الفرص للانقضاض عليها، مع وجود اعداد كبيرة من المقاتلين اليهود بلغ عددهم عشرة الاف مقاتل<sup>(١)</sup>، ومن ثم فان هذا العدد الكبير جداً مع المسافة القريبة من المدينة، وتفكيرهم الجدي بغزوها لأكثر من مرة قد دفع النبي ﷺ إلى اتخاذ هذا القرار.

ثم انه حصر الخروج في هذه الغزوة فقط بمن خرجوا معه في الحديبية، وهم الف واربعمائة رجل، فكان انطلقهم في الغزوة في شهر محرم من السنة السابعة للهجرة/ العشرين للبعثة، وعمل النبي ﷺ على ان يكون خروجهم مفاجئاً لليهود خبير، فلا يتمكنوا من التحصن بقلاعهم أو الاستعداد للمواجهة، وبالرغم من السرية والتكتم العالي في تحركاتهم وانطلاقهم، فان اليهود علموا بالغزوة فتحصنوا قبل وصول النبي ﷺ واصحابه الى خيبر. كان وقت وصول المسلمين ليلاً فضربوا الحصار على اليهود، وعند الصباح قال النبي ﷺ: اللّٰهُ اكبر قد خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين<sup>(٢)</sup>.

حصون خيبر كانت عبارة عن مجموعة من الحصون التي تقع على ارض مرتفعة، وهي من المنعة وشدة التحصين ما يجعل من الصعب اقتحامها، الا ان عزيمة المسلمين واندفاعهم العالي مكنهم من اسقاط اول الحصون المنيعة وهو حصن ناعم، بعد ان ضربوا عليه الحصار بضعة عشرة ليلة قبل ان يتمكنوا من اقتحامه، لقد ظهر المسلمون جميعاً بمستوى عالٍ من الجرأة والاقدام والمثابرة على اقتحام تلك الحصون المنيعة، بالرغم من صلابة المدافعين عنها وشدتهم. اما الحصن الثاني فكان يدعى حصن الصعب بن معاذ وهو كذلك من الحصون المنيعة تمكنوا من اقتحامه، ثم تساقطت باقي الحصون بضربات المسلمين وبسالتهم الحصن بعد

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٦٣٧.

(٢) المصدر نفسه والجزء، ص٦٣٧-٦٤٣؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٧٩١-٧٩٣.

الآخر، من بينها حصن الوطيح وحصن السلالم وغيرها، مع انكسار واضح في صفوف اليهود الدفاعية<sup>(١)</sup>.

كان آخر الحصون اليهودية وأكثرها منعة هو حصن خيبر الذي لم يتمكن المسلمون من فتحه واقتحامه بسهولة، إذ فشلت أكثر من حملة بعثها النبي ﷺ لاقتحامه، فجمع النبي ﷺ أصحابه وخطب فيهم قائلاً: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبنا، لا يولي الدبر يفتح الله على يديه» تقول الرواية أن أعناق الرجال تناولت لتتظر وترى من صاحب هذا الحظ، من الذي سيُعطي هذه الراية في الغد وكان كلٌّ منهم يأمل أن يكون صاحبها، وفي ذلك الوقت بينما المسلمون كانوا يترقبون النبي ﷺ حتى يدعو صاحب ذلك الوصف المعظم، سأل عن علي ابن أبي طالب عليه السلام وكان مصاب العينين بالرمد الشديد، فدعا النبي ﷺ أن يؤتى إليه به، فلما حضر عنده أخذ من ماء فمه ودلك عيني الإمام فبرأتا ببركة النبي ﷺ حتى أصبحتا كأنه لم يصبهما شيء وليس فيهما أي رمد، ثم دعا له بدعوات ودفع له الراية ودعاه أن يقاتل دون أن يلتفت حتى يفتح الله تعالى على يديه ذلك الحصن المنيع.

توجه الإمام علي عليه السلام للحصن فخرج عليه بعض فرسان اليهود الشجعان، فصرع الإمام عليه السلام أحدهم ويدعى الحارث وهو أخٌ لمرحب اليهودي أشجع فرسان اليهود، فلما علم مرحب بمقتل أخيه خرج مسرعاً للانتقام، ونزل ساحة القتال وهو يرتجز تلك الأبيات المشهورة (قد علمت خيبر أنني مرحب - شاكى السلاح بطل مجرب - إذا الحروب أقبلت تلهب) فرد عليه الإمام علي عليه السلام بقوله (أنا الذي سمتني أمي حيدر - كليث غابات كره المنظره - أوفيهم بالصاع كيل السندره)، وهكذا بدأ النزال بين الإمام علي عليه السلام ومرحب اليهودي، فضربه الإمام على هامته ففلقها حتى صرعه، فانهزم من معه من اليهود إلى داخل الحصن واغلقوا الباب عليهم. وكان ذلك الحصن بحسب المرويات محاطاً بخندق فضلاً عن كونه حصناً عالياً لا يمكن اقتحامه بسهولة، إلا أن الإمام تمكن من اقتلاع بابه الكبيرة التي

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٦٤٥-٦٤٨؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧٩٣-٧٩٦؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٩-١٠.

لا يتمكن من رفعها الا باكثر من ستة رجال، ما سمح للمسلمين باقتحام الحصن ومقاتلة اليهود<sup>(١)</sup>.

بعد ذلك وجد اليهود انهم غير قادرين على منازلة المسلمين، بعد سقوط حصونهم وقتل اشجع رجالهم فاعلنوا استسلامهم، وعلى اثر ذلك حصل الصلح بين النبي ﷺ ويهود خيبر على إبقائهم على ارضهم بسلام وامان على ان يقاسموا المسلمين ما يخرج منها من ثمار مناصفة. وهو كما نلاحظ اتفاق مختلف عما عهدناه في الحروب السابقة مع اليهود، بالرغم من ان المسلمين انتصروا في هذه المعركة فانهم ابقوا اليهود على ارضهم يزرعونها ويعيشون عليها بسلام، يبدو ان النبي ﷺ اراد ان يوصل رسالة مؤدّة وسلام الى هؤلاء اليهود يدعوهم فيها الى ترك العداء والحرب بينهما، فضلاً عن كون المسلمين الان غير قادرين على ادارة هذه الاراضي لانشغالهم بالجهاد في سبيل الله تعالى، فكان تركها بايدي اصحابها من اليهود مقابل مقاسمتهم محصول هذه المزارع والاراضي اجراء يصب في مصلحة المسلمين، فعلى الاقل ضمنوا حصولهم على مورد مهم وفي الوقت نفسه لم يشغلوا عن الجهاد والقتال.

اما الخسائر التي وقعت من الطرفين في هذه المعارك التي استمرت لمدة ثلاثين يوماً، فمن جهة اليهود قتل منهم ما يقرب من (٩٣) ثلاثة وتسعين قتيلًا، واقتصرت خسائر المسلمين البشرية على (١٥) خمسة عشر شهيداً.

ان انتصار المسلمين في خيبر واتفاقهم مع اليهود هناك، شجع باقي التجمعات اليهودية في شمال المدينة على الاتصال بالنبي ﷺ وعقد اتفاقات مماثلة معه، منهم التجمع اليهودي في منطقة فدك وهي منطقة زراعية خصبة، اتصلوا بالنبي ﷺ واعلنوا خضوعهم ورغبتهم بعقد الصلح معه بعد ان سمعوا بالهزيمة التي تعرض لها ابناؤه عمومته في خيبر، فصالحوا النبي ﷺ من دون قتال على ان يقدموا للمسلمين نصف ما يخرج من ارض فدك من محاصيل<sup>(٢)</sup>.

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٦٤٩-٦٥٥؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٧٩٦-٧٩٨؛ ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص ٨٠-٨١؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ١٢-١٣.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٨٠٠ وما بعدها؛ ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص ٨٢-٨٣؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ١٤-١٥؛ المقرئ، امتاع الاسماع، ج١، ص ٣٢٣.

اما منطقة وادي القرى التي كانت تضم تجمعات يهودية اخرى، تذكر المرويات التاريخية انهم في بادئ الامر لم يرضخوا لسلطة النبي ﷺ وارادوا القتال، ولكن ما ان تمت محاصرتهم من قبل المسلمين ونشب القتال بينهم حتى اعلنوا الاستسلام والخضوع لحكم النبي ﷺ، فصالحهم بما صالح به يهود خيبر ان يدفعوا نصف حاصل الارض، فجاء يهود منطقة تيماء والتمسوا الصلح على ذلك ايضاً. ان هذه التجمعات اليهودية التي يمكن ان ينظر اليها على اساس انها قرى أو شيء اوسع من ذلك، كانت تمثل مراكز استقرار اعداد كبيرة من اليهود اكثرها كثافة كانت خيبر، وقد شكلت تهديداً كبيراً على المدينة واهلها قبل تحرك المسلمين عليهم<sup>(١)</sup>.

بعد هذا الانتصار الذي حصل في المناطق الشمالية من المدينة، يمكن القول ان النبي ﷺ تمكن من بسط نفوذ دولته الناشئة ولأول مرة من الجهة الشمالية ولمسافة اكثر من (١٥٠) مائة وخمسين كيلومتر شملت مناطق متعددة كخيبر وفدك وتيماء ووادي القرى، ما فتح الطريق امامهم نحو مناطق نفوذ القبائل الموالية للروم. لذلك سنجد في الايام القادمة حالة الاصطدام العسكري بين المسلمين والروم حاضرة وبقوة وسوف تستمر بفاعلية اكبر كلما مرّ الزمن واتسعت مناطق نفوذ المسلمين.

ان تأمين الجبهة الجنوبية منحت المسلمين المناورة والحركة على الجبهات الاخرى، وما كان ليتحقق ذلك لو لا صلح الحديبية، اذ لولاه لوجدنا المسلمين مازالوا داخل اطار المدينة يخشون غدر قريش ومهاجمتهم، لذلك نؤكد مرةً اخرى على اهمية صلح الحديبية بالنسبة للمسلمين. ان التحركات الإسلامية باتجاه الشمال واخضاع التجمعات اليهودية هناك أسهمت كذلك في فتح المجال امام الدعاة المسلمين لنشر الإسلام بين القبائل العربية المنتشرة شمال شبه الجزيرة.

(١) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٨٠١؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ١٦؛ المقرئ، امتاع الاسماع، ج١ ص ٣٢٥-٣٢٦.

### جيش المسلمين الى مؤتة

في شهر ربيع الاول من السنة الثامنة للهجرة/ الحادية والعشرين للبعثة، بعث النبي ﷺ بعض الدعاة ويقدر عددهم بـ (١٥) خمسة عشر رجلاً الى منطقة ذات أطلاح جنوب الشام، وكان على رأسهم الصحابي كعب بن عمير الغفاري الكناني، الا ان توجه هؤلاء المسلمين الى هذه المنطقة ومحاولة نشر الإسلام فيها لم يكن ليرضي رؤساء القبائل وحكام هذه المنطقة الذين كانوا مرتبطين بأحلاف ومعاهدات وعلاقات وثيقة مع الروم، فلما بدؤوا بالدعوة للإسلام رشقوهم بالنبال، ثم وقع القتال بين الطرفين حتى قتل افراد هذه السرية جميعهم الا جريحاً واحداً هو كعب بن عمير ظنوا انه قُتل وتمكن من الفرار، فلما وصل المدينة اخبر النبي ﷺ بما اصابهم من غدر وقتل على يد قبائل شمال شبه الجزيرة العربية<sup>(١)</sup>، ويقال ان ذلك الحادث من بين الاسباب الرئيسة التي دفعت النبي ﷺ للتركيز على الجبهة الشمالية وارسال الجيوش اليها باستمرار.

الا ان بعض المصادر التاريخية تورد سبباً اخر لإرسال جيش المسلمين الى مؤتة مفاده: ان النبي ﷺ بعث الصحابي الحارث بن عمير الاسدي الى ملك بصرى حاملاً معه رسالة، فلما وصل هذا الرسول الى منطقة مؤتة وهي تقع في ادنى البلقاء قبل دمشق، احتجزه شخص يدعى شرحبيل بن عمر الغساني من بني غسان، بعد ان استعلم منه عن الجهة التي جاء منها، والجهة التي يقصدها، فلما علم انه رسول مبعوث من النبي محمد ﷺ احتجزه أولاً ثم قتله، فلما وصلت هذه الانباء الى النبي ﷺ ندب الناس وجمعهم ثم امرهم بالتهيؤ للخروج لمقاتلة الروم وحلفائهم، وفعلاً خرجت الحملة باتجاه منطقة مؤتة<sup>(٢)</sup>.

الاختلاف الحاصل في المرويات حول سبب ارسال الحملة الى مؤتة، لا يؤثر كثيراً على نسق الرواية، لان كلا الرأيين ورد فيهما عملية تجاوز واعتداء

(١) ابن سعد، الطبقات، م٣، ج٢، ص٩٢؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص٢٩؛ المقرئ، امتاع الاسماع، ج١، ص٣٣٦.

(٢) ابن سعد، الطبقات، م٣، ج٢، ص٩٢-٩٣؛ المقرئ، امتاع الاسماع، ج١، ص٣٣٧.

على المسلمين الذين بعثهم النبي ﷺ لمهمة ما سواء كانت تلك المهمة الدعوة الى الإسلام أو نقل رسالة الى حاكم بصرى، فضلاً عن ذلك فان عملية القتل قد تمت على ايدي حلفاء الروم وفي مناطق نفوذهم. كما ان سياق المرويات جميعها تؤكد على ان النبي ﷺ واصحابه لم يبدؤوا بعمليات الاعتداء والقتل مع الروم وحلفائهم، انما وصولهم الى هذه المناطق الاطراف الجنوبية لبلاد الشام كان بهدف مخاطبة اهلها ودعوتهم للإسلام بطريقة انسانية مسالمة، ولم يتغير اسلوب المسلمين في التعامل مع القوى المتواجدة هنا الى اسلوب عسكري قتالي، الا بعد ردة الفعل العنيفة التي تعرضوا لها ونتج عنها مقتل عدد من الدعاة المسلمين. فما كان من النبي ﷺ الا ان يجهز قواته ويبعث بهم لتأديب تلك القبائل والقوى المتحالفة مع الروم.

ما حصل في السنة الثامنة من الهجرة/ الحادية والعشرين من البعثة يمثل احد ابرز احداث السيرة على الصعيد العسكري اذ تم تجهيز جيش كبير بلغ (٣٠٠٠) ثلاثة الاف مقاتل وامرهم النبي ﷺ بالتوجه الى مؤتة<sup>(١)</sup>. تؤكد المصادر التاريخية على ان الجيش بعثه النبي ﷺ الى منطقة مؤتة تحديداً، ولكنني اعتقد ان وجهتهم لم تحدد بهذا المكان، انما شملت مجمل المنطقة المحيطة بها التي تتواجد عليها القبائل المعتدية على المسلمين. كما اننا نؤكد مرة اخرى على ما نطّنه من ان الجيش لم يُرسل لملاقاة الروم، بل لتأديب القبائل العربية الواقعة شمال شبه الجزيرة وجنوب بلاد الشام.

اختار النبي ﷺ ثلاثة من الصحابة الاجلاء لقيادة الجيش اولهم زيد بن حارثة فان اصيب يتولى القيادة من بعده جعفر بن أبي طالب، فان اصيب يتولى القيادة من بعده عبد الله بن رواحة، وخرج النبي ﷺ مودعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع وهي في اطراف المدينة<sup>(٢)</sup>، هذه الطريقة في توديع الجيش تعكس عناية النبي ﷺ

(١) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٨٢٩؛ ابن سعد، الطبقات، م٣، ج٢، ص ٩٢؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٣٦.

(٢) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٧٥٥-٧٥٦؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٨٢٩-٨٣٠؛ ابن سعد، الطبقات، م٣، ج٢، ص ٩٢-٩٣؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٣٦-٣٧.

بأهمية المهمة التي اوكلها لهم ورغبته في تحفيز المقاتلين والتعبير لهم عن اهتمامه وحرصه الشديدين.

كان من جملة وصاياه الكثيرة لهم كما ذكرها الواقدي: «ان لا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا كبيراً فانياً وان لا تقطعوا نخلة ولا شجرة ولا تهدموا بيت»<sup>(١)</sup>، ثم زحف هذا الجيش شمالاً حتى وصل الى منطقة معان من ارض الشام، ويبدو ان اخبار زحف جيش المسلمين قد وصلت في وقت مبكر الى تلك القبائل الواقعة عند اطراف الشام فضلاً القوات الرومية، فاخذوا بالاستعداد والتهيؤ للمواجهة، لما وصل المسلمون الى منطقة معان في اطراف الشام وصلهم الخبر ان هرقل قائد الروم قد استعد لمقاتلتهم وقد نزل في ارض مأب من ارض البلقاء وبلغت اعداد المقاتلين الذين اصطحبهم معه بحدود (١٠٠) مائة الف مقاتل، مع اعداد اخرى كبيرة من القبائل المتحالفة مع الروم مثل لخم وجذام والقين وبهراء وغيرها بحسب ما ذكره ابن هشام<sup>(٢)</sup>.

الاعداد التي ذكرتها المصادر الإسلامية لجيش الروم والقبائل المتحالفة معهم هي ارقام مبالغ فيها بدرجة عالية، إذ إنها قدرت اعدادهم بنحو (٢٠٠) مئتي الف مقاتل، وهو رقم لا يمكن قبوله، لأننا نتحدث عن رواية بعض المقاتلين الذين اشتركوا في المعركة، والامر هنا لا يخلو من الصعوبة البالغة في تقدير الاعداد فالمقاتلون في هذه المواقف لا يمتلكون القدرة على تقدير اعداد العدو بشكل دقيق. اما ضمن الاحوال غير الطبيعية حينما تكون النية معقودة لأجل التضخيم والمبالغة لأسباب تتصل بنتيجة المعركة، فان المبالغة في اعداد العدو ستكون حاضرة، لان نتيجة المعركة التي نتحدث عنها هنا سجلت هزيمة للمسلمين وفرار من ارض المعركة، ما جعل المقاتلين الفارين من القتال في موقف التعرض الى اللوم والعتاب، لذلك لا يستبعد اطلاقاً ان تكون عمليات التضخيم في اعداد الروم وحلفائهم كمبرر للمقاتلين المسلمين الذين هزموا وفروا من ارض المعركة.

(١) المغازي، ج٢، ص٧٥٨؛ المقرئ، امتاع الاسماع، ج١، ص٣٣٨.

(٢) السيرة، ج٣، ص٨٣١.



ان هذا جزءٌ من الاشكالية التي يعاني منها التاريخ المكتوب للمسلمين، فتسويغ الافعال المستنكرة كان قائماً على قدم وساق وبمختلف الطرائق والوسائل لابعاد اللوم والسخط عن مرتكبيها، ولا نخشى القول ان هذا الامر استفاد منه كبار رجال الدولة الإسلامية على مختلف العصور. إن المقاتل الذي فر من ارض المعركة فبلا شك سيبحث عن مخرج يعتقد انه سيكون مقبولاً ولا يجعله في خانة الجبن والتخاذل والتقصير إزاء باقي المسلمين. إن مسألة الطعن بدقة هذه الارقام ليس تقليلاً من مكانة المسلمين وشجاعتهم، انما احتراماً للحقيقة التاريخية وللاستدلالات العقلية المقبولة، ومحاولة فهم الدوافع أو الاجواء التي كان عليها المقاتل خلال المعركة وما بعدها، وتأثير اللوم الشديد جراء انسحابه منها، وعلينا ان نفهم هذه الاجواء حتى نتصور الطريقة التي تعامل بها هذا المقاتل، والسبب الذي قدمه للناس.

المصادر تقول ان جيش المسلمين امام هذه الاعداد الكبيرة تردد في خوض المعركة. اذن نحن إزاء مسألة مهمة ان جيش المسلمين وجد أمامه جيش يفوقه في العدد، ولكننا لا نظن ان الفارق كبير جداً كما وصف في المرويات. وعلى ما يبدو فان هذا الامر احدث خلافاً في صفوف جيش المسلمين بشأن مواجهة العدو أم عدم المواجهة والانسحاب. فانقسم المسلمون الى فريقين: الاول، يمثل درجة الايمان العالي والطاعة التامة للنبي ﷺ وكانوا يفضلون المواجهة والقتال يريدون تحقيق احدى الحسنيين النصر أو الشهادة<sup>(١)</sup>. اما الفريق الثاني، فقد وجدوا ان القتال في ظل هذه الاجواء وعدم تكافؤ الاعداد محسوم بهزيمة المسلمين ومصرعهم في هذه المعركة ففضلوا الانسحاب. ويبدو ان الفريق الاول مثله قادة الجيش زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، لذلك لم يُعطوا الفرصة لأصحاب الرأي بالانسحاب كونهم قادة الجيش وطاعتهم واجبة، فلما بدأت مقدمات المعركة سقط القادة الثلاثة كأول الشهداء فيها.

ان احداث المعركة لم توضحها المصادر التاريخية بشكل منطقي ومقبول،

(١) ينظر: ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٨٣١؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٣٧-٣٨.

فتركت الكثير من جزئياتها غامضة أو غير مقنعة، ففي الوقت الذي ذكرت المصادر فيه ان المعركة محتدمة وضارية، تحدثت عن عدد محدود جداً لشهداء المسلمين فيها بعد هزيمتهم، تراوح ما بين (٨ - ١٢) شهيداً فقط<sup>(١)</sup>. وسواء أكان الرقم الاول أو الثاني هو الصحيح، فانه لا يوحى الى وقوع معركة كاملة والتحام جيشين كبيرين إطلاقاً.

ان ما نظنه نحن ان الخلاف الذي وقع بين المسلمين قبل المعركة في مسألة المواجهة أو الانسحاب قد أسهم في: أولاً، احداث حالة انكسار في صفوف جيش المسلمين واضعف معنوياته. ثانياً، الذين اصروا على المواجهة والقتال وعدم الانسحاب هم قادة الجيش ولا سيما زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة مع ثلة قليلة جداً من المقاتلين، في المقابل وجود رغبة جامحة عند عدد كبير من المقاتلين بالانسحاب يتزعمهم خالد بن الوليد، الا انهم لم يكن بمقدورهم مخالفة القادة الثلاثة الذين عينهم رسول الله ﷺ، فمضوا مع خيار القتال مجبرين. فلما بدء القتال بمقدمات بسيطة كالمبارزات الفردية أو عمليات التحام محدودة بين الطرفين أدت الى استشهاد هذا العدد البسيط من المقاتلين ومن بينهم قادة الجيش، اتفق الباكون على قيادة خالد بن الوليد.

إن عملية الاجماع هذه على خالد بن الوليد توحى إلى أن هنالك تياراً معارضاً كان يتحرك داخل الجيش يتزعمه هذا الرجل، الذي قرر فور توليه القيادة الانسحاب من ارض المعركة دون ان يأخذوا معهم جثث الشهداء. لقد تحدثت المرويات التاريخية عن طريقة الانسحاب تلك بشكل غير واقعي فيه الكثير من المبالغة، ومنها القول: فبعد ان اصطالح الناس على خالد بن الوليد واخذ الراية قاتل قتالاً مريراً كما يعبر البخاري في نقله لقول خالد بن الوليد: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة اسياف»<sup>(٢)</sup>. اننا

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٧٦٩؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٨٤٠؛ ابن كثير، البداية، ج٤، ص ٢٩٥؛ المقرئ، امتاع، ج١، ص ٣٤٤.

(٢) صحيح البخاري، باب غزوة مؤتة من ارض الشام، ج٢، ص ٦١١، كذلك ينظر: ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٨٣٤.

امام رواية هزيلة تُصور العدو بحالة من الخوف والتراجع قبل انسحاب المسلمين، وبالوقت نفسه تُصور المسلمين قد بلغوا ذروة العطاء في القتال والاستبسال ثم التكتيك العسكري المتفوق في عملية الانسحاب، رواية تسعى لاثهار المسلمين بمظهر الابطال المنتصرين على عدوهم.

في واقع الحال نحن إزاء جيش لم يقاتل ولم تكن هنالك معركة ضارية، إنما هو مجرد التحام محدود بين الطرفين كبدية للمعركة اسفر عنه استشهاد القادة الثلاثة الذين على ما يبدو قتلوا في وقتٍ متقاربٍ جداً. ثم تبعهُ الانسحاب الفوري السريع من القتال دون ان ينتشلوا معهم جثث الشهداء، فلما وصلوا الى المدينة لم يُظهر النبي ﷺ وباقي المسلمين رضاهم عن ذلك الموقف المنهزم، وقيل ان اهل المدينة استقبلوهم بصيحات الاستهجان والاستنكار ووصفوهم بالفرارين من ارض المعركة<sup>(١)</sup>، لقد كان لهذه الهزيمة اثار كبيرة على النبي ﷺ إذ فقد خيرة صحابته كزيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب.

### الانتصار الكبير فتح مكة

مازلنا في السنة الثامنة للهجرة / الحادية والعشرين للبعثة، تحديداً في شهر رمضان حيث وقع تطور كبير جداً على واقع الدعوة الإسلامية ومستقبلها، في هذا الوقت انتهكت قريش صلح الحديبية وخرقته بعد عامين على عقده. كان من بين بنود هذا الصلح ان يتوقف القتال بين الطرفين لمدة عشر سنوات وان لا يجري اي اعتداء من طرف على آخر وتشمل بنود هذا الاتفاق كل من تحالف مع قريش ومن تحالف مع المسلمين. لقد حصل الاعتداء من قبيلة بكر وهي حليفة قريش على قبيلة خزاعة، وخزاعة كانت متحالفة مع النبي ﷺ فلما أغارت قبيلة بكر بمعونة ومشاركة قريش بالسلاح والكرء والرجال على قبيلة خزاعة وقتلوا منهم ما يقرب من عشرين رجلاً، كان ذلك بمثابة نقض لصلح الحديبية ونهاية للسلام بينهما. اذ

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٧٦٤-٧٦٥؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٨٣٦؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٤٢.

بعث بني خزاعة بعمر بن سالم الخزاعي مع جماعة من قومه الى النبي ﷺ يخبرونه بان قبيلة بكر وبمشاركة قريش قد اغاروا عليهم واعتدوا وقتلوا من رجالهم، فاعلن النبي ﷺ نصرته لقبيلة خزاعة، عاداً بنود الصلح مع قريش قد نقضت.

لقد شعر زعماء قريش في مكة بخطورة الموقف، فاظهروا عدم معرفتهم بما حصل من اعتداء، وانكروا مشاركتهم، فالان ليس بمقدورهم مواجهة المسلمين لان قوة النبي ﷺ واصحابه اصبحت تفوقهم بكثير وميزان القوى في الحجاز قد تغير في غير صالحهم، وكانوا يخشون ان يفكر النبي ﷺ بغزو مكة بعد نقضهم صلح الحديبية. في هذا الوقت امر الله تعالى نبيه الاكرم ﷺ بان يعد العدة للخروج صوب مكة ليظهرها من كل اشكال الشرك<sup>(١)</sup>.

لقد سعى بعض زعماء مكة بكل ما اوتوا من قوة للإبقاء على حالة الصلح بينهم وبين المسلمين، خاطبوا النبي ﷺ والتمسوا العفو منه، الا ان الامر الان بيد الله تعالى وقد شاء الباري عز وجل ان تتخلص مكة من نفوذ قريش وتدخل في اجواء الإسلام التوحيدية النقية من الوثنية والشرك.

ان اتساع نفوذ المسلمين وتعاضم قوتهم ما بين السنة السابعة والثامنة للهجرة أسهم بدرجة عالية في كسب المزيد من رجال قريش المهمين للإسلام، من بين اهم هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام قبل فتح مكة بمدة وجيزة هو خالد بن الوليد الذي سبق غزوة مؤتة، وكذلك عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وغيرهم. نقول هنا بصراحة ان كل من اعتنق الإسلام من المكيين في هذه المرحلة الزمنية من الدعوة وما تلاها نحن بحاجة الى التدقيق في دوافعه الحقيقية لقيامه بهذا الفعل، هل كان بدافع الايمان الصادق بهذا الدين؟ ام كان بدافع الحسابات المصلحية لاسيما بعد التحول الكبير في قوة المسلمين ونفوذهم في المنطقة؟ ان النظرة الموضوعية تقتضي تصنيف المسلمين الذين دخلوا الإسلام حديثاً وبعد هذا التاريخ الى صنفين، لكل صنف منهم دوافعه الحقيقية لاعتناق الإسلام، ولكن هذا

(١) ابن هشام، السيرة، جـ٤، ص ٨٧٧، ٨٥١؛ ابن سعد، الطبقات، م٣، جـ٢، ص ٩٦-٩٧؛ الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٤٣-٤٤.

لا يشكل منقصه على البنية الإسلامية المبكرة للعارفين بطبيعة الإنسان وفطرته، وكذلك لأنماط الحياة العربية في شبه الجزيرة آنذاك. فمما لاشك فيه ان دوافع بعضهم غير نزيهة في اعتناق الإسلام ولم تخفَ على النبي ﷺ الخاصة اولئك الذين اعتنقوه لحفظ مصالحهم أو الحصول على المكاسب والغنائم، ولكن هل ان النبي ﷺ رفض هؤلاء؟ بالتأكيد لا لم يرفض احداً، بل كان يرحب بكل من جاء لاعتناق الإسلام، لأنه كان يأمل في ان ذلك سيوفر له الفرصة ان يصبح جزءاً من المسلمين يشاركونهم عباداتهم وحروبهم وحياتهم العامة تحت مظلة الإسلام، وهذا من الممكن ان يساعد في تغلغل الايمان الى قلبه ويتحول الى مسلم صادق ومحِب لله تعالى ورسالة نبيه المصطفى ﷺ.

إذن النبي ﷺ لم يرفض احداً ممن جاءوا اليه معلنين دخولهم الإسلام، بل رحب بهم فاصبحوا يشكلون قوة جديدة مضافة الى قوة المسلمين في مقابل كسر شوكة الاعداء، عندما كان ينتقل بعض القادة العسكريين أو بعض الرجال من اصحاب المكانات المهمة من قريش من معسكره الى معسكر المسلمين، لذلك لم يقابل احداً بالرفض انما بالترحيب.

بدأ النبي ﷺ بالتجهيز للخروج إلى مكة، الا انه لم يفصح عن وجهته لأجل ان يفاجئ قريش ولا يترك لهم الفرصة للاستعداد والمواجهة. لقد تمكن النبي ﷺ من جمع ما يقرب من عشرة الاف مقاتل معظمهم من المهاجرين والانصار، أضاف إليهم حلفاءه من القبائل، وكانوا على النحو التالي: الف مقاتل من قبيلة مزين، اربعمائة مقاتل من أسلم واربعمائة مقاتل من بني غفار، الذين جعلهم النبي ﷺ على شكل وحدات مقاتلة مستقلة. لقد تشكلت هذه الحملة دون ان يعلم احد منهم الى اين الوجهة وهذا جزء من اسلوب النبي ﷺ في التحركات العسكرية.

كان خروجهم من المدينة في يوم العاشر من رمضان السنة الثامنة للهجرة/ الحادية والعشرين للبعثة، التحق بهم المقاتلون من القبائل المتحالفة خلال المسير حتى وصلوا الى منطقة قريبة من مكة وتدعى مَرَّ الظهران وهي منطقة قريبة ومشرفة

على مكة، فامر النبي ﷺ ان توقد النيران تلك الليلة التي عسكروا فيها، فلما أُوقدت النيران على هذه الارض المٌطلة على مكة، فاذا به مشهدٌ مهيب لكثرة المشاعل التي أُوقدت. لقد كان مشهداً أرعب مشركي مكة وزعماء قريش اذ جعلهم هذا المشهد يشعرون بحجم قوة المسلمين مما لا طاقة لهم على مواجهتها. إن اختيار النبي ﷺ لهذا المكان المشرف على مكة، وهذه الطريقة في ادخال الرعب في قلوب المشركين تُدلل على رغبته في حسم الامر واستسلام قريش من دون قتال، هذه الرغبة تجعلنا كذلك إزاء حقيقة ناصعة وهي ان النبي ﷺ كان يريد الدخول الى مكة بالسلم وليس بالحرب<sup>(١)</sup>.

طالما وصف اعداء الإسلام النبي ﷺ ولا سيما بعض المستشرقين، بانه محب لسفك الدماء!! نقول ان خطته تلك في دخول مكة كانت من بين ابرز الادلة على بطلان هذا القول، لان التكتيك الذي لجأ اليه في ارباب المشركين واجبارهم على الاستسلام يوحي الى انه يريد حقن الدماء مع القدرة التي كان يمتلكها على اقتحام المدينة بالقوة والسلاح. فالأمر ببساطة ينم عن رغبة واضحة في تحاشي سفك الدماء، وهذا الاسلوب ظهر في ممارسات النبي ﷺ في اكثر من حادثة.

قلنا ان القوات وصلت الى مشارف مكة في منطقة مَرَّ الظهران وقد أُوقد المسلمون مشاعل النيران، فظهر ذلك المشهد صورة بالغة إذ أثار الرعب والخوف والانكسار عند المشركين الذين ادركوا ان لا قدرة لديهم على مواجهة المسلمين أو ايقافهم أو منعهم من دخول مكة، ويذكر ابن هشام في رواية ان بعض زعماء مكة ومنهم ابو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد ادركوا عدم القدرة على المواجهة فطلبوا من العباس بن عبد المطلب اصطحابهم الى رسول الله ﷺ وهناك اعلنوا دخولهم في الإسلام، فطلب منهم النبي ﷺ ان يقوموا بإقناع اهل مكة بعدم المقاومة وتسهيل دخول جيش المسلمين الى مكة من دون قتال، ومن بين ما يرد في رواية ابن هشام هذه انه حدد مواضع للأمان يلجأ اليها اهل مكة المشركون عند دخول الجيش حتى يأمنوا على انفسهم، من

(١) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٨٥٩؛ ابن سعد، الطبقات، م ٣، ج٢، ص ٩٧؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٥٠.

بينها بيت أبي سفيان فمن دخله فهو آمن، ومن اغلق بابه ولم يخرج فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن<sup>(١)</sup>.

نتوقف هنا قليلاً لمناقشة حالة التلاعب الواضحة في تفاصيل الرواية السابقة، فان جعل بيت أبي سفيان من مواضع الامان هو التزوير بعينه والتلاعب بالحقيقة التاريخية. انه اشبه بالتكريم لهذا الرجل من خلال وصفه بانه صاحب دور كبير في تسهيل دخول جيش المسلمين إلى مكة من دون قتال، ثم جعل بيته موضعاً للأمان كما هو حال المسجد. بعد ان كانت هذه الدار لسنوات طويلة تمثل بؤرة المخططات والمؤامرات التي تحاك ضد النبي ﷺ واصحابه، لم يُذكر فيها الا بكل سوء، ولم يجتمع فيها الا المناوئون واعداء الإسلام، فكيف تنال هذا التكريم وتساوى بحرم الكعبة بيت الله حين يقول من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن!!.

لذلك اعتقد ان الامان في مكة عند دخول جيش المسلمين اقتصر فقط على من اغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، وما عدا ذلك فهو زيادة تم اضافتها إلى اصل الرواية لاحقاً لتحقيق مكاسب سياسية معروفة، والا فلماذا لم يحصل على هذا التكريم باقي زعماء مكة واقتصر الامر فقط على أبي سفيان بجعل داره ملجأ للأمان.

كان دخول المسلمين الى مكة عن طريق ابوابها الاربعة، فلم تكن هنالك اية اشتباكات أو محاولات للمقاومة سوى بعض المناوشات عند احدى الجهات بين بعض المتشددین من قريش من جهة، وقوة من المسلمين يقودهم خالد بن الوليد من جهة أخرى، فقتل عدد محدود من قريش وحلفائهم من هذيل بلغ عددهم (٢٤) اربعاً وعشرين رجلاً، وقيل ان عدد القتلى كان اقل من ذلك بكثير<sup>(٢)</sup>.

كان موكباً مهيباً للنبي ﷺ وهو يدخل مكة بعد ان خرج منها متخفياً، لقد نصره

(١) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٨٦٠-٨٦٢.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٨٦٤-٨٦٥؛ ابن سعد، الطبقات، م ٣، ج٢، ص ٩٨؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٥٠.

اللّٰه تعالى هذا النصر العظيم بعد ثماني سنوات، كان دخوله بطريقة سلمية في يوم (٢٠) عشرين من شهر رمضان السنة الثامنة للهجرة، بعد عشرة ايام من خروجه من المدينة. وقد ظهرت عليه علامات التواضع خلال لحظات استقباله مكة إذ دخلها مطأطئ الرأس اكراماً لبيت الله تعالى واکراماً لحرمتها وقديسيّتها، لم تظهر عليه علامات الزهو والتفاخر بالنصر والشعور بالقوة والعظمة.

استغرق مكوثه في مكة مدة وجيزة بحدود خمسة عشر يوماً، قام خلالها بتنظيم اوضاع المدينة، وكان اول الاعمال التي قام بها هي تهديم الاصنام التي كانت تملأ كل الاماكن فيها. لم ينزل في بيوتات المكيين ولم يتخذ من احدها مقراً أو مركزاً له، انما امر بان تُشيد له خيمة بسيطة أقام بها بالرغم من انه كان يمتلك اكثر من منزل في مكة، إذ إن تلك المنازل تم الاستيلاء عليها بعد هجرته وبيعها. لذلك طلب ان تشيد له هذه الخيمة البسيطة، كما انه منع المسلمين من ان ينزلوا في بيوت اهل مكة عنوةً الا ان يُأذن لهم بذلك<sup>(١)</sup>.

اما عن اللحظات الاولى للنبي ﷺ وهو داخل مكة، فتذكر المرويات انه اخذ استراحة قصيرة، وبعدها اغتسل وتوجه الى الكعبة ومعه المسلمون، فاستلم ركن الكعبة وكبر وردد المسلمون بعده تكبيراتهم حتى صدحت اصواتهم ورجت اركان المدينة واسماع الناس فيها بتلك الاصوات المكبرة والملبية تعظيماً للّٰه تعالى، ثم طاف النبي ﷺ حول البيت واخذ يتناول تلك الاصنام التي بلغ عددها (٣٦٠) ثلاثمائة وستين صنماً فأسقطها وكسرها الواحدة تلو الاخرى، كان في مقدمة تلك الاصنام هبل الذي كان المشركون يعظمونه ايما تعظيم، فشمّل التهديم والتكسير الاصنام (هبل وأساف ونائلة وباقي الاصنام) فيما كان النبي الاكرم ﷺ يردد وهو يهدمها: جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً فيرمي بها حتى تنكسر، ثم طاف حول الكعبة سبع مرات وبعدها بعث الى عثمان بن طلحة الذي كانت مفاتيح الكعبة وحجابتها من ضمن مسؤولياته، فأمره بفتح البيت ودخل الى جوف الكعبة، ثم

(١) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٨٧٠، ٨٦٥ وما بعدها؛ ابن سعد، الطبقات، م٣، ج٢، ص ٩٨؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٥٧؛ المقرئ، امتاع، ج١، ص ٣٨٨.



ازال ما بها من اصنام وكسرها، بعدها صلى ركعتين ثم خرج واعاد مفتاح البيت الحرام الى عثمان بن طلحة وابقاه على مسؤوليته السابقة متولياً لحجابه بيت الله الحرام<sup>(١)</sup>.

يرد في بعض المرويات ان العباس بن عبد المطلب طلب من النبي ﷺ ان يكلفه بحجابه البيت فضلاً عن مسؤوليته السابقة وهي السقاية، فرفض النبي ﷺ ذلك وافر الوظائف المكية التي كانت بيد اصحابها السابقين كما كانت، ثم خرج الى الناس بعد ان صلى ركعتين وخطب فيهم مؤكداً على مجموعة من المبادئ والاحكام والوصايا، ومن بين ما قاله في ذلك الموقف: «ماذا تقولون وماذا تظنون قالوا وهذا قول المشركين من اهل مكة الذين كانوا شديدي الخوف والرعب مما سيفعل بهم نتيجة عداؤهم ومضيههم لسنوات في قتال النبي ﷺ واصحابه، فقالوا للنبي ﷺ: نقول خيراً ونظن خيراً اخ كريم وابن اخ كريم وقد قدرت، فقال النبي ﷺ: فاني اقول لكم كما قال اخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين. ثم استمر النبي ﷺ يردد كل ربا في الجاهلية أو دم أو مال أو مأثرة فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج. بذلك وضع لهم بداية جديدة تحت ظل الإسلام، وكأنه يقول لهم صفحة جديدة بيضاء والماضي قد مضى. ثم اكد على حرمة بيت الله تعالى وانها حرم ليس لأحد ان ينتهكه وحمد الله تبارك وتعالى على ما فتح عليه من الامر ونصره واعز اصحابه<sup>(٢)</sup>.

هكذا قام النبي ﷺ بجملة من الاجراءات التي عززت الطمأنينة والامان في نفوس اهل مكة ودفعتهم باتجاه التفاعل الايجابي مع الدعوة والمسلمين، فاخذوا مباشرة بالانصهار والانخراط فيها ليتحولوا من الشرك الى الإسلام طوعية دون اكراه. لقد تعامل النبي ﷺ معهم تعاملًا ملؤه الرحمة والعفو والتسامح ما أسهم في تفاعلهم الايجابي وانضمامهم الى صفوف المسلمين. كما ان عدم سماح النبي ﷺ

(١) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٨٧٣، ٨٧٠-٨٧٤؛ ابن سعد، الطبقات، م٣، ج٢، ص ٩٨-٩٩؛ المقرئ، امتاع، ج١، ص ٣٩٠.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٨٧٠؛ ابن سعد، الطبقات، م٣، ج٢، ص ٩٩؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٦١؛ المقرئ، امتاع، ج١، ص ٣٩٢-٣٩٣.

للمسلمين بالاستحواذ على الغنائم من اهل مكة، كما هو حال اي غزوة اخرى كان له اثر بالغ في نفوس اهلها. لقد قام النبي ﷺ باقتراض بعض الاموال ثم وزعها على بعض المقاتلين الذين كان يرى فيهم انهم اصحاب حاجة الى تلك الاموال.

كما اكد النبي ﷺ على وجوب ازالة اشكال الشرك من مكة وذلك بالدعوة الى تكسير الاصنام وانهاء وجودها هناك، انهاء وجودها في الاماكن العامة وكذلك في مساكن الناس كونها كانت تحتوي الاصنام، إذ لم يخلُ في العادة دار في مكة من تلك الاصنام والتماثيل، لذلك شدد النبي ﷺ على انهاء وجودها بتكسيورها وتحطيمها. وقبل مغادرته مكة قام بتعيين احد ابنائها لإدارة شؤونها نيابة عنه وهو عتاب بن اسيد بن أبي العيص، فكان اول والٍ يُعين في تاريخ الدولة الإسلامية، وكان النبي ﷺ قد جعل له راتباً ثابتاً بمقدار درهم عن كل يوم خلال وظيفته. يبدو ان هذا الدرهم كان كافياً لسد حاجاته، ويستشف من هذا المقدار المالي ما كانت تحتاجه العائلة المكية لشؤونهم اليومية، ان هذا الامر مفيد في بناء بعض التصورات حول الجانب المعيشي في مكة آنذاك<sup>(١)</sup>.

في ختام هذا الحدث البالغ الاهمية (فتح مكة) اقدم النبي ﷺ على تحشيد قواته بما فيها القبائل المتحالفة لغرض التوجه بهذا الجيش الكبير إلى الطائف. بعد ان وصلتته الاخبار ان القبائل هناك استعدت للحرب. لقد كان لقبائل الطائف (هوازن وثقيف) تجارب عدائية سابقة مع النبي ﷺ، وحينما دخل المسلمون مكة واصبحت تحت سيطرتهم ونفوذهم شعروا بالخوف والخشية من ان تكون المرحلة القادمة مهاجمتهم.

### معركة حُنين

لقد سارعت كل من قبيلتي هوازن وثقيف الى الاستعداد لمواجهة المسلمين وذلك من خلال جمع قواتهم والاتفاق على ان يتولى زعيم قبيلة هوازن القيادة

(١) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٨٩٢؛ ابن سعد، الطبقات، م ٣، ج٢، ص ٩٩؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٧٣؛ النويري، نهاية الارب، ج١٧، ص ٢٤٦.

العامة وهو مالك بن عوف، كان شاباً لم يتجاوز عمره الثلاثين ولكنه مليء بالنشاط والحماس، وضعوا ثقتهم فيه واكملوا استعداداتهم للمواجهة قبل خروج المسلمين من مكة. اما اخبار الطائف واهلها واستعداداتهم العسكرية فقد وصلت الى النبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

قام مالك بن عوف بوضع خطته للمواجهة، وكانت تقضي بان يُخرج كل مقاتل كل ما هو ثمين وعزيز لديه الى ارض المعركة، اي ان المقاتل لا يخرج بعدة الحرب وتجهيزاته فقط، انما امرهم ان يخرجوا معهم اموالهم ونساءهم وأبناءهم<sup>(٢)</sup>، ويبدو ان مالك بن عوف اراد بهذا الامر ان يضمن ثبات المقاتلين عند المعركة وعدم فرارهم منها، فبذلك يشحذ همهم ويجبرهم على مواصلة القتال حتى تحقيق النصر، وهي في واقع الحال من الوسائل الذكية جداً لضمان ثبات المقاتلين وعدم فرارهم من ارض المعركة. عملية اصطحاب النساء والابناء والاموال بحد ذاتها عملية تحفيز عالية للمقاتل، لأنه سيقاقل عن اعز ما يملك إذ إنّ مالك بن عوف اراد مقاتلة المسلمين خارج الطائف واختار وادي حنين مكاناً للمواجهة.

كانت هنالك بعض الاعتراضات على الخطة من كبار السن من هوازن وثقيف، كونهم اصحاب خبرة ومعرفة بعد ان وجدوا في هذا القرار شيئاً من المجازفة والمغامرة، فليس من العقل انك تصطحب الاموال والعيال والابناء الى ارض المعركة. الا ان مالك بن عوف لم يسمع تلك الاعتراضات واصر على رأيه وسار بالجيش حتى وصل وادي حنين وهو احد الاودية من منطقة تهامة، فكان وصول جيش هوازن وثقيف قبل وصول المسلمين الى مكان المعركة.

استعد مالك بن عوف ووزع قواته في ذلك المكان وأعد بعض الكمائن واتخذ

(١) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ٨٩٣؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٨٨٩؛ ابن سعد، الطبقات، م٣، ج٢، ص ١٠٨.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٨٨٩-٨٩٠؛ ابن سعد، الطبقات، م٣، ج٢، ص ١٠٨؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٧٠-٧١.

من المواضع المهمة لأصحابه لمفاجأة المسلمين والانقضاض عليهم. في هذه الاثناء خرج النبي ﷺ من مكة في يوم السادس من شهر شوال السنة الثامنة للهجرة/ الحادية والعشرين للبعثة على رأس الجيش الذي قدم به الى مكة وقد انضم اليهم (٢٠٠٠) الفا مقاتل من اهل مكة فاصبح الجيش يتألف من (١٢) اثني عشر الف مقاتل، توجهوا نحو الطائف، فلما قطعوا مسافة من الطريق ووصلوا الى وادي حنين فوجئوا بهجوم مباغت من اهل الطائف عن طريق الكمائن التي أعدت من قبل فأحدثت صدمة في مقدمة جيش المسلمين واختل توازن الصفوف وظهر الارتباك بشكل واضح، ما ادى الى انكسار مقدمة تلك القوات ويصف الواقدي مشهد هذا الانكسار عن انس بن مالك قائلاً: «لما انتهينا الى وادي حنين فاستقبلنا من هوازن شيء لا والله ما رأيت مثله في ذلك الزمان قط من السواد والكثرة قد ساقوا نساءهم واموالهم وابناءهم وذرايرهم ثم صفوا صفوفاً فجعلوا النساء فوق الابل وراء صفوف الرجال ثم جاءوا الابل والبقر والغنم فجعلوها وراء ذلك لئلا يفروا بزعمهم فلما رأينا هذا السواد حسبناهم رجالاً كلهم...»<sup>(١)</sup>، حقيقة هذا الوصف يقدم صورة واضحة عن حجم المفاجأة والصدمة الثقيلة التي تلقاها المسلمون ولم يحسبوا انهم سيواجهون هوازن وثقيف بهذه الطريقة، لذلك حصلت عملية الانكسار في طلائع هذا الجيش وتحديداً بالقوات المشاركة مع المسلمين من قبيلة سليم وكذلك اهل مكة الذين انضموا حديثاً الى جيش المسلمين.

الا ان النبي ﷺ ومعه قوة لا بأس بها من المسلمين حافظوا على ثباتهم وتمكنوا من اعادة التوازن والتنظيم الى صفوف الجيش، ووقفوا ذلك الانكسار ثم بدأت المعركة من جديد لتميل الكفة لصالح المسلمين وازداد ضغط القتال وحدته على هوازن وثقيف الذين بدأوا يتفككون ويضطربون فادى ذلك الى انكسارهم وبدؤوا يفرون من ارض المعركة تاركين نساءهم واموالهم وابناءهم من خلفهم، ف وقعت جميعها بيد المسلمين.

(١) الواقدي، المغازي، ج٣، ص٨٩٧، ٨٨٩؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص٨٨٩-٨٩٢؛ ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص١٠٨؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص٧٠-٧٣.

إزاء ما حصل لم يصمد باقي المقاتلين من اهل الطائف وفروا جميعاً الى داخل مدينتهم ثم تحصنوا بها. المسلمون لاحقوهم ثم ضربوا عليهم الحصار وقيل انهم استعملوا لأول مرة المنجنيق لضرب اسوار الطائف، الا انهم لم يتمكنوا من اقتحامها، ويبدو ان النبي ﷺ لم يشأ اقتحام المدينة لأسباب غير التحصين المنيع لها: ان الاستمرار لمدة طويلة بحصار الطائف قد يكلف المسلمين المزيد من الخسائر في الارواح، كما انه قد تطرأ تطورات ليست في صالح المسلمين لذلك قرر فك الحصار والانسحاب، كما ان الاسرى الذين وقعوا بأيدي المسلمين من ابنائهم وعيالهم قد يشكل عنصر ضغط كبير على قبيلتي هوازن وثقيف ويقلب موقفهم السلبي المعادي للإسلام الى موقف ايجابي هذه باختصار الرؤية الحكيمة للنبي ﷺ لتجنب مواصلة القتال متى ما رأى بصيص امل في متغيرات جوهرية قد تطرأ على موقف الاعداء. لذلك ترك الحل العسكري وسحب المقاتلين من محاصرته للطائف وتوجهوا الى منطقة تدعى الجعرانة وفيها جرى تقسيم الغنائم على المقاتلين النظر في امر الاسرى الذين وقعوا في تلك المعركة.

كان مقدار الغنائم كبيراً جداً واعداد الاسرى كذلك، فقد وقع بأيدي المسلمين من الغنائم ما يقدر بـ (٢٤,٠٠٠) أربع وعشرين الف بعير، اما من الاغنام فكانت اعدادها كبيرة لم تحصّ بدقة تقدر بـ (٤٠,٠٠٠) بأربعين الف، كما كانت هنالك اموال كثيرة من الفضة تقدر بـ (٤٠٠٠) اربعة الاف اوقية<sup>(١)</sup> اذن الخسائر المادية لقبيلتي هوازن وثقيف كانت خسائر ثقيلة جداً، اما البشرية فكانت بحدود (١٠٠) مائة قتيل بحسب ما ذكره الواقدي وغيره من المؤرخين، اما عدد شهداء المسلمين في هذه المعركة فكانوا اربعة شهداء فقط. يضاف الى كل ذلك الاعداد الكبيرة من الاسرى وهم عيال اولئك الجند والقادة الذين فروا من ارض المعركة حتى ان عيال زعيمهم مالك بن عوف كانوا من بين الاسرى<sup>(٢)</sup>.

(١) الواقدي، المغازي، جـ٣، ص ٩٤٣، ٩٢٣-٩٤٤؛ ابن هشام، السيرة، جـ٤، ص ٩١٧، ٩٢٥، ٩٢٠؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٣، ص ١١٠.

(٢) الواقدي، المغازي، جـ٣، ص ٩٠٧-٩٢٢، ٩٠٨؛ ابن هشام، السيرة، جـ٤، ص ٨٩٨، ٩٠٦، ٨٩٩.

بعد ان قسم النبي ﷺ اموال الغنائم على المسلمين، احتفظ بالأسرى منتظراً قدوم وفد من اهل الطائف للتفاوض بشأن اطلاق سراحهم، وكانت العادات العربية القديمة تقوم على ان يكون اطلاق سراح الاسرى مقابل فدية مالية، الا ان النبي ﷺ كان يفكر في كسب اهل الطائف الى جانب الدعوة عن طريق اكرامهم بإرجاع عيالهم اليهم من دون أية فدية مالية. بالفعل جاء وفد من هوازن وثقيف وطلبوا استعادة نسائهم واولادهم، فلبى النبي ﷺ طلبهم واعاد إليهم جميع عيالهم من دون أية فدية مالية، وكانت تلك مبادرة طيبة من النبي ﷺ كسب عن طريقها القوم وشجعهم على اعتناق الإسلام، ثم ارسل الى زعيمهم مالك بن عوف يخبره بالمجئ عنده لأخذ عياله، فحضر عند رسول الله ﷺ ودخل الإسلام واخذ عياله<sup>(١)</sup>. هكذا جذب العطاء النبوي الكريم والتعامل الرحيم مع اعدائه قلوبهم، فاندفعوا الى الانضمام لقافلة المسلمين واصبحوا جزءاً منهم كل ذلك بحكمته وسياسته الرشيدة. فتحولت الطائف إلى ان تكون في ضمن منظومة الدولة الإسلامية بعد مدة وجيزة من دخول مكة وانضمامها الى المدينة حتى اصبحت الحجاز (المدينة ومكة والطائف) في هذا الوقت بيئة ممتلئة لدولة المسلمين، منها سينطلق الدين الإسلامي ويتنشر شمالاً وغرباً وجنوباً وشرقاً ويمتد الى كل الجهات بشكل سريع.

### جيش المسلمين إلى تبوك

في السنة التاسعة للهجرة / الثانية والعشرين للبعثة امر الله تعالى نبيه الأكرم بالخروج لقتال الروم، فاخذ النبي ﷺ يعد العدة لذلك. لقد كان الروم في ذلك الوقت من أشد القوى المتمركزة والمتنفذة في منطقة الشام، يمتلكون امكانيات كبيرة كما ان اعدادهم كانت كثيرة، لذلك فان الاستعداد لمواجهتهم يجب ان يكون على اعلى درجة. لقد امر النبي ﷺ بتجهيز قوة كبيرة من المقاتلين يشارك فيها الجميع، وفعلاً تمكن من جمع ثلاثين الف مقاتل، خرجوا في تلك الغزوة وهو اعلى عدد من المقاتلين قد بلغه المسلمون طوال السنوات الماضية.

(١) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ٩٥٠-٩٥٥؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٩٢٥-٩٢٨؛ ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص ١١٠-١١٢.

ان عملية جمع هذا العدد الكبير من المسلمين للخروج في الغزوة لم يكن بالأمر السهل، بالرغم مما كان لشخصية النبي ﷺ من تأثير واضح في المسلمين في تحفيزهم وحثهم على الاستجابة السريعة والكاملة لأمر الله تعالى بالخروج في الغزوة. لقد تخللت هذه العملية معاناة كبيرة، فالاستجابة لم تكن كاملة وهنالك من كان يلتمس الاعذار في عدم المشاركة، ومنهم من اعترض على وقت الغزوة وحاول تأجيلها الى وقتٍ اخر، فكانت الاعذار متعددة وكثيرة<sup>(١)</sup>.

لقد اشار الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز الى كل اولئك الذين كانوا يلتمسون الاعذار الصادقين منهم والكاذبين، وفضح المنافقين الذين ارادوا تشييط همم المسلمين في قتال الروم، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ اَنَّا لَآئِي وَلَا فِتْنَةً اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup> هنا بعض المسلمين كانوا يتحجبون بمسألة الخشية من الافتتان بنساء الروم كونهن شذيدات الجمال، ومنهم الجد بن قيس وهو من بني سلمة الذي جاء الى رسول الله ﷺ يستأذنه في ان لا يخرج معهم في هذه الغزوة الى بلاد الروم بحجة انه كان شديد الاعجاب وشديد التعلق بالنساء، مُعرباً لرسول الله ﷺ عن خشيته وخوفه من ان لا يصبر حينما يرى نساء الروم فيسقط في الفتنة، فاعرض عنه النبي ﷺ وسمح له بعدم الخروج في الغزوة، لأنه لم يجد فيه الارادة الحقيقية لمشاركة المسلمين في تنفيذ امر الله تعالى والخروج في هذه الغزوة، فسقط في فتنة غضب الله تعالى وعصيانه بعدم تنفيذ امر الخروج في هذه الغزوة. ان خشيته السقوط في فتنة النساء جعلته يعصي امر الله تعالى ورسوله ولا يخرج في هذه الغزوة<sup>(٣)</sup>.

حدد النبي ﷺ بداية شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة موعداً لانطلاق

(١) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ٩٩٦-٩٩٧؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٩٤٣؛ ابن سعد، الطبقات، م٤، ج٢، ص ١١٨-١١٩.

(٢) سورة التوبة، الآية (٤٩).

(٣) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ٩٩٢-٩٩٧؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٩٤٤؛ ابن سعد، الطبقات، م٤، ج٢، ص ١١٨-١١٩.

الغزوة، واعلن أن على كل مسلم المشاركة في هذه الغزوة، بأن يشترك بأمواله فيسهم بتجهيز الحملة الكبيرة التي كانت بحاجة للأموال والتبرعات، أو يشترك بنفسه، وهكذا لم يسمح لاحد بالتخلف عنها الا لأولئك الذين كانوا ضعفاء أو مرضى أو المُقلون الذين لا يمتلكون تجهيز انفسهم للخروج في الغزوة وعرفوا بالبكائين، فضلاً عن أبقاهم النبي ﷺ في المدينة لحمايتها من اي اعتداء<sup>(١)</sup>. لقد اسند النبي ﷺ مهمة حماية المدينة وأهلها مدة خروج الغزوة الى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام مع بعض الصحابة على الرغم من ان الامام كان راغباً بالمشاركة في غزوة تبوك فالنبي ﷺ أراد بقاءه في المدينة يقوم مقامه فيها خشيةً منه ان تتعرض الى غزوة، فالمدينة مازالت معرضة للتهديدات المعادية وهناك من يترصد باهلها.

لقد استغل المنافقون بقاء الإمام علي عليه السلام في المدينة، فكان لهم كلامٌ مؤذٍ بحقه مما دفعه لتكرار الطلب والسماح له بالمشاركة في الغزوة، فرد عليه رسول الله ﷺ: «خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في اهلي واهلك، افلا ترضى يا علي ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي»<sup>(٢)</sup>، وهذا الحديث الذي تناقله المحدثون في كتبهم حديث المنزلة الذي بين مكانة علي بن أبي طالب عليه السلام ومنزلته عند النبي ﷺ هي كمنزلة هارون من موسى الا انه حددها من دون النبوة. فكان كلام النبي ﷺ هذا اكثر إقراراً وتشبيهاً له وهو الذي عرف بحماسته ورغبته في المشاركة بالجهاد في سبيل الله تعالى.

قلنا ان هذه الغزوة كشفت الكثير من الحالات السلبية في داخل المجتمع الإسلامي، في مقدمتها وجود المنافقين الذين كانوا يتحينون الفرص للنيل من وحدة صف المسلمين وبث الفرقة بينهم واحداث النزاعات والخلافات، لقد عمل بعض المنافقين على تثبيط همم المقاتلين في عدم خروجهم ودعوتهم للآخرين

(١) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ٩٩٣ ومابعدھا؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٩٤٥-٩٤٦؛ ابن سعد، الطبقات، ج٤، ص ١١٩.

(٢) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ٩٩٥؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٩٤٦-٩٤٧.



ان لا ينفروا في هذه الغزوة في ذلك الحر الشديد فنزل في هؤلاء قول الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>، لاحظ البيان الالهي لحقيقة تلك المواقف المليئة بالنفاق والتخاذل التي كان عليها بعض من كانوا جزءاً من المجتمع الإسلامي، جاء بعضهم إلى رسول الله ﷺ يستأذنه بعدم الخروج دون ان تكون لهم علة واضحة أو عذر مقبول، لقد بلغت اعداد هؤلاء بحسب المرويات والاخبار الى بضع وثمانين رجلاً، كانوا من الاعراب من بني غفار<sup>(٢)</sup>، فنزل بحقهم قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾<sup>(٣)</sup>.

اذن تعددت اعدار بعض المسلمين في عدم الخروج في غزوة تبوك بين ما ذكرناه من امر الافتتان بالنساء، والخشية من الحر الشديد، الى من كان يتعذر بانشغاله بقطف الثمار والحصاد وطلب تأجيل الخروج حتى الانتهاء من ذلك. مع ذلك فان الغزوة خرجت كما قلنا في بداية شهر رجب وقصدت الاطراف الجنوبية من بلاد الشام، وبلغ عدد المقاتلين ثلاثين الفاً، تشارك كل اربعة منهم على بعير واحد فكانوا يتناوبون على ركوبه، لذلك كان مسيرهم بطيئاً رافقتهم ظروف مناخية صعبة تمثلت بالحر الشديد وحاجتهم لكميات كبيرة من المياه.

لما وصلوا الى منطقة تبوك نزل النبي ﷺ واصحابه فيها لمواجهة الروم، وبقوا في تلك المنطقة ما يقرب من عشرة ايام، لم تظهر للروم خلالها أية بوادر للتحرك والمواجهة، يبدو انهم لم يكونوا مستعدين لذلك، في الاثناء اقبلت على رسول الله ﷺ بعض القبائل والقوى وصالحوه على دفع الجزية، كيوحنا بن ربيعة صاحب قصبة ايله الذي صالحه على دفع ثلاثمائة دينار في كل عام كونهم من النصارى، كذلك أهل جرباء وأهل أذرح صالحوا النبي ﷺ بما تم مع أهل ايله كونهم نصارى.

(١) سورة التوبة، الآية (٨١).

(٢) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ٩٩٥؛ ابن سعد، الطبقات، ٤م، ج٢، ص ١١٩.

(٣) سورة التوبة، الآية (٩٠).

في طريق العودة تمكن المسلمون من الايقاع بأكيدر بن عبد الملك الكندي وهو ملك دومة الجندل واحد نصارى العرب، ثم أطلق سراحه وصالحه النبي ﷺ على دفع الجزية. لقد خلق وجود جيش المسلمين في هذه المناطق اجواء غير اعتيادية، فلم تكن هنالك قوة في ذلك الوقت تضاهي قوة المسلمين غير الروم، اما مراكز القوى والقبائل فلم يكن بمقدورها المواجهة، فاما انها صالحت النبي ﷺ على دفع الجزية أو انهم تفرقوا وابتعدوا عن تلك المنطقة كي لا يقع القتال بينهم وبين المسلمين ويكونوا عرضة للقتل والسبي<sup>(١)</sup>.

بعد اتمام النبي ﷺ غزوة تبوك كانت النتائج جيدة للمسلمين، فقد ساهمت الغزوة في تأديب القبائل العربية التي سبق ان اعتدت عليهم ولا سيما تلك المتحالفة مع الروم، فضلاً عن معاهدات الصلح التي عقدت مع الآخرين، فأصبحت منطقة جنوب الشام غير خاضعة لسلطة الروم ونفوذهم كما كانت في السابق، لقد دخل المسلمون منافسين لهم ومهددين لوجودهم في المستقبل.

من الاحداث المهمة التي قام بها النبي ﷺ عند عودته الى المدينة انه بعث باثنين من الصحابة وهما مالك بن الدخشم الخزرجي ومعن بن عدي للقيام بحرق مسجد ضرار وتهديمه وهو مسجد مجاور مسجد قباء انشأه بعض المنافقين قبل خروج النبي ﷺ في هذه الغزوة، ليكون وكرًا للتآمر والكيد بالإسلام والمسلمين، وقصته كما جاءت في المرويات: ان رجلاً من الخزرج يدعى أبو عامر الراهب قد تنصر في الجاهلية، فلما قدم النبي ﷺ على المدينة ونال موالاة أهلها ومحبتهم توجه أبو عامر الى مشركي مكة يدعوهم لقتال النبي ﷺ في أحد، ثم توجه الى ملك الروم يدعوهم لقتال المسلمين، وكان يتواصل مع بعض المنافقين في المدينة وهو الذي امرهم ببناء هذا المسجد على غرار مسجد قباء، الا ان النوايا والدوافع تختلف طبعاً، اراد له ان يكون مقراً للتآمر على المسلمين ومركزاً للشائعات والشبهات والنفاق، فكان الانتهاء من بنائه قبل الخروج في غزوة تبوك، وكان النبي ﷺ يعلم

(١) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ١٠٢٧، ١٠١٩، ١٠٣١، ١٠٢٨، ١٠٣٢؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٩٥٢-٩٥٣؛ ابن سعد، الطبقات، ج٤، ص ١١٩-١٢٠؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ١٠٨-١٠٩.

بالنوايا الخبيثة لتشييده، لذلك لما عاد الى المدينة ارسل مالك بن الدخشم ومعن بن عدي لحرقه وتهديمه. وكان قد نزل بحقه من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

بعد وصول النبي ﷺ الى المدينة حضر عنده المنافقون الذين تخلفوا عن الغزوة، وقدموا اعتذارهم عن موقفهم ذلك، فقبل النبي ﷺ عذرهم ووكل امرهم الى الله تعالى فهو المطلع على حقيقة سرائرهم ونواياهم. هكذا انتهت الغزوة دون ان يقع القتال بين المسلمين والروم، لقد كانت جولة مهمة استعرض فيها المسلمون قوتهم وفرضوا سلطتهم ونفوذهم على تلك المناطق الجنوبية من بلاد الشام<sup>(٢)</sup>.

بذلك يكون قد نزل من القرآن الكريم آيات عدة في المواقف التي صدرت من المسلمين على اثر قرار الخروج في غزوة تبوك ولا بد من ذكرها حتى تكون الصورة واضحة ومجمل هذه الآيات من سورة التوبة بدءاً بالآية (٣٨) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾، والآية (٣٩) ﴿إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، كذلك الحال في الآية (١٢٠) ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾، طبعاً الاعراب هنا القبائل المتحالفة مع النبي ﷺ وهم ليسوا جزءاً من منظومة المجتمع المدني لكنهم جزء من منظومة الإسلام كدولة ناشئة شملت حدودها الحجاز وما يحيطها حتى ذلك التاريخ. اذن هذه الآيات هي تكميلية لما ذكرناه من آيات سابقة تتعلق بغزوة تبوك وحادثاتها ومواقف المسلمين منها.

مازلنا في السنة التاسعة للهجرة، حتى الان تحققت جملة من الانجازات على

(١) سورة التوبة، الآية (١٠٧).

(٢) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ١٠٤٥-١٠٤٧؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٩٥٦-٩٥٧ وما بعدها ١٢٠؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ١١٠-١١١.

المستوى العسكري لدولة المسلمين الناشئة بقيادة النبي ﷺ، كما ان حجم قوة المسلمين قد تضاعف بشكل كبير عما كان عليه في السنوات السابقة، فبلغ المسلمون مبالغ عظيمة من القوة فاقت كل القوى الموجودة في منطقة شبه الجزيرة ورأينا انهم اخذوا يزاحمون مستويات القوة التي تمتلكها الامبراطوريات المجاورة.



## الفصل السابع:

# إصلاحات النبي ﷺ في المدينة

- الصوم
- المحافظة على حياة الإنسان
- المساواة بين أفراد المجتمع
- نظام الزواج الإسلامي
- زوجات النبي ﷺ وأسباب التعدد



## الفصل السابع:

### إصلاحات النبي ﷺ في المدينة

لقد بذل النبي ﷺ جهداً كبيراً في سبيل إصلاح أحوال المسلمين والتأسيس لقواعد ومناهج جديدة في السلوك والمعاملة، فضلاً عما بذله من جهود كبيرة لشرح العبادات المفروضة والتشريعات والاحكام المذكورة في القرآن الكريم وتعليمها، ولاسيما الأحكام التي كانت بحاجة إلى توضيح وتعليم ومتابعة، ولنا ان نتخيل حجم المسؤولية الكبيرة التي تصدى لها النبي محمد ﷺ، اذ لم يكن القيام بكل ذلك امراً سهلاً فالمجتمع الذي تعامل معه كان واسعاً احتوى على مستويات متفاوتة من الفهم والاستيعاب، كما ان المسؤولية كانت تقتضي منه الشرح والتعليم للنساء والرجال دون ان يقتصر الامر على نوع واحد منهم مع الاخذ بعين الاعتبار ان هنالك أحكاماً خاصة بالنساء حصراً. وبالرغم من مسألة انشغاله بالصراع مع قريش واليهود والقبائل المتحالفة معهم والقوى المعادية الاخرى في شمال شبه الجزيرة فإن ذلك لم يمنعه اطلاقاً من القيام بواجبه الكبير المتمثل بتعليم مبادئ الإسلام واحكامه وإيصال ذلك بطريقة تعليمية وتربوية عالية المستوى.

مما لا شك فيه ان الجوانب التربوية والتعليمية هي من أصعب المهام التي يقوم بها الانسان في حياته، لان البحث عن الطرائق السليمة واتباعها في تعليم مختلف فئات المجتمع المتفاوتين في مستوياتهم المعرفية وقدراتهم العقلية يحتاج الى صبر عال ومُدة طويلة لأجل تحقيق النتائج المرجوة، لذلك



نقول ان ما بذله النبي ﷺ في ميدان التعليم مع المسلمين والمسلمات لا يقل من حيث الاهمية والمشقة عما بذله في ساحات الحرب والقتال والصراع مع الاعداء.

### الصوم

من بين التشريعات المهمة في هذه المرحلة هي فريضة الصوم، اذ إن هذه الفريضة حتى الشهر الثامن عشر بعد الهجرة لم تكن قد أُقرت، بعدها جاء الأمر الإلهي بوجوب صيام شهر رمضان في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ \* أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ \* شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾<sup>(١)</sup>، لقد حددت الآيات القرآنية اختيار هذا الشهر الكريم ليكون شهر الصيام في كل عام تتجلى فيه طاعة الله تعالى بأسمى صورها، كما شمل الأمر الإلهي بهذه الفريضة المسلمين كافة فمن شهد منهم الشهر فليصمه الا من تعذر عليه الصوم لمرضه أو سفره فهو معذور في ذلك على ان يقضي ما بذمته لاحقاً. اذن هذه الآيات القرآنية حملت في طياتها حكماً تشريعياً وفريضة واجبة التنفيذ على كل مسلم ومسلمة ممن ليس لديهم اعداء.

الا ان المستشرقين واعتماداً على ما ورد في بعض المرويات الإسلامية<sup>(٢)</sup>

(١) سورة البقرة، الآيات (١٨٣-١٨٥).

(٢) البيروني، أبي الريحان محمد بن احمد (ت-٣٦٢هـ/١٠٤٨م)، الاثار الباقية من القرون الخالية، (مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٨)، ص ٣٣٧-٣٣٨؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٣، ص ١٨٤-١٨٩؛ الزرقاني، أبي عبد الله محمد بن عبد الباقي (ت-١١٢٢هـ/١٧١٠م)، شرح الزرقاني على موطأ مالك، (المطبعة الكاستلية، مصر، ١٨٦٣)، ج٢، ص ١٠٤-١٠٦.

تحدثوا عن الصوم باعتباره ممارسة قديمة تعود الى ايام الجاهلية ليست حديثة العهد ولا تعود بداياتها الى عهد النبي ﷺ في المدينة، جاء في المرويات الإسلامية ان النبي ﷺ قبل البعثة كان يصوم يوم عاشوراء، كما ان قريشاً كانت تفعل ذلك فلما اصبح الصيام فريضة على المسلمين لم يجبرهم النبي ﷺ على صوم عاشوراء انما خيرهم في ذلك، لهذا تُشير هذه المرويات الى ان هذه الممارسة العبادية عند المسلمين تعود جذورها الى ما قبل الإسلام!!.

هذه الاخبار التي اعتمد عليها بدرجة عالية معظم المستشرقين وجدنا انها تحمل دوافع واضحة لتحويل يوم عاشوراء من مناسبة للحزن واستذكار الجريمة المروعة التي ارتكبتها بنو امية بحق اهل بيت النبوة في كربلاء الى مناسبة فرح بحجة إحياء سنة النبي ﷺ وهي صوم هذا اليوم، هذا التحول في المعنى والخصوصية لهذا اليوم لاشك انه أسهم كثيراً في دعم الوضع السياسي القائم آنذاك واصحاب السلطة في العصر الاموي لان يوم عاشوراء حينما يكون يوماً حزيناً تستذكر فيه احداث كربلاء ومقتل الامام الحسين بن علي عليه السلام يختلف عنه حينما يكون يوماً قائماً على الصوم احياءاً لسنة النبي ﷺ في ذلك.

اما ما يتصل باليهود هنا فانهم كانوا يصومون يوم عاشوراء، وكانت هذه الممارسة احدى الفروض التي التزموا بها ولكن بعض المستشرقين حاولوا ان يربطوا بين الصوم اليهودي والصوم الإسلامي مستندين إلى ان الشريعة اليهودية قد سبقت الشريعة الإسلامية بكثير، فانطلاقاً من حالة السبق هذه والاحتكاك والقرب والمجاورة بينهما في المدينة جاء بعض المستشرقين ليقولوا إن الإسلام ما هو الا دين مقتبس من اليهودية أو النصرانية بدليل انك تجد ان فريضة الصوم عند المسلمين جاءت محاكاة لفريضة الصوم عند اليهود واقتباساً منها أو تقليداً لها<sup>(١)</sup>،

(١) من ابرز المستشرقين الذين قالوا بشأن الصوم انه مقتبس من اليهود هو المستشرق جولد تسيهر بقوله: «لقد كان يطلب من المسلمين ان يكونوا من المتقين؛ لكن هذه التقوى كانت تبدو في شكل شعائر عملية زهدية كما كان الحال لدى اليهود ولدى المسيحيين... وفي شكل امتناع اختياري عن الطعام والشراب (الصوم)» ينظر: العقيدة والشريعة، ص ١٧؛ كما ذهب مع رأي جولد تسيهر المستشرق البريطاني بودلي الذي تحدث عن النبي محمد ﷺ قائلاً: «تقرب من اليهود مستعيناً بأسفارهم،... فطبق الصوم والاعباد في دياناته الجديدة وفق =

متناسين المسألة الأكثر أهمية وهي ان فريضة الصوم أو غيرها من الفروض العبادية التي فرضت على اليهود انما هي مرتبطة بإرادة الله تبارك وتعالى ولم تكن من بنات افكار اليهود انفسهم ولم تكن من نتاج تفكيرهم بل كانت امراً الهياً فرض عليهم.

اذن هذه الفريضة مصدرها الله تعالى وليس اليهود، فاليهودية هي شريعة واحدة من بين كل الشرائع السماوية التي بعثها الله تعالى. ومن ثم فلن يكون لها الفضل والسبق في اي ممارسة عبادية تحصل في شريعة لاحقة جاءت بعدها، لان الشرائع السماوية جميعها من منبع واحد ومصدر واحد وهي جميعها تشكل دين الله تعالى الواحد الذي لا يحتوي على تقاطع أو اختلاف. فالصوم اليهودي جاء بأمر الله تعالى والصوم الإسلامي جاء بأمر الله تعالى وليس لاحدهما فضل على الآخر، وبذلك لا قيمة لهذه الاراء الاستشراقية التي تحدثت عن استقاء المسلمين واقتباسهم أو تقليدهم صوم اليهود.

لقد طبقت فريضة الصوم منذ العام الثاني للهجرة واستمرت حتى يومنا هذا، ولكن النص القرآني الذي اشار الى الصوم لم يحتو على تفاصيل كثيرة كان المسلم بحاجة الى معرفتها، لذلك فان احكام الصوم وتفصيلاته اخذت من النبي ﷺ الذي كان يعلم الناس كل ما يرتبط بتلك الفريضة وغيرها ويجيب عن أسئلتهم واستفساراتهم حتى تكاملت لديهم الصورة بشكل واضح.

### المحافظة على حياة الانسان

وقع على عاتق النبي ﷺ مهام متعددة غير التبليغ الديني والدعوة إلى الإسلام والصراع العسكري والصراع الفكري وغيرها، لقد عمل على اصلاح المجتمع وتغيير مساراته من حيث السلوك والمعاملة والعلاقات الاجتماعية. ان تحقيق مستويات عُلّيا من الالتزام بالفروض العبادية كان يجب ان يرافقها عملية تصحيح

= نظامهم» ينظر: حياة محمد، ترجمة محمد محمد فرج، (مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٨٩)، ص ٨٥-٨٦. فضلاً عن اراء اخرى مماثلة لرأي جولدتسيهر وبودلي حول الصوم من قبل مستشرقين اخرين ولكن نكتفي بهذا القدر من النصوص كتوضيح للمسألة من وجهة نظر المستشرقين.

متكاملة في المنظومات الاخلاقية والسلوكية في داخل المجتمع، فالممارسات الخاطئة التي كان عليها المجتمع قبل الإسلام كان لابد للنبي ﷺ ان يبذل جهداً مضاعفاً لإزالتها والقضاء عليها والمجيء بممارسات اصلاحية جديدة تنسجم وطبيعة الشريعة الإسلامية على وفق مبادئ العدالة والمحبة والتسامح. من بين هذه الإصلاحات التي غرسها النبي ﷺ في داخل المجتمع الإسلامي هي (المحافظة على حياة الانسان).

لقد أولى النبي ﷺ عنايته بحياة الانسان وحفظ كرامته في المجتمع من خلال أقواله وأحاديثه المؤكدة على ضرورة حماية الانسان وحفظ حياته، المستنبطة والمستمدة من الآيات القرآنية التي اشارت إلى قيمة الانسان وحياته ونهت على فداحة التجاوز على النفس البشرية، كما انها حددت مجموعة من الضوابط والمحرمات كمعالجات اصلاحية في داخل المجتمع ستعرض لها بالتفصيل.

حياة الانسان في المجتمع الجاهلي لم تكن محفوظة ومحمية ولم يكن هنالك قانون عادل أو ضوابط واضحة تؤدي الى ردع المعتدين عنه، ما أسهم وبدرجة عالية في استمرار حالات التجاوز وإراقة الدماء، الرادع الوحيد كان القوة التي ينتمي اليها الفرد: قبيلته وابناء عمومته، هؤلاء هم القوة التي يستند عليها للحصول على الحماية، ولكن هذا الامر مرتبط بحجم قوة القبيلة قياساً للقبائل الاخرى.

ان منطق القوة الذي حكم المجتمع العربي في تلك الحقبة أسهم كثيراً في تعزيز اشكال الظلم والاستغلال، بل عمل على اراقة المزيد من الدماء البريئة تحت عنوان الثأر والانتقام. وهكذا فان القوة التي قد تحقق الحماية للإنسان قد تدفعه في الوقت نفسه نحو ظلم الآخرين والتجاوز على حياتهم وممتلكاتهم، ففي ظل هذه الظروف لم يكن للعدالة الاجتماعية أي وجود ولم يكن للإنسان أي قانون يسهم في المحافظة على حياته وحمايته وحماية ممتلكاته، لذلك كانت الضرورة كبيرة الى اجراء اصلاح اجتماعي عاجل لمعالجة هذه المشكلة.

كانت البداية في بيان فداحة هذه الجريمة التي تطال حياة الانسان وحجمها عند الله تعالى بقوله: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ

النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّهُ أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا... ﴿١﴾، لقد وضعت هذه الآية الكريمة المجتمع الإسلامي إزاء تصور جديد لم يكن مألوف أو مطروح من قبل، فالآية لم تحدد أي نفس تلك التي ان تم قتلها فان ذلك الفعل يساوي إبادة المجتمع بكامله، الآية الكريمة لم تحدد هذه النفس: هل هي النفس التي صاحبها من اهل الثروات الطائلة أو ان صاحبها من اهل الأنساب العريقة والشريفة؟ ان المفهوم الجديد الذي طرحته الآية القرآنية هنا جعل النفس البشرية واحدة متساوية في القيمة بغض النظر عن العرق واللون والنسب وهذا خلاف ما كان سائداً عند العرب قبل الإسلام. ثم حدد الله تعالى قدسية هذه النفس البشرية وحرمة السعي لهلاكها، بل حذر من يريد الاقدام على هذا الفعل من إن قتله لنفس بشرية واحدة يعادل قتله للناس جميعاً.

في آيات أخر أشار الله تعالى الى طبيعة ونوع العقوبة التي سيتلقاها من يقوم بهذا الفعل، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٢)، يظهر هنا حجم العقوبة والسخط الإلهي من خلال الإشارة الى الخلود في جهنم وتحصيل غضب الله تعالى والعذاب العظيم الذي أعدّه له. هنا تضع هذه الآيات القرآنية المسلم امام صور واضحة، ومن الطبيعي انه لن يتجرأ على فعل ذلك بسهولة كما كانت الأحوال قبل الإسلام، لقد أصبحت الروادع كبيرة مما أسهم مع اجراءات أخر لحفظ النفس البشرية وحمايتها.

اما ما يتعلق بذوي القتل فالمسألة هنا كانت تأخذ ابعاد خطيرة جداً مهددة للسلم المجتمعي، لانهم كانوا وفق مبدأ الثأر يسعون بكل ما أوتوا من قوة للفتك بمن ارتكب القتل هو وكل من له صلة قري به، بل انهم في بعض الاحيان لا يكتفون بقتل قاتله بل يزيّدون على ذلك، لاسيما اذا كان المقتول شيخ عشيرة أو شاعر أو رجل مهم في قبيلته، فكانوا لا يكتفون بقتل رجل واحد أو اثنين أو ثلاثة، في بعض

(١) سورة المائدة، الآية (٣٢).

(٢) سورة النساء، الآية (٩٣).

الحالات يصل الامر إلى ان يقتلوا عشرة رجال ثأراً لمقتل رجل واحد. لذلك جاء الاصلاح الإسلامي بجملة من الضوابط العادلة والمنصفة لطرفي النزاع، وحددت ضوابط دقيقة وعادلة لذوي المقتول لضمان تطبيق العدالة الاجتماعية واستمرارية السلم المجتمعي، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾<sup>(١)</sup>، تختزل هذه الآية القرآنية مجموعة من الضوابط الخاصة بذوي القتيل: ﴿فجعلنا لوليهِ سلطاناً﴾ فلا يسرف في القتل، هذا نداء إلهي واضح لا لبس فيه لذوي القتيل عليهم ان لا يسرفوا ولا يبالغوا في القصاص، فالقصاص جائز وهو غير محرم ولكن القصاص العادل الخال من الإسراف والمبالغة خلاف ما كان يقع في الجاهلية من المبالغة والتجاوز في الثأر والانتقام، مما يولد ردود افعال عنيفة لدى طرف النزاع الثاني، عندها لن يتوقف العداء والنزاع وسفك الدم. لذلك فإن الله تعالى وضع الضوابط لذوي المقتول اهمها: ان لا يبالغوا ولا يسرفوا في القصاص من مرتكب الجريمة. ولعله من الافضل تحديد هذه الضوابط الواردة في الآية القرآنية السابقة والآية القرآنية التي سنأتي على ذكرها لاحقاً ليتسنى لنا معرفة القيمة الحقيقية للتشريع الوارد فيهما والتأثير الايجابي الكبير على واقع المجتمع الإسلامي:

**الضابط الاول:** من أرتكب جريمة القتل هو المسؤول الوحيد الذي يجب الاقتصاص منه، اما من ينتسب إلى هذا القاتل من إخوته وابناء عمومته وابناء قبيلته غير مسؤولين عما اقترفه من جريمة في الشريعة الإسلامية، وعلى هذا الاساس فليس لذوي المقتول ان يتعرضوا لأي فرد غير القاتل، فهو الوحيد المسؤول عما اقترفه من جريمة، يُطلب الثأر منه ويتم الاقتصاص منه ولا يجوز التجاوز على اي نفس بشرية اخرى من اهل الصلة والقربى بالقاتل، اذ تبقى النفس البشرية محترمة ومقدسة ولها حرمتها عند الله تعالى.

**الضابط الثاني:** الأمر الإلهي بعدم الإسراف بالقصاص يشمل كذلك القاتل،

(١) سورة الأسراء، الآية (٣٣).

فعدم الإسراف في القتل معناها مع جواز القصاص من صاحب الجريمة لا يجوز القيام بتجاوز حدود الجريمة والمبالغة في القصاص كالتمثيل بالجملة أو المبالغة في طريقة القتل، لأن ذلك ان وقع سيؤدي الى شعور الطرف الآخر بالظلم وعدم الرضا ما يدفعه إلى الانتقام أو استمرار الكراهية والأحقاد. الإسلام بتشريعاته اراد ان يطفى النار بين الاطراف المتخاصمة في المجتمعات البشرية ويقضي على مشاعر الحقد والكراهية والعداء بينهم، عن طريق ما قدمه من معالجات تحقق الرضا والقبول لطرفي النزاع والشعور بالعدالة والإنصاف للجميع.

لعله من المفيد الإشارة الى ان أفضل من التزم بهذا التشريع وقدم لنا مثلاً رائعاً في التطبيق العملي هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فعند اصابته البليغة وفي ساعات حياته الأخيرة حين تعرض لضربة غادرة على رأسه الشريفة من اللعين عبد الرحمن بن ملجم وهو في محراب الصلاة في الثامن عشر من شهر رمضان سنة (٤٠) أربعين للهجرة في مسجد الكوفة، اذ أوصى أبناءه وأصحابه بعد ان القوا القبض على المجرم اللعين ان يحسنوا معاملته حتى ينظر في امره ان بقي على قيد الحياة، اما ان توفاه الله تعالى فعليهم ان لا يبالغوا في القصاص ولا يسرفوا انما ضربة بضربة<sup>(١)</sup>، لاحظ هذه الكلمة البليغة التي تداولتها ألسن كثيرة ومرت عليها اجيال واجيال دون ان يلتفتوا الى معنى كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يُشدد على عدم الاسراف في تطبيق العقوبة (ضربة بضربة) قال ذلك وهو على فراش الموت والدماء تسيل من رأسه الشريف التزاماً منه وحرصاً على تطبيق دقيق للتشريع الإلهي، الامام لم يكن منشغلاً بحاله في تلك اللحظات الاخيرة من حياته بقدر ما كان يولي اهمية كبيرة لحسن تطبيق شريعة الله تعالى ولو على نفسه، لقد جاء تأكيدُه الالتزام بالحكم الشرعي في القصاص لمعرفة حرارة المشاعر والألم الكبير الذي سببه هذا الفعل الجبان لأبنائه ومحبيه، فأراد ان يذكرهم وينبههم على ضرورة الالتزام بالحكم الشرعي وعدم تجاوزه.

**الضابط الثالث:** مع اتساع رقعة المجتمع الإسلامي فإنه من الطبيعي ان تقع حالات

(١) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٢١٢؛ ابن الاثير، الكامل، ج٣، ص ٢٥٦-٢٥٧.



قتل وإزهاق للنفس البشرية من النوع الغير مُشار اليه في الآيات السابقة، القتل غير المتعمد كما هو الحال اليوم في حوادث السيارات حينما تحصل حالة دعس وتؤدي الى مقتل احدهم من دون عمد أو قصد. هذا القتل غير المتعمد قد يمثل حالة تقصير وإهمال، فالمجتمع الإسلامي الاول كانت تقع فيه هكذا حوادث مماثلة، من يعتلي صهوة الفرس ويجوب القبائل والمدن يسلك الدروب والطرق التي تسير عليها العامة، قد يكون سبباً في دعس نفس بشرية بسبب تهور وسرعة أو عدم انتباه كما هو حالنا اليوم، فينطبق عليه هذا الوصف (قتل المؤمن غير المتعمد). ان وقوع حوادث من هذا القبيل في الجاهلية كانت تؤدي الى مشاكل كبيرة بين القبائل وإراقة دماء غزيرة، فالقبول بالدية لم يكن امراً مُستساغاً في المجتمع الجاهلية، وكان يشمل الفئات المستضعفة فقط وهم غير القادرين على اخذ الثأر بأيديهم، كانوا يقبلون بالدية مرغمين في اغلب الأحيان، لان المفاهيم السائدة في ذلك العصر كانت تقوم على ان: الحليب لا يساوي الدم. في اشارة واضحة الى ان الحليب هو القيمة المادية التي تمثل مقدار الدية والتي عادة ما كانوا يسلمونها على هيئة عدد من النوق، اما الدم فيشير الى الضحية والشخص الذي قتل. فجاءت الآية (٩٢) من سورة النساء لتستكمل الاصلاح الإسلامي في هذا الموضوع من خلال قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾، إذ أجاز الله تبارك وتعالى فيها القبول بالدية، وشجع وحث على ذلك بغية فض النزاعات بين الافراد والقبائل بالطرق السلمية، وإحلال السلام بين الاطراف المتنازعة في داخل المجتمع. لقد رافق هذا التشريع احاديث نبوية كثيرة تشجع المسلمين على قبول الدية، لان ذلك يشجع على إشاعة روح الصلح والتراضي والوثام بين أبناء المجتمع وهذا ما يريده الله تعالى ليتحول المجتمع الإسلامي الى مجتمع مسالم صالح لا تنتشر فيه النزاعات والصراعات كما هو حالنا اليوم.



في واقع الأمر هناك نصوص قرآنية أخرى تُقدم تفصيلات أكثر في المعالجات وتنظيم حل المنازعات المتعلقة بهذا الموضوع يكفينا منها هذا القدر الذي عرضناه لنؤكد على أن الله تعالى شدد على حرمة النفس البشرية، ثم وضع المعالجات بما يضمن المحافظة على السلم الأهلي. لقد أسهم هذا كله مساهمة كبيرة في تحول المجتمع الإسلامي إلى مجتمع منضبط أو على أقل تقدير أكثر انضباطاً مما كان عليه في حياة الجاهلية.

### المساواة بين أفراد المجتمع

إن إشاعة روح المساواة بين أفراد المجتمع الواحد والتعامل بين فئاته وطبقاته من دون تمييز كانت من بين أهم الإصلاحات الإسلامية التي رسخها النبي محمد ﷺ وأسس قواعدها في مراحل دعوته. لقد كان المجتمع الجاهلي منقسماً إلى طبقات كثيرة من بينهم الفقراء والعبيد الذين لم تكن لديهم أموال تمكنهم من الحصول على حياة كريمة أو الذين لم يملكوا حتى انفسهم يباعون ويشتررون في الأسواق وهؤلاء هم الطبقات الدنيا في المجتمع الجاهلي، فلما جاء الإسلام عمل على ردم تلك الفجوات بين الطبقات الاجتماعية وبث روح المساواة بين أبناء المجتمع عن طريق مجموعة من التشريعات والوصايا.

سيكون الحديث هنا عن العبيد وكيف تعامل معهم الإسلام. ربما يسأل أحدهم لماذا لم يحرم الإسلام هذا التعامل مع فئة كبيرة من المجتمع عرفوا باسم العبيد؟ مع أن التشريعات القرآنية تهدف إلى نشر العدالة الاجتماعية وإزالة الظلم من داخل المجتمع!!

الإسلام لم يقبل بالمعاملة التي كان العبيد يتلقونها في الجاهلية، ولكنه في الوقت نفسه سمح بوجودهم في المجتمع الإسلامي، اعتقد أن ذلك السماح كان حالة مؤقتة إلى حين تمكن الإسلام من التحول إلى دولة تنضوي تحت لوائها جميع القبائل العربية فتنتهي حيثئذ الأسباب المؤدية إلى أسر الناس واستعبادهم، لأنهم أصبحوا جميعاً أبناء مجتمع واحد تحت لواء دولة واحدة.

كما ان عملية تهيئة المجتمع الى التعامل الانساني مع افراد هذه الطبقة لم يكن بالأمر الهين، فالمجتمع الذي عاصر النبي ﷺ بحاجة الى وقت وجهد كبيرين وتشريعات متعددة لإيصاله الى مرحلة الشعور بان الجميع سواء أحراراً كانوا أم عبيداً في كيان دولة المسلمين، ومن بين هذه التشريعات القرآنية التي أسهمت في اذابة الفوارق وردم الفجوات بين العبيد والاحرار ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ ۖ وَلَآئِمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۚ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۚ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝﴾<sup>(١)</sup>، يتضح من هذه الآية الكريمة ان الله تبارك وتعالى ينهى المؤمنين عن الزواج والنكاح من المشركات حتى وان كان ذلك مقروناً بحالات الاعجاب والحب، ويرغب المؤمنين ويشجعهم ويدعوهم الى الزواج من المملوكات (الإماء)، فالحسب والنسب الذي قد تتمتع به المشركة ليس له اي قيمة توازي قيمة الايمان الراسخ في قلب الأمة المملوكة عند الله تعالى. كذلك دعا الله تعالى المؤمنات إن لا ينكحن المشركون وإن كانوا من أصحاب الجاه والاموال والجمال، فالعبد المؤمن خير من مشرك مهما كانت الفوارق المادية والنسبية، لان الله تعالى يفضل العبد المؤمن على المشرك وهذه حقيقة جاءت في حالات الترغيب والتحفيز.

ان علاقة الزواج هي من اكثر العلاقات الإنسانية التي بالإمكان ان تسهم في اذابة الفوارق وازالتها، وتساوي بين الزوجين أياً كان انتماء كل منهما، لذلك جاء التأكيد الإلهي في مسألة الترغيب في الزواج والمصاهرة على هذا الامر، ثم أسهم النبي ﷺ في تثبيت هذه الدعوة الالهية وتطبيقها فكان اول من بادر في الزواج من نساء مملوكات ليشجع باقي المسلمين على الاقدام بالزواج من النساء المؤمنات المملوكات<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة البقرة، الآية (٢٢١).

(٢) كما في زواجه النبي ﷺ من مارية القبطية، ينظر: ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٥، ص ٢٥١؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ١٧٧.

جاء في بعض النصوص القرآنية والاحاديث النبوية تشجيع للمسلمين على حسن التعامل مع افراد هذه الطبقة البسيطة من المجتمع، ففي قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ...﴾<sup>(١)</sup>. فان الله تعالى جعل على المسلم الذي ارتكب بعض الاخطاء ان يكفر عنها ببعض الاعمال الصالحة كعتق رقاب العبيد المؤمنين فيقوم بدفع ثمن حريتهم تكفيراً عن اخطاءه.

كما كانت للنبي ﷺ وصايا كثيرة ومهمة في حسن معاملة هؤلاء وعتق رقابهم فمن اقواله: أيما رجل اعتق امراً مسلماً استنقذ الله به كل عضو منه من النار. وعرف عن النبي ﷺ انه كان ينصح من اصيب بمرض أو مصيبة ان يتقرب الى الله تعالى بعتق رقبة مؤمنة. ومن اقواله كذلك في العبيد مخاطباً الناس: «اخوانكم جعلهم الله تحت ايديكم، فمن كان اخوه تحت يديه، فليطعمه مما يأكل، وليكسسه مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه»<sup>(٢)</sup>.

ان هذه الوصايا النبوية وتلك النصوص القرآنية أسهمت في ان ترتقي هذه الطبقة من المجتمع من منزلة دنيا الى مرتبة مناسبة تساويهم بالآخرين. لقد شعروا بقيمة انفسهم تحت ظل الشريعة الإسلامية في عهد النبي ﷺ وفي ظل هذا الجو الإيماني الذي كان يسير اتجاه العدالة والانصاف.

إن التعامل مع المملوكين في المجتمع الإسلامي كان مقدراً له ان يمر بمراحل متعددة لا يمكن ان يمضي بمرحلة انتقالية واحدة، فالمجتمع آنذاك تعامل مع العبيد واستملاكهم كجزء من ثقافة وسلوك لنمط الحياة القائمة على ذلك النحو، لا يمكن ان تتم عملية التحول بشكل سريع ضمن مرحلة واحدة، من

(١) سورة المائدة، الآية (٨٩).

(٢) ابن مسلم، أبي الحسين مسلم بن الحجاج (ت-٢٦١هـ/٨٧٥م)، صحيح مسلم، (دار الفكر، بيروت، د. ت)، ج٥، ص٣١٧-٢١٨، ٩٤-٩٤؛ الترمذي، سنن، ج٣، ص٢٠٥، ح (١٥٤٧)؛ السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الارنؤوط واخرون، (دار الرسالة العالمية، دمشق، ٢٠٠٩)، ج٧، ص٤٦٦-٤٦٧.

خلال تشريع قرآني يحول العبيد الى احراراً دفعةً واحدة، بلا شك فان المجتمع لن ينجح في هذه الانتقالة ولن يتفاعل بايجابية كاملة مع هذا التشريع، لهذا اظن ان المسألة كانت تتطلب المرور بمراحل كثيرة لإنهاء وجود العبيد في المجتمع، تتجاوز هذه المراحل في حدودها الزمنية عهد النبي محمد ﷺ، لان عهده لم يشهد اكتمال شكل الدولة وتكامل رقعتها الجغرافية، هذا التكامل في الشكل والمساحة تحقق في العصر الراشدي. إذ اصبحت حدود دولة المسلمين تشمل العراق والشام ومصر فضلاً عن شبه الجزيرة العربية، ثم اتسعت اكثر من ذلك فلم يعد مفهوم القبيلة وثقافتها سائداً في ظل هذه الدولة، ووفقاً لهذا المعنى فان الرقعة الجغرافية الموحدة الخاضعة لحكم المسلمين التي يعيش على ارضها مجتمع إسلامي واسع تصدق عليه تسمية الدولة تجاورها وتنافسها دول أخرى، ينبغي أن يصبح فيه مفهوم الصراعات القبلية والاقتيال القبلي الذي يؤدي الى وقوع أسرى واستعبادهم جزءاً من الماضي، بل من واجب الدولة الإسلامية التي تنشأ العدالة ان لا يكون فيها اي وجود لهذا الشكل من اشكال سلب الحرية والاستعباد.

هذه على اقل تقدير الرؤية التي اجدتها مناسبة ومنطقية لمسار العدالة الاجتماعية التي جاء بها الإسلام، ولكن هذا التطور في التعامل مع العبيد كان بحاجة الى قيادة تمتلك الرؤية والمعرفة وتقوم بهذا العمل، المشكلة ان الصحابة الذين تولوا الخلافة بعد النبي ﷺ لم يستمروا بخطة الاصلاح والمعالجة للقضاء على وجود العبيد كطبقة في المجتمع وتحويلهم جميعاً الى ان يكونوا احراراً، لذلك وقعت حالة من التراجع الكبير على واقع المجتمع الإسلامي ليشهد في العصور الإسلامية اللاحقة (الاموية والعباسية) صورة مأساوية اسوء بكثير مما كان عليه الحال في الجاهلية، فعملية استعباد الناس واستملاكهم ظهرت بالوان وصور مخزية بكل ما في كلمة استعباد من معنى، وهذا التراجع ليس بسبب التشريعات الإسلامية انما بسبب الممارسات الخاطئة لمن تولى الحكم والسلطة في دولة المسلمين على اختلاف العصور.

## نظام الزواج الإسلامي

لابد من مقدمة بسيطة فيما يخصّ تقاليد الزواج وانظمته التي كانت قائمة قبل الإسلام، لأجل فهم الفارق الكبير بين ما كان في الجاهلية من جهة وبين ما حققه الإسلام من اصلاح في نظام الزواج من جهة أخرى. اذ تورد الكتب والمصادر التاريخية ان العرب لم يكونوا على طريقة واحدة للزواج، بل كان المجتمع يطبق اكثر من طريقة بحسب ما اعتادت عليه القبيلة واصبح جزءاً من ممارسات ابنائها المقبولة، فالقبيلة كانت منظومة اجتماعية قائمة بذاتها تسودها الممارسات المقبولة من افرادها، مما قد يسهم ذلك في حصول التباين والاختلاف في انظمة الزواج بين قبيلة واخرى.

النظام الاكثر شيوعاً للزواج في الجاهلية كان زواج الرجل بالمرأة بشكل علني بعد خطبتها وموافقة ذويها، كما ان الابناء كانوا ينسبون الى اسم الاب، وكانت لدى العرب في الجاهلية انظمة زواج اخرى غير ما ذكرناه. فهناك إشارات تاريخية الى وجود حالات الجمع بين الاختين في الجاهلية بالرغم من ان هذا الأمر محرم في الشرائع السماوية التي سبقت الإسلام، فقد ذكر ان اول من جمع بين الاختين من قريش ابو احيحة سعيد بن العاص جمع بين هند وصفية ابنتي المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، كما كان هنالك نوع آخر من الزواج وهو الزواج من زوجة الاب المتوفي. فضلاً عن انواع آخر من الزيجات يصل عددها الى عشرة انواع، كزواج البعولة وزواج الشهر وزواج الضيزن وزواج الاستفضاء وزواج المخادنة وزواج الرخط وزواج البغايا وهن صاحبات الرايات<sup>(١)</sup>.

إزاء هذا السيل من اشكال انظمة الزواج وانواعها التي كانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية بنسب متفاوتة بين منطقة واخرى. جاء الإسلام بنظام متزن للزواج واضح المعالم والحقوق يؤدي تطبيقه الى صلاح المجتمع. إذ إنّ عملية إصلاح

(١) البغدادي، أبي جعفر محمد بن حبيب (ت-٢٤٥هـ/٨٥٩م)، المحبر، تحقيق: ايلزه ليختن شتير، (دار الافاق الجديدة، بيروت، د. ت)، ص ٣٢٥-٣٢٧؛ الشهرستاني، أبي الفتح محمد بن عبد الكريم (ت-٥٤٨هـ/١١٥٣م)، الملل والنحل، تحقيق: أحمد فهمي، (دار الكتب العلمية، ط ٢، بيروت، ١٩٩٢)، ص ٦٩١.

المجتمع لابد ان تبدأ من إصلاح الأسرة ونظام تشكيلها عن طريق ايجاد التشريعات المناسبة لتحقيق ذلك، فكانت البداية مع تحديد المحرمات من النساء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا \* حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْنَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾<sup>(١)</sup>، يبدو ان الجمع بين الاختين ونكاح زوجة الاب المتوفي هي من الحالات الموجودة داخل المجتمع الجاهلي، فجاء التأكيد القرآني على حرمتها في هذه الآيات، والا لماذا هذا الاختصاص وهذا التأكيد!! لقد كانت الآيات واضحة وصريحة في تحديد المحرمات، فأصبح المسلم على بينة من أمره على وفق إطار تشريعي محدد.

التحريم هنا لهذه الاصناف المذكورة من النساء لم يكن هو الاصلاح الكامل لنظام الزواج الإسلامي، إنما هو جزء من هذا النظام، ثم تعززت هذه الخطوة بخطورة ثانية تمثلت بتحديد عدد الزوجات، بعد ان كان الرجل غير محدد بعدد معين من النساء، كلما كان اكثر مالا أو مكانة اجتماعية أو حبا للنساء وجدناه يحدد في نسائه دون اي حدود معينة. لقد شكل هذا الأمر انتهاكا واضحا للمرأة وحقوقها، فمسألة ان يجمع الرجل تحت يده عدد ما استطاع من النساء دون اي تحديد أمر لا يؤدي الى بناء أسرة صالحة، ومن الطبيعي أن لا ينتج من ذلك مجتمع صالح، ولا يُعرف على وجه الدقة التاريخ الذي نزل به التشريع القرآني لتحديد التعدد في الزوجات، بالرغم من وجود إشارات غير مقنعة إلى ان ذلك حصل بعد معركة احد وتحديداً مع بداية العام الرابع للهجرة، الا إننا نظن ان هذا التشريع وعملية تطبيقه والالتزام به كانت في السنوات الخمس الأخيرة من بعد الهجرة.

(١) سورة النساء، الآيات (٢٢-٢٣).

ان ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ وَتِلْكَ وَرُبْعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾<sup>(١)</sup> تمثل لب النظام الإسلامي في الزواج، إذ قد تبدو الآية الكريمة في شكلها العام الظاهري انها قد اجازت للرجل وسمحت له بهذا الامتياز الكبير على حساب المرأة وحقوقها وقيمتها الانسانية ومكانتها داخل المجتمع، ان السماح للرجل في ان يُعدد في زوجاته حتى أربع نساء في الظاهر انها امتياز للرجل وحرمان للمرأة. ولكنها في الواقع عملية معالجة عادلة لحالة الانفلات والفوضى داخل المجتمعات الإنسانية. إن هذا التحديد اوقف حالة الانفلات في عدد الزيجات التي كان البعض يمارسها ويسبب من خلالها مشاكل اجتماعية كبيرة، لقد كان لبعض الصحابة والمسلمين ما يقرب من عشر زوجات، الا ان التشريع الإسلامي الجديد الزم جميع المسلمين بان لا يتجاوز الرجل منهم أربع زوجات، وممكن له أن يكتفي بواحدة أو اثنتين أو ثلاث.

إن المفارقة البارزة هنا في هذا التشريع والتي تمثل اللطف الالهي بيني البشر، انها لم تظهر بشكل صريح في النص القرآني الذي اجاز التعددية وحددها بأربع نساء، انما يمكن استنباطها وبوضوح من المرونة العالية والمساحة الكبيرة التي وردت في النظام، فالحرية الممنوحة للرجل في التعددية هنا تتوقف أو تمارس على نطاق ضيق أو انها تُطلق بالكامل متى ما شاء المجتمع ذلك، فالمجتمع اذن هو المتحكم بها وفقاً لظروفه، يوقفها أو يسمح بها على نطاق ضيق حين تكون اعداد النساء مساوية لأعداد الرجال فيه فليس هنالك اي حاجة للسماح بالتعددية، وهو كذلك يسمح بها ويُطلقها دون أية قيود حين تكون اعداد النساء كبيرة جداً وتغلب اعداد الرجال. إذن التشريع القرآني هنا في ظاهره سمح للرجل هذه الممارسة المحددة بأربع نساء، ولكنه قيدها بقيود تزيد أو تنقص انسجاماً مع ظروف المجتمع.

ان التشريع الإسلامي للزواج لم يجعله الله تبارك وتعالى خاصاً بالمجتمع الذي

(١) سورة النساء، الآية (٣).

عاصر النبي ﷺ أو بالمسلمين كافةً على اختلاف العصور والازمنة، انما وضعه الله تعالى للإنسانية جمعاء وهو صالح لكل المجتمعات باختلاف ظروفهم، لأنه تضمن المرونة الكافية لمعالجة اي فروقات بين ظروف المجتمعات الانسانية وأحوالها ولو كانت كبيرة جداً.

إذن كيف يكون صالحاً لكل المجتمعات ولكل العصور؟ ان المجتمعات الانسانية التي تنتمي لعصور مختلفة وجغرافيتها كذلك مختلفة فان ظروفها مختلفة كذلك، قد يحصل التشابه بين مجتمع وآخر، وقد تجد ثمة اختلاف كبير بين مجتمع وآخر، وهذا امر طبيعي جداً، ان مجمل هذا الاختلاف يؤدي الى اختلاف واضح في التركيبة السكانية لكل مجتمع، اختلاف في عدد النساء مقارنةً بعدد الرجال. ان الظروف القاسية التي قد يتعرض لها مجتمع ما كالحروب والكوارث قد تؤدي الى فارق كبير في عدد نسائه قد يصل الى ما نسبته (٧٠٪) سبعون بالمائة في مقابل (٣٠٪) ثلاثين بالمائة من عدد رجاله، وهذا الخلل الواضح في التركيبة السكانية لهذا المجتمع يفرض نفسه كواقع مرير ومشكلة اجتماعية كبيرة لا يمكن معالجتها الا عن طريق التشريع الإسلامي، الذي سبق ان اكدنا على انه فيه من المرونة ما يسمح لمعالجة مثل هذه المشكلة، ومن ثم فان هذا المجتمع صاحب المشكلة مع خضوعه للتشريع الإسلامي سيسمح للرجال بالقيام بالتعدد في الزيجات بدرجة تقضي على نسبة عالية من عدد النساء المعطلات عن الزواج.

استكمالاً للفكرة السابقة، هناك مجتمعات إنسانية تعيش في ظروف طبيعية مستقرة وتمتلك تركيبة سكانية متوازنة ومتقاربة جداً بين عدد النساء وعدد الرجال، فنسبة النساء فيها قد تصل الى (٥٠٪) خمسين بالمائة، في مقابل (٥٠٪) خمسين بالمائة من الرجال، فإزاء هذا التوازن في الاعداد مع تطبيق التشريع الإسلامي سنلاحظ ان المجتمع نفسه لن يدعم فكرة التعددية ولن يسمح بالتعامل بها، ذلك ان اعداداً كافية من الرجال موجودة داخل هذا المجتمع فلماذا الاضطراب والموافقة من النساء على التعددية، لذلك سنجد ان القيود على حرية التعدد ستكون موجودة وبقوة يضعها الاب والاخ والمرأة نفسها، اما التشريع الإسلامي فلن يتقاطع مع



هذه القيود لأنه اُجاز للرجل الزواج من واحدة كما انه اُجاز له التعددية، لذلك الاكتفاء بواحدة لا يتقاطع مع طبيعة هذا التشريع اطلاقاً.

لربما يرد تساؤل مشروع هنا: لماذا نفترض الزيادة في عدد النساء مقابل عدد الرجال دائماً، الا يمكن تصور مجتمع يفوق فيه عدد الرجال عدد النساء وبفارق كبير؟

في الواقع لا يمكن حصول ذلك، المجتمعات في العادة اما تحدث فيها الزيادة في عدد النساء وبنسب مختلفة بحسب المجتمع وظروفه، واما ان لا تكون هنالك أية زيادة فالنسب متساوية بين عدد النساء وعدد الرجال، ومن ثم فان عدد الرجال في افضل الاحوال والظروف سيكون مساوياً لعدد النساء، ولن يكون اكثر من عدد النساء لان طبيعة الحياة وظروفها والصراعات التي تشهدها وسبل توفير لقمة العيش غالباً ما تجعل الرجال يتعرضون للهلاك (الموت) ويحصل النقص العددي فيهم اكثر مما يحصل في النساء، فمن خلال الحروب والاقتتال الذي شهدته الانسانية بمختلف العصور والازمنة وما زال، تزهق اعداد كبيرة جداً من ارواح الرجال، فالحرب والقتال هو ميدان للرجال فقط مهما اختلفت ثقافات الشعوب وانماط حياتهم، والخصائر البشرية التي تخلفها عادةً ما تكون بنسبة عالية من الرجال لان المرأة لا تقاتل.

كذلك فان طبيعة الرجل ومسؤوليته في داخل الأسرة وفي ضمن المجتمع تختلف كثيراً عن طبيعة المرأة ومسؤوليتها في داخل الاسرة وفي ضمن المجتمع، فالرجل يتولى مسؤولية الاعمال الشاقة التي فيها الكثير من المخاطر وتستوجب منه كثرة السفر والتقل ما يعرضه للمخاطر والهلاك بدرجة اعلى، في حين أن حركة المرأة أقل وميدان عملها محدود يكاد ينحصر داخل منزلها في الغالب أو خارجه كالاعمال الخدمية أو التعليمية البسيطة التي لا تعرضها للمخاطر والهلاك.

بناءً على ما تقدم فان المجتمعات البشرية في الغالب هي تعاني من نقص في عدد الرجال بنسب متفاوتة كما ذكرنا متأثرة بظروف المجتمع نفسه، التي في بعض الاحيان تكون ظروفًا قاسية ومدمرة وفي احيان تكون ظروفًا طبيعية مستقرة.

ولسنا ببعيدين عما شهده المجتمع الاوربي في مطلع القرن العشرين ومنتصفه خلال الحربين العالميتين الاولى والثانية، اذ كانت الخسائر البشرية كبيرة جداً ومهولة في اعداد الرجال، خلفت تلك الخسائر زيادة واضحة في اعداد النساء في جميع الدول الاوربية التي شاركت في الحرب وبشكل خاص دول (المانيا وبريطانيا وفرنسا وروسيا) ما شكل مشكلة اجتماعية كبيرة لا يمكن حلها مع تطبيق هذه المجتمعات الاوربية لنظام الزواج الاحادي بحسب الديانة المسيحية الذي لا يسمح للرجل بان يتزوج باكثر من امرأة واحدة، فالنساء العاطلات عن الزواج سرعان ما لجئن الى الشارع وكان لذلك تداعيات اخلاقية خطيرة. لذلك فان التأمل في واقع المجتمعات البشرية وظروفها المختلفة يضعنا إزاء حقيقة واضحة: هي ان التشريع الإسلامي للزواج يعبر عن حكمة الله تعالى ولطفه وعنايته ببني البشر، وليس للعقل البشري القدرة على انتاج تشريع أو قانون مماثل يوازيه في العدالة والمرونة والاستيعاب لكل الظروف والاحوال والتقلبات التي تمر بها المجتمعات البشرية.

عند نزول هذه التشريعات المرتبطة بتحديد المحرمات من النساء، وبعد ذلك تحدد عدد الزواج المسموح به للمسلم، تكامل النظام الإسلامي الخاص بالزواج واصبح تشريعاً هياً واجب التطبيق، فاشرف النبي ﷺ بنفسه على تطبيقه، وامر اصحابه بالالتزام بذلك ومن كان تحت يده اكثر من اربع زوجات، امره ان يتخلى عن الزيادة، وهكذا كان على بعض الصحابة ممن لديهم عدد كبير من الزوجات ان يبقوا فقط على اربع زوجات، شمل هذا التشريع جميع المسلمين ولم يستثن منهم الا النبي ﷺ نفسه، فقد استثناه الله تعالى من هذا التحديد وسنأتي على ذكر الحكمة الالهية من ذلك بالتفصيل.

### زوجات النبي ﷺ

أول نساء النبي ﷺ كما ذكرنا سابقاً كانت السيدة خديجة عليها السلام، فلم يتزوج بأخرى حتى رحلت الى الرفيق الاعلى في السنة العاشرة من البعثة. وبعد وفاتها

تزوج النبي ﷺ من السيدة سودة بنت زمعة فكانت أول زوجة له بعد السيدة خديجة ؓ. المرويات تختلف في عدد النساء اللواتي تزوج منهن ولكن الاقرب الى الدقة تلك التي ذكرت بأنه تزوج من اثنتي عشرة امرأة بما فيهن السيدة خديجة ؓ، ست زوجات من قبيلة قريش وهن: السيدة خديجة ؓ، السيدة سودة، السيدة عائشة، السيدة حفصة، السيدة أم سلمة والسيدة أم حبيبة، اما زوجاته الباقيات فكُن من سائر القبائل العربية فضلاً عن غير العربيات، توفي منهن في حياة النبي ﷺ اثنتان هما السيدة خديجة ؓ والسيدة زينب بنت خزيمة التي كانت تلقب قبل زواج النبي ﷺ منها بأم المساكين<sup>(١)</sup>.

لقد نال موضوع زيجات النبي ﷺ المتعددة اهتمام المستشرقين وتركيزهم، وشمل معظم دراساتهم، فالدراسات الاستشراقية القديمة فسرت هذا التعدد على انه حب للنساء ورغبة وهوى وتعلق<sup>(٢)</sup>، ولجأ إلى هذا التفسير اصحاب تلك الدراسات لأجل تثبيت مأخذ اخلاقي يطعن بنوبة الحبيب المصطفى محمد ﷺ، من دون النظر الى الاهداف والاحكام لتلك الزيجات التي سنتحدث عنها بالتفصيل. اما الدراسات الاستشراقية الحديثة فأصحابها بين تمسك بالتفسير القديم وبين تقديم تفسير جديد لهذا التعدد اقل حدة وتشدد من السابق.

(١) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٠٦٢؛ ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٥، ص ٢٥٠؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ١٧٤.

(٢) ومن ابرز المستشرقين الذين اتهموا النبي محمد ﷺ في هذا الجانب هو المستشرق اليهودي (اجناس جولدتسيهر) الذي اشتهر بعوائده للإسلام والنبي ﷺ اذ يورد في كتابه العقيدة والشرعية في الإسلام ما نصه «ويمكننا ان نقرر دون ريب بصفة عامة ان ميل النبي للنساء كان ميلاً مطرداً في الزيادة... فقد روي عنه انه قال ويقص النبي محمد ﷺ «انما حب الي من دنياكم النساء والطيب وجُعِلَ قُرّةُ عيني في الصلاة»؛ ينظر: ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون، (دار الكتب الحديثة، ط٢، مصر، د. ت)، ص ١٤٢-١٤٣. ولم يقتصر الامر على المستشرقين المعادين للإسلام بل طال هذا الامر حتى المستشرقين الذين وصفوا بانصافهم للنبي محمد ﷺ في جوانب سيرته العطرة ولكنهم اخفقوا في هذا الجانب وبرزهم المستشرق الفرنسي (غوستاف لوبون) الذي يصف النبي محمد ﷺ بقوله: «ضعف محمد الوحيد هو حبه الطارئ للنساء»؛ ينظر: حضارة العرب، ترجمة عادل زعير، (مؤسسة النداوي للتعليم والثقافة، مصر، ٢٠١٣)، ص ١١٦.

هنا اجد من الافضل ان نأخذ تصوراً عاماً عن زوجات النبي ﷺ كأسمائهن وتسلسل الزواج وظروفه فضلاً عن معرفة سن كل زوجة منهن قبل ان نتحدث عن الاحكام والاهداف التي دفعت النبي ﷺ إلى هذه الزيجات. ولن نبدأ الحديث حول السيدة خديجة عليها السلام لأننا تحدثنا عنها سابقاً وبالتفصيل، الدور بعدها للسيدة سودة بن زمعة كانت احدى المسلمات الأوكرات، دخلت الإسلام في وقت مبكر، وبسبب ذلك تعرضت للكثير من حالات الاعتراض والضغط من ابناء عمومتها واقاربها لإجبارها على ترك الإسلام، فتحمّلت في سبيل ذلك الاذى، لكنها ثبتت على المحافظة على دينها. كانت السيدة سودة متزوجة من السكران بن عمرو الذي هاجر معها الى الحبشة، بقوا هناك مدة من الزمن، ثم عادوا الى مكة قبل الهجرة الى المدينة، ثم توفي زوجها السكران بن عمرو في مكة بعد العودة بوقت قصير بحدود السنة العاشرة للبعثة، فبقيت السيدة سودة وحيدة بعد ان تخلى عنها اهلها وابناء عمومتها لدخولها في الإسلام من دون موافقتهم. لقد جاء زواج النبي ﷺ منها في هذا الوقت لاحتضانها والمحافظة على دينها. اذ كانت امرأة كبيرة السن وبحاجة الى رعاية وحماية، لذلك لا يمكن تخيل هذا النوع من الزواج على انه حب للنساء وتعلق وهوى بقدر ما حمل في طياته دوافع انسانية واجتماعية عالية، فكان زواج النبي ﷺ منها في السنة الحادية عشرة من البعثة قبل الهجرة الى المدينة بعامين وبقيت معه حتى وفاته<sup>(١)</sup>.

بعد السيدة سودة بنت زمعة تزوج النبي ﷺ من السيدة عائشة بنت أبي بكر، كانت صغيرة في السن حين خطبها فبقيت في دار ابيها ولم تنتقل الى بيت النبي ﷺ الا بعد الهجرة الى المدينة. اما القول في سبب زواجه منها ففيه كلام كثير، لكننا سنأتي لاحقاً على ذكر احد اهم العلل والاسباب التي نظن انها دفعت النبي ﷺ إلى الزواج منها. فهي الزوجة الوحيدة من بين زوجاته كانت باكراً (عذراء) لم يسبق لها الزواج قبل النبي ﷺ، ولم يكن عمرها قد تجاوز الثالثة عشرة.

ثم تزوج من السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب، كانت متزوجة من خنيس بن

(١) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٠٥٨؛ ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٥، ص ٢٣٨.

حُذافة السهمي الذي شارك في معركة بدر وتوفي بعدها بمدة وجيزة، فجاء زواج النبي ﷺ منها في حدود السنة الثالثة من الهجرة<sup>(١)</sup>.

بعدها تزوج من السيدة زينب بنت خزيمة، كانت هذه السيدة متزوجة قبل النبي ﷺ من الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب الذي وافاه الاجل، فتزوجت من اخيه عبيدة بن الحارث الذي استشهد في معركة بدر. لقبت هذه السيدة قبل الإسلام بأُم المساكين لعاطفتها الشديدة على كل مسكين، حين تزوجها النبي ﷺ كانت قد تجاوزت سن الشباب واصبحت امرأة كبيرة العمر بلغت الستين عاماً، فكان زواج النبي ﷺ منها مواساةً لها وتكريماً لتضحياتها الكبيرة. وحصل هذا الزواج في السنة الثالثة من بعد الهجرة ولم يمتد طويلاً فقد توفيت بعد زواجها بمدة وجيزة.

بعد زينب بنت خزيمة تزوج النبي ﷺ من السيدة هند بنت أبي امية المعروفة بأُم سلمة، كانت متزوجة من عبد الله بن عبد الاسد الذي كان احد المسلمين الاوائل، هاجرت معه الى الحبشة ثم عادا الى مكة وهاجرا مع النبي ﷺ الى المدينة، اشترك زوجها في معركة احد واصيب بجراح ادت فيما بعد الى استشهاده، بعد استشهاد زوجها خطبها ابو بكر ثم خطبها عمر بن الخطاب فاعتذرت عن الزواج وكانت امرأة كبيرة السن وكثيرة الاولاد، ثم بعد ذلك تقدم لها النبي ﷺ فخطبها وتزوجها وتكفلها وابناءها، كما قام النبي ﷺ بتزويج ابنها سلمة من امامة بنت حمزة بن عبد المطلب، جاء زواج النبي ﷺ منها اكراماً لها وتعويضاً عما لاقتّه من معاناة<sup>(٢)</sup>.

من بعد أم سلمة تزوج النبي ﷺ من السيدة زينب بنت جحش وهي ابنة عمته، ولهذا الزواج قصة طويلة، إذ أمره الله تعالى به فتردد في ذلك استحياءً وخجلاً فما كان من الله تعالى الا ان دعى النبي ﷺ للمضي فيه واتمامه، تحقيقاً لحكم شرعي وابطال احدى عادات الجاهلية. كانت السيدة زينب بنت جحش امرأة

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ١٣٥.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٠٥٨-١٠٦١؛ ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٥، ص ٢٣٨-٢٤٤؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ١٧٥-١٧٦.

جميلة توسط النبي ﷺ في بداية الامر وزوجها الى زيد بن حارثة (وزيد هذا كان النبي ﷺ قد ربه منذ كان صغيراً وتبناه كابنه فلما كبر كان يلازمه ويرافقه أينما حل وكان من خُلق اصحابه حتى استشهد في معركة مؤتة)، بعد زواجهما لم يحصل الوفاق، كانت الخلافات بينهما مستمرة وارادا الطلاق والانفصال عدة مرات، الا ان النبي ﷺ كان لا يسمح بذلك ويبذل كل جهده للإبقاء على هذا الزواج، يبدو ان الارادة الالهية كانت تقضي بان يتم هذا الطلاق بين زيد بن حارثة وزينب بنت جحش ومن ثم زواج النبي ﷺ منها ليصبح حكماً شرعياً، قد إشارة الآية الكريمة الى ذلك بوضوح بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِيَكَىٰ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۗ﴾<sup>(١)</sup>، لقد وضحت الآية الكريمة السبب الحقيقي لهذا الزواج الذي تم بإرادة الله تعالى لإبطال إحدى العادات الجاهلية التي كانت تقوم على اساس عدم زواج طليقة الابن المتبنى من ابيه الذي تبناه، اي ان الرجل الذي كان قد تبني ابناً له فطلق هذا الابن زوجته فلا يجوز لذلك الاب الزواج منها، وهذه إحدى العادات الجاهلية اراد الله تعالى ان يبطلها بقيام زيد وهو ابن النبي ﷺ بالتبني بطلاق زينب بنت جحش، ثم زواج النبي ﷺ منها<sup>(٢)</sup>.

على اثر الامر الالهي بهذا الزواج تزوج منها النبي ﷺ، وبقيت معه حتى وفاته، كانت السيدة زينب متوسطة العمر قد وردت بشأنها مرويات كثيرة، كذلك فان المستشرقين قد استعانوا على احداث هذا الزواج ببعض المرويات الإسلامية غير دقيقة وبالاخص ما رواه الطبري في تاريخ الامم والملوك.

بعدها تأتي السيدة رملة بنت أبي سفيان وتلقب بام حبيبة، كانت من أوليات المسلمين ومتروجة من عبيد الله بن جحش، هاجرت معه الى الحبشة وبقوا هناك

(١) سورة الأحزاب، الآية (٣٧).

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٠٥٩؛ ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٥، ص ٢٤٤؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٥٦٢-٥٦٣؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ١٧٦.

لمدة، الا ان زوجها ترك دين الإسلام واعتنق النصرانية، فلم تتبع زوجها في ما فعل بل خالفته وحافظت على اسلامها ثم فارقت حتى مات هناك. لقد مرت بظروف صعبة لم يكن لها اي معيل وقد تحملت الصعاب في سبيل المحافظة على دينها فاراد النبي ﷺ ان يوفر لها الحماية والامان فاكرمها بزواجه منها. بعض الآراء ولاسيما تلك الدراسات الاستشراقية الحديثة التي رأت في هذا الزواج محاولة لكسب أيها أبي سفيان بن حرب واستمالته لأجل ان يُغير موقفه من الدعوة ويخفف من حدة العداء، الا اننا نعتقد بان الدوافع الانسانية كانت هي الابرز في وقوع هذا الزواج<sup>(١)</sup>.

بعدها تزوج النبي ﷺ من السيدة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية، ابوها كان زعيماً لقبيلته ومعادياً للمسلمين، ذكرت كتب التاريخ في قصة زواج النبي ﷺ منها، ان ابوها كان يعد العدة ويجمع الناس لمهاجمة المدينة، فلما وصلت اخبار ذلك الى النبي ﷺ خرج له بالمسلمين ووقع القتال بينهما، فانهزم الحارث بن أبي ضرار واتباعه وفروا من ارض المعركة مخلفين وراءهم النساء والاطفال في غزوة عرفت بغزوة المريسيع أو غزوة بني المصطلق، من بين ما وقع من الاسرى السيدة جويرية بنت الحارث وكانت متزوجة من احد رجال قبيلتها يدعى مسافع بن صفوان المصطلق الذي قتل في تلك الغزوة. فطلبت الحضور عند النبي ﷺ وطلبت منه ان يعينها على دفع الفدية واطلاق سراحها لتعود الى اهلها، فقبل النبي ﷺ ان يعينها في ذلك وبعد ان نالت حريتها عرض عليها الزواج فقبلت السيدة جويرية. اخبار هذا الزواج انتشرت بين المسلمين فقرروا اطلاق سراح جميع الاسرى دون اخذ الفدية تكريماً لهذا الزواج، فكان ذلك موقفاً انسانياً رفيعاً قابله أبناء هذه القبيلة بالإقبال على النبي ﷺ وعلان دخولهم في الإسلام، فاصبحوا جزءاً من المسلمين بفضل سياسة التسامح التي اتبعها النبي ﷺ مع القبائل المعادية له، كما ان لهذه المصاهرة أثر كبير ايضاً في تغير موقف بني المصطلق.

(١) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص١٠٥٩؛ ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٥، ص٢٤١-٢٤٢؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص١٧٦.

فأصبحت السيدة جويرية بنت الحارث إحدى زوجات النبي ﷺ حتى وفاته<sup>(١)</sup>.

ثم يأتي دور السيدة مارية القبطية كانت جارية اهداها المقوقس حاكم الاسكندرية في مصر الى النبي ﷺ في السنة السابعة من الهجرة، فتزوجها وانجبت له ابراهيم، وهي الوحيدة من بين زوجاته بعد السيدة خديجة ﷺ التي انجبت له، توفيت بعد وفاته بخمس سنوات<sup>(٢)</sup>.

بعدها تأتي السيدة صفية بنت حُيَي بن اخطب اليهودية من بني النضير، والدها كان من الد اعداء النبي ﷺ، وهو احد زعماء يهود بني النضير قتل مع بني قريظة، كانت السيدة صفية متزوجة من قبل مرتين من رجلين من اليهود قبل ان يتزوج منها النبي ﷺ هما سلام بن مشكم، وبعده كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق اللذان قُتلا بحروبهم مع المسلمين. كانت السيدة صفية قد وقعت في الاسر في غزوة خيبر السنة الثامنة للهجرة فعرض عليها النبي ﷺ الزواج فقبلت بذلك، وكان قبل ذلك قد خيرها النبي ﷺ بين ان يعتقها ويردها الى قومها أو يعتقها ويتزوجها، فاختارت البقاء معه كزوجة باختيارها الكامل ورغبتها، فتزوج منها النبي ﷺ، وكان لزوجها هذا الفضل في دخول عدد ليس بالقليل من قومها من اليهود في الإسلام.

بعدها تم الزواج من السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية، التي كانت قد تزوجت مرتين قبل ذلك، فلما مات زوجها الثاني وهبت نفسها لرسول الله ﷺ، فقبل الزواج منها اكراماً لها وتقديراً لرغبتها، كانت السيدة ميمونة اخر زوجات النبي ﷺ تم الزواج منها في مكة في وقت عمرة القضاء او اخر السنة السابعة للهجرة اي بعد سنة واحدة من صلح الحديبية، كانت كبيرة في السن، رافقت النبي ﷺ في غزوة تبوك<sup>(٣)</sup>، وقد وردت الإشارة إليها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ

(١) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٠٥٩-١٠٦٠؛ ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٥، ص ٢٤٥؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ١٧٦.

(٢) ابن سعد. الطبقات، ج٢، ص ٢١٤.

(٣) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٠٦٠-١٠٦١؛ ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، ج٥، ص ٢٤٦-٢٤٧؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ١٧٦.



إِنَّا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١﴾.

### الاهداف والمقاصد من زواج النبي ﷺ المتعدد

السؤال المهم هنا الذي يُحاكي تطلعات المستشرقين وسعيهم لترسيخ فكرته على انها حقيقة: هل كانت هذه الزيجات تُعبر عن رغبة في النساء وحب وهوى أم ان لها اهداف ومقاصد أخرى؟ ان الاجابة عن ذلك تحتاج الى تفصيل مُطول، ولكننا بالإمكان ان نجيبهم بسؤال يحمل في طياته الكثير من الالم: هل كان النبي ﷺ سعيداً بهذا العدد من النساء؟ من الواضح ان هذا العدد الكبير من الأعباء على النبي الأكرم ﷺ كثرة زيجاته، وهو المنشغل بكامل تفكيره وشعوره نحو إنجاح الدعوة وإتمام مهمة النبوة المكلف بها على اكمل وجه. إن الحقيقة واضحة وضوح الشمس في مسألة المقاصد والاهداف التي دفعته لهذه الزيجات المتعددة، كانت برمتها تصب في مصلحة الدعوة الإسلامية وسرعة انتشارها، بل اننا نحسب ان النبي ﷺ لأجل ان لا تتوقف هذه المصلحة كان يتحمل الاذى النفسي والفكري في سبيل ذلك، فقد ورد في كثير من المرويات اخبار عن بعض الخلافات بين بعض زوجاته، وهذا يقيناً كان يستنزف كثيراً من راحته وتفكيره.

من اللافت للنظر ان النبي ﷺ لم يُعَدّد زيجاته الا بعد ان تجاوز عقده الخامس من العمر، فكان اول زواج له بعد السيدة خديجة ؓ في حدود السنة الحادية عشرة من البعثة، أي بعد أن بلغ الحادية والخمسين من عمره، فلو كان محباً للنساء وقلبه متعلق بهن كما تحدث المستشرقون لما انتظر كل هذه السنوات من عمره تمضي من دون ان يجدد زواجه!! لقد جرت العادة في مجتمعه المكي ان الرجل

يعدد في زيجاته ولا يكتفي بواحدة ولا سيما أولئك المحبين للنساء، فلماذا خالف النبي ﷺ عادات قومه واكتفى بواحدة فقط طوال سنوات شبابه وعطائه وقوته اذا كان فعلاً محباً للنساء كما يقولون!! إذن فالتأخر في مسألة الزواج الثاني حتى بلوغ الحادية والخمسين هي أحد اهم الادلة على بطلان تلك التهمة.

كما ان المحب للنساء يبحث عن الجميلات والصغيرات، وهذا الحال لم يحصل مع النبي ﷺ، فكل زوجاته من الثيبات (الارامل أو المطلقات) كبيرات السن الا السيدة عائشة، تجاوزت اعمار بعضهن الخمسين أو الستين ولم يكن صالحات لأمر الزواج، فما حاجة الرجل بامرأة قد بلغت الخمسين أو قد تجاوزت الستين من عمرها، وما حاجة الرجل بامرأة كثيرة العيال والابناء، وما حاجة الرجل بامرأة بطيئة الحركة ارهقتها الايام والسنين. تلك هي مواصفات زوجات النبي ﷺ فأى حب هذا واي عشق واي رغبة يتهمونه بها!! ولم يكن بين زوجاته الا زوجة واحدة صغيرة السن لم يسبق لها الزواج هي السيدة عائشة بنت أبي بكر التي حاولت بعض المصادر الإسلامية ان تقدم صورة مبالغ فيها عن عشق النبي ﷺ لها وتعلقه بها. ان زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة قد يبدو مختلفاً في سياقه ومضمونه عن زيجاته الاخريات، كون الزوجة امرأة باكر وصغيرة السن فضلاً عن كونها ابنة رقيقه ومن المقربين لديه، ولكننا نعتقد ان الهدف من زواجه هذا لم يختلف عن المقاصد والاهداف السابقة التي كلها تدخل في ضمن المصلحة العليا للدعوة الإسلامية ولا تدخل في ضمن المصلحة والرغبة الشخصية للنبي ﷺ، لقد تزوج منها لأجل ردم ثغرة خطيرة جداً كان بالإمكان حصولها في داخل المجتمعات الإسلامية بمختلف العصور لو لم يقع هذا الزواج، فمن الضروري الانتباه الى ان جميع زوجات النبي ﷺ من الثيبات (الارامل أو المطلقات)، فلو انه لم يتزوج من السيدة عائشة وهي الباكر الوحيدة بين زوجاته لوجدنا اليوم ان فريقاً من المسلمين أو طائفة منهم تدعو الى تقليد سنة النبي ﷺ في عدم الزواج من النساء البواكر والزواج فقط من الارامل أو المطلقات اتباعاً لسنة النبي ﷺ، فيصاب المجتمع الإسلامي بمشكلة

اجتماعية كبيرة من الصعب تجاوزها، لذلك اظن ان النبي ﷺ وبدرجة عالية من الوعي والاحاطة الكاملة بمستقبل الامة اراد سد هكذا ثغره قد تقتل المجتمعات الإسلامية اللاحقة فكان الزواج من السيدة عائشة.

الفائدة الاخرى من هذا الزواج والتي اشتركت في تحقيقها السيدة عائشة وبقيّة زوجات النبي ﷺ هي عملية تحويلهن الى وسائط لنقل المعلومة الشرعية الى نساء المسلمين من النبي ﷺ، فهو لا يجد الحرج في مخاطبة زوجاته وتعليمهن احكام خاصة بالنساء كالغسل والطهارة والحيض والنفاس وغيرها، ليقمن بدور نقل المعلومة لبقيّة نساء المسلمين، أو الاجابة عن تساؤلاتهن بعد الاستماع الى اجابات مباشرة من النبي ﷺ. ان هذا العمل الكبير الذي أدته زوجات النبي ﷺ في حياته وبعد وفاته يشكل عنصراً هاماً وفاعلاً في سبيل تكامل نشر الدعوة الإسلامية وتبليغ احكامها على افضل صورة، وهو بالوقت نفسه يوضح المقاصد والاهداف النبيلة التي دفعت النبي ﷺ للزيجات المتعددة، ولنا ان نتخيل استمرار زوجاته بنقل الاخبار عنه وتعليم نساء المسلمين لسنوات طويلة بعد وفاته واخرهن كانت السيدة عائشة التي توفيت سنة (٥٨ هـ)، وهذه فائدة اخرى من زواجه منها انها استمرت لسنوات طويلة من بعده تمثل مصدراً مباشراً للمعلومة.

للذين يُشكِلونَ على النبي ﷺ كثرة الزيجات وعدم الاكتفاء بواحدة. نقول ان كثرة عدد زوجاته كان قد شكل عنصر دعم للدعوة بعد ان وسع من عملية ايصال المعلومات ودقة التعليم، فالفارق بين ما تقوم به زوجة واحدة وما تقوم به عشر زوجات هو الفارق نفسه بين ما يتحقق في داخل مدرسة تعتمد بأكملها على ما تقوم به مُعلمة واحدة في تعليم الطلاب، وبين ما تقوم به عشرة مُلمات لتعليم الطلاب أنفسهم، فالمُلمات العشر سيتمكن من تعليم طلاب المدرسة كلهم بسهولة وايصال المعلومات اليهم بدقة ووضوح، الامر الذي يستحيل اتمامه بالمستوى نفسه حين تكون العملية محصورة بمُدربة واحدة فقط. من هذا المثال نفهم قيمة التعددية والدور الذي لعبته زوجات النبي ﷺ.

كما ان هذا التعدد كانت له دوافع اخر قد أشرنا إلى بعضها في مواضع سابقة،

فالدافع الاجتماعي من بينها، فقد كانت بعض زيجات النبي ﷺ بدوافع اجتماعية كزواجه من السيدة سودة بنت زمعة، التي لم يكن لها من معيل بعد وفاة زوجها السابق فأصبحت وحيدة أهلها وذويها قطعوا الصلة بها لا عتناقها الإسلام، فجاء زواج النبي ﷺ منها حماية لها وتكريماً، انتشلها من الظروف الاجتماعية والمادية الصعبة التي كانت تمر بها ولا سيما كبر سنها. هذا الدافع نفسه كان حاضراً في زواج النبي ﷺ من السيدة زينب بنت خزيمة وكذلك من السيدة هند بنت أبي أمية وكذلك من السيدة رملة بنت أبي سفيان. النبي ﷺ بهذه الطريقة حاول ان يؤسس لمفاهيم جديدة كانت غائبة في المجتمع الجاهلي أو العربي حاول ان يهذب من سلوك الرجل ومن رغباته واهوائه، فتجد ان معظم تلك الزيجات كانت تحمل في طياتها دوافع انسانية نبيلة. كما ان النبي ﷺ وهو مُعلم الامة شجع على التعامل الانساني مع هذه الفئة من النساء (الارامل والمطلقات) وعدم تحويل هذه الفئة من المجتمع الى درجة ادنى من بقية الفئات.

قد يُفهم من بعض زيجات النبي ﷺ انها تمت لأجل دوافع سياسية، وهذا ما اكده بعض المستشرقين المتأخرين ومنهم مونتجمري وات<sup>(١)</sup>، يجب الاعتراف بان هذا الرأي يمثل تطوراً ملحوظاً في الموقف الاستشراقي الحديث من دوافع النبي ﷺ في زواجه المتعدد، الا اننا لا نعتقد بوجود هذه الدوافع عند النبي ﷺ مع انه تزوج عدداً من النساء ينتسبن الى وجهاء القبائل وزعمائها كالسيدة جويرية بنت الحارث، وأبيها الحارث زعيم بني المصطلق، والسيدة صفية بنت حيي بن اخطب، وأبيها حيي بن اخطب زعيم قبيلة بني النضير اليهودية، والسيدة رملة بنت أبي سفيان، وأبيها أبي سفيان بن حرب من قادة وزعماء مكة. نعم لا نظن بوجود أي دوافع سياسية عند النبي ﷺ من هذه الزيجات، بالرغم من أن بعضها قد أسهم في تبدل المواقف المعارضة للدعوة الى مواقف مؤيدة لها، ان شخصية النبي ﷺ قامت على اساس الصراحة والوضوح في التعامل مع الآخرين، والاعتقاد بوجود

(١) بقوله «واخر ما يلاحظ على زيجات النبي انه كان يستخدمها... لأغراض سياسية»، ينظر: وات، محمد في المدينة، ص ٤٣٦.

دوافع سياسية يتقاطع تماماً مع هذه المعاني الطيبة المعروفة عنه، لذلك نحن نُشدد على الدافع الديني بالدرجة الاولى على أنه كان المحرك لهذا التعدد، ومن بعده يأتي الدافع الاجتماعي بالدرجة الثانية، ولا نقفل الباب امام عملية استحضر أي دافع اخر غير ما ذكرناه بشرط ان لا يتقاطع مع ما عُرف عن شخصية النبي ﷺ الاكرم من خلق رفيع وصدق وامانة في التعامل الإنساني.

لا بد من الإشارة هنا الى مسألة مهمة في مواجهة من يقول ان النبي ﷺ عدّد في زوجاته محبة في النساء نقول ان الله تعالى قد بيّن في كتابه العزيز الى أنه لم يكن اول من عدد في زوجاته، انما قد سبقه في ذلك الرسل ففي قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾<sup>(١)</sup>، وهي إشارة واضحة الى ان الأنبياء والرسل الذين سبقوا النبي ﷺ لم يقتصروا على زوجة واحدة فحسب، فقد تزوج النبي ابراهيم عليه السلام من اربعة نساء، اما نبي الله داود عليه السلام فقد تزوج من تسعة وتسعين زوجة، والنبي سليمان عليه السلام تزوج من سبعمئة زوجة. بالرغم مما في هذه الارقام من مبالغة كبيرة ولكنها تؤكد على فكرة التعددية، كما تؤكد على ان النبي محمداً ﷺ لم يكن اول الانبياء يُقدم على الزواج بأكثر من زوجة واحدة.

اما الشرائع السماوية السابقة فهي الاخرى اجازت التعددية ولم تُحرّمها بما في ذلك شريعة نبي الله عيسى عليه السلام التي جاءت مصداقاً لشريعة نبي الله موسى عليه السلام كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(٢)</sup>، وشريعة نبي الله موسى عليه السلام لم تُحرّم التعددية في الزيجات، فمن اين جاء هذا التحريم المسيحي للتعددية؟ مما لاشك فيه هو من بين الإضافات والمُدخلات التي طالت لاحقاً اصل العقيدة والتشريع في المسيحية، وأسهمت في ادخال المجتمعات المسيحية في مشاكل اجتماعية كبيرة بسبب تطبيقها الزواج الأحادي وتحريمها التعددية.

(١) سورة الرعد، الآية (٣٨).

(٢) سورة الصف، الآية (٦).

ان هذا الاصلاح الاجتماعي المتمثل بتشريع نظام الزواج الإسلامي احدث تطوراً كبيراً في مستوى بناء الأسرة في داخل المجتمع، واسس لأُطر واضحة ومنظمة للعلاقات الإنسانية تحافظ على حقوق جميعهم وعلى وجه الخصوص النساء، كما ان هنالك تشريعات اخر مُتمة لهذا النظام بيّنت حقوق الزوجة والابناء، ما ادى الى ارتقاء الواقع الاجتماعي في ظل دولة المسلمين الناشئة واظهار المجتمع العربي الإسلامي بصورة افضل بكثير عما كان عليه في الماضي على عهد الجاهلية.



## الفصل الثامن:

# الأحداث والتطورات الأخيرة حتى وفاة النبي ﷺ

- عام الوفود
- تبليغ آيات البراءة
- أحداث السنة الأخيرة من حياة النبي محمد ﷺ
- حجة الوداع
- البيعة لعلي بن أبي طالب ﷺ في غدير خم
- عودة النبي ﷺ إلى المدينة (أيامه الأخيرة)
- وفاة النبي ﷺ (سقيفة بني ساعدة)





## الفصل الثامن:

### الأحداث والتطورات الأخيرة حتى وفاة النبي ﷺ

#### عام الوفود

من الاحداث المهمة التي تمثل المرحلة الأخيرة من حياة النبي ﷺ، التي بالإمكان عدّها من بين ثمار ونتائج ذلك النشاط والجهد الكبير الذي بذله النبي ﷺ واصحابه على امتداد سنوات الدعوة. لقد شهد المسلمون في عامهم التاسع من الهجرة، وتحديداً بعد العودة من غزوة تبوك توافد قبائل شبه الجزيرة العربية على المدينة المنورة معلنين اعتناقهم الإسلام، هذا الوفود على النبي ﷺ في المدينة في هذا الوقت يؤكد على تكامل قناعات زعماء هذه القبائل بحقيقة واضحة هي ان المسلمين اصبحوا القوة الابرز في شبه الجزيرة العربية واصحاب النفوذ الاوسع فيها. فالثقافة العربية آنذاك قامت على تقديس القوي والانضواء تحت لوائه والسعي للدخول في منظومته العسكرية لضمان عدم التعرض للغزو والحصول على الحماية والامان، كما ان ذلك الانضواء سيأتي ببعض المكاسب والمصالح المادية، لذلك شهدت المدينة المنورة توافد اعداد كبيرة من العرب على النبي ﷺ يعلنون فيه اعتناقهم للإسلام وانضمامهم الى دولته الناشئة، ليس بفعل القناعات الراسخة لدى هؤلاء بأصالة الدين الإسلامي وكونه الانفع للبشرية بل للأسباب الانفة التي ذكرناها.

من بين تلك الوفود التي قدمت على رسول الله ﷺ في المدينة المنورة جماعة

من قبيلة أسد وجماعة من قبيلة فزارة وكذلك من قبيلة مرة وقبيلة ثعلبة وتميم وكلاب وقشير والبكاء وكنانة وثقيف وبهراء، كما قدمت وفود أخرى في تواريخ متعددة منها وفود قبائل عبس ومحارب وهلال وعامر بن صعصعة وجعدة وباهلة وطيء وجذام وحنيفة وبكر بن وائل وتغلب<sup>(١)</sup>، إن مجمل هذه الوفود الممثلة للقبائل لا تعبر عن حالة قبول واحدة نابعة عن الايمان الصادق بالدعوة ومن اجل ذلك وفدت على النبي ﷺ واعلنت دخولها في الإسلام، انما كانت لهم احوال متعددة قد تكون مدفوعة بدوافع القلق والخوف من المواجهة مع المسلمين، أو الرغبة في التحالف معهم والحصول على المكاسب والمغانم، أو هي حالة من المحاكاة والتقليد تقوم بها بعض القبائل على اثر لما قامت به قبائل آخر دون ان تكون هنالك قناعات راسخة.

لقد وصفت اجواء الاقبال والوفود على المدينة المنورة في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ \* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾<sup>(٢)</sup>، اذن هذه الحركة الجماعية نحو اعتناق الإسلام بما نالته من مباركة الله تعالى هي حركة طوعية عامة، لم يكن فيها أي فعل اكراه، كما رافقت هذه الوفود وفوداً آخر من غير المسلمين كان السبب في مجيئهم الى المدينة المنورة لعقد معاهدات الامان والحماية مع النبي ﷺ، كما حصل مع وفد نصارى نجران الذين قدموا من جنوب شبه الجزيرة من منطقة نجران، وقصة لقائهم النبي ﷺ التي تحدثت عنها بعض المرويات التاريخية، فمما قيل في هذا الشأن انهم لما حضروا عند النبي ﷺ سألوه عن نبي الله عيسى عليه السلام فكان جوابه لهم من خلال ما نزل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ \* الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ \* فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ

(١) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٩٨٥ وما بعدها؛ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٧٩-٨٠؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ١٢٢ وما بعدها؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج٥، ص ٣٠٩ وما بعدها؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ١٥٧-١٦٠؛ المقرئ، امتاع الاسماع، ج٢، ص ٩٨، ٨٩-١٠٠.

(٢) سورة النصر، الآيتان (١-٢).

عَلَى الْكَذِبِ ﴿١﴾، فلما لم يقرؤا بتلك الحقيقة الصريحة المذكورة في القرآن حول طبيعة المسيح وكونه عبد من عباد الله مخلوق من تراب كما هو حال كل بني آدم، دعاهم النبي ﷺ الى المباهلة وفق ما وردت اوصافها في القرآن الكريم، لذلك حرص النبي ﷺ ان يكون في الموعد المحدد للمباهلة وقد احضر معه آل بيته الاطهار (علي وفاطمة والحسن والحسين) (عليهم السلام جميعاً) فارتعب رجال النصارى لما رأوا النبي ﷺ ومن معه من أهل بيته على هيئة نورانية لا يمكن الوقوف امامهم وتحديدهم، فقرروا الانسحاب من هذا التحدي وطلبوا من النبي ﷺ ان يكتب لهم كتاباً فيه الامان مقابل ان يدفعوا الجزية، فكتب لهم النبي ﷺ ذلك الكتاب (٢).

### تبليغ آيات البراءة

في نهاية العام التاسع للهجرة/ الثاني والعشرون للبعثة، في المراحل الختامية من حياة النبي ﷺ نزلت عليه الآيات الاولى من سورة براءة، فسلمها الى أبي بكر وامره بالخروج من المدينة نحو مكة على رأس ثلاثمائة مسلم ليقراها هناك على الناس في يوم النحر بعد الانتهاء من الحج. فعلاً خرج ابو بكر لتنفيذ أمر النبي ﷺ، وبعد خروجه من المدينة نزل جبريل ﷺ على النبي ﷺ وبلغه ان الله تعالى يأمره ان لا يبلغ هذه الآيات الا هو، أو رجلٌ منه، فاسرع النبي ﷺ بأرسال ابن عمه الإمام علي ﷺ وامره بالحق بابي بكر وتولي عملية التبليغ هذه بنفسه، كما اعطاه ناقته العضباء وقال له الحق بابي بكر وخذ تبليغ البراءة منه وامض بها الى مكة، بعد ان تُخير ابا بكر بين السير معك أو العودة الى المدينة، وبالفعل اسرع امير المؤمنين علي ناقته رسول الله ﷺ حتى لحق بركب أبي بكر، فأخذ آيات البراءة وسار بها الى مكة، في حين ان ابا بكر عاد الى المدينة المنورة (٣).

(١) سورة ال عمران، الآيات (٥٩-٦١).

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص ٧٦-٧٨؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج٥، ص ٣٨٢-٣٨٩؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ١٦٢.

(٣) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ١٠٧٧-١٠٧٨؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٩٧٠-٩٧٣؛ ابن سعد، =

لما بلغوا يوم النحر قام الإمام علي عليه السلام بعد الظهر وخطب بالناس قائلاً: اني رسول الله ﷺ اليكم، ثم قرأ عليهم قوله تعالى من سورة التوبة ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ \* وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ بُنْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ \* إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ \* فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، لقد احتوى هذا التبليغ على مسائل جوهرية منها ان لا يطوف حول البيت عريان ولا مشرك ولا مشركة بعد هذا العام، ومن كان له عهد عند النبي ﷺ فهو الى مدته، ومن ليس له عهد عند النبي ﷺ فمدته اربعة اشهر بعدها يستحل دمه ان لم يدخل الإسلام. فكانت تلك المدة المحددة ابتداءً من عشرين ذي الحجة يضاف اليها أشهر محرم وصفر وربيع الاول والى اليوم العاشر من ربيع الاخر، هذه هي مدة الاربعة أشهر التي أعطيت لمن ما زالوا مشركين<sup>(١)</sup>.

ان الاجراءات تلك التي شهدتها مكة قبيل حلول العام العاشر للهجرة، تمت لأجل تهيئة المدينة المقدسة لموسم الحج القادم الذي سيشهد مجيئ النبي ﷺ واقامة مراسيم الحج بإمامته وبإشرافه المباشر، لقد اراد النبي ﷺ تعليم المسلمين والمسلمات شعائر هذه الفريضة بنفسه، لذلك كانت الاجراءات حاسمة في مسألة إزالة كل اشكال الشرك وعبادة الاوثان.

= الطبقات، م ٤، ج ٢، ص ١٢١-١٢٢؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ١٢٢-١٢٣؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج ٥، ص ٢٩٧-٢٩٨؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ١٦٠-١٦١.

(١) الواقدي، المغازي، ج ٣، ص ١٠٧٧-١٠٧٨؛ ابن هشام، السيرة، ج ٤، ص ٩٧٠-٩٧٣؛ ابن سعد، الطبقات، م ٤، ج ٢، ص ١٢١-١٢٢؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ١٢٢-١٢٣؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج ٥، ص ٢٩٧-٢٩٨؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ١٦٠-١٦١.

### حجة الوداع

يبدو ان مقدمات المرحلة الاخيرة من حياة النبي ﷺ قد شهدتها احداث السنة العاشرة للهجرة/ الثالثة والعشرين للبعثة، كان يعد العدة للخروج الى مكة ليقوم هناك طقوس الحج امام انظار ومشاركة المسلمين، فالحج فريضة عبادية على كل مسلم امتلك القدرة والاستطاعة لادائها، وكان النبي ﷺ قد بذل من قبل جهداً كبيراً لتنظيف مكة من جميع اشكال الشرك ورموزه، واراد بذلك ان لا يسود في ايام الحج الا انفاص الموحدين لله تعالى. جاء هذا الاعداد والتهيؤ للخروج بعد ان امره الله تعالى بذلك ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾<sup>(١)</sup>، فاعلن النبي ﷺ النفير العام وارسل من يبلغ جميع المسلمين والقبائل المنضوية تحت لوائه الى ان يخرجوا لأداء هذه الفريضة، فقام المؤذنون بإيصال الخبر الى المسلمين كافة ممن كانوا في داخل المدينة وخارجها بما فيهم القبائل التي دخلت الإسلام حديثاً والمنتشرة في شبه الجزيرة العربية، بلغوهم ان يلتحقوا بركب النبي ﷺ حين ينطلق متوجهاً الى مكة، فقدم على رسول الله ﷺ في المدينة المنورة اعداد كبيرة من القبائل والاعراب، كما التحق به اعداد كبيرة اخرى اثناء الطريق. لقد اختلف المؤرخون في تقدير اعداد المسلمين الذين التحقوا بالنبي ﷺ خلال مسيرته الى مكة، فالتقديرات تراوحت ما بين سبعين ألفاً ومئة وعشرين ألفاً، ويبدو ان الرقم الاخير هو الاقرب للقبول والتداول، هؤلاء جميعاً حضروا موسم الحج وحجة الوداع واستمعوا الى خطب النبي ﷺ ووصاياه.

كان خروجهم من المدينة المنورة في يوم السادس والعشرون من شهر ذي القعدة، فلما وصلوا الى منطقة ذي الحليفة وهي في اطراف المدينة، وبعد زوال الشمس امر النبي ﷺ المسلمين بالاغتسال وتنظيف الجسد اي التطهر ومن ثم لبس الازار والرداء، بعدها اقاموا صلاة الظهر في مسجد الشجرة، ونطقوا نية الخروج للحج ثم اخذوا يلبون بعد النبي ﷺ (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)، وانطلقوا قاصدين مكة.

(١) سورة الحج، الآية (٢٧).

فكان يوم خروجهم من المدينة المنورة قبل نهاية شهر ذي القعدة بأربعة أيام، كما ان هنالك روايات تزيد على ذلك بيوم أو يومين<sup>(١)</sup>.

كانوا كلما التحق بهم جماعة من المسلمين في الطريق تعالت اصوات التلبية والتكبير لله تعالى، في اليوم الرابع من ذي الحجة وصلوا الى مكة اي بعد مسيرة ثمانية ايام. لقد اصطحب النبي ﷺ معه جميع زوجاته راكبات في الهوداج، اما المدينة فقد ترك عليها أبا دجانة سماك بن خرشة الساعدي وقيل انه سباع بن عرفة الغفاري، وكان قد ارسل الإمام علي عليه السلام الى اهل اليمن لقيادتهم وموافاته في مكة<sup>(٢)</sup>.

الحج كان معروفاً ومألوفاً في مكة قبل الدعوة الإسلامية، تعود جذوره الى عهد نبي الله تعالى ابراهيم عليه السلام، ولكن مع مرور الزمن أضيف الى شعائره الكثير من المداخلات المنحرفة فتخللتها بعض مظاهر الشرك التي تجاوزت على مفهوم وحدانية الله تعالى، لذلك كانت من بين المهام النبوية للنبي محمد ﷺ ازالة تلك الاضافات المنحرفة والابقاء على اصل تلك الشعائر الحققة.

ما دمنّا في موضوع الحج وشعائره قد يتسأل البعض: هل كان النبي ﷺ يقوم بالحج في مواسمه قبل بعثته بالنبوة أو بعدها قبل الهجرة الى المدينة؟

في الواقع من الصعب جداً القطع بإجابة دقيقة لهذه التساؤلات، فبعض الآراء تعتمد على ارتباط النبي ﷺ وعلاقته بالله تعالى قبل البعثة وبعدها للتأكيد على انه قام بالحج عشرين مرة، وقيل عشر مرات<sup>(٣)</sup>، ولا يعرف على وجه الدقة كيف كان

(١) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ١٠٨٨-١٠٨٩؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٠٢٠؛ ابن سعد، الطبقات، ٤م، ج٢، ص ١٢٤؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ١٤٨؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج٣، ص ٤٣٢؛ المقرئ، امتاع، ج٢، ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ١٠٨٩-١٠٩٠؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٠٢٠؛ ابن سعد، الطبقات، ٤م، ج٢، ص ١٢٤؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج٥، ص ٤٣٢-٤٣٩؛ الكليني، فروع الكافي، ج٤، ص ١٤٥-١٤٦؛ ابن كثير، البداية، ج٥، ص ١٢٦ وما بعدها.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب (ت-٣٢٩هـ/٩٤١م)، فروع الكافي، (منشورات الفجر، بيروت، ٢٠٠٧)، ج٤، ص ١٤٥؛ الصدوق، علل الشرائع، (المطبعة العلمية، ط٢، قم، ١٩٨٨)، ج٢، ص ١٨٤.

النبي ﷺ يحج تلك الحجات؟ وماهي المواقيت التي يحج فيها، نفسها مواقيت حج اهل مكة ام غيرها؟ نقول ان صحت تلك المرويات التي تحدثت عن عدد من الحجات التي قام بها النبي ﷺ في حياته، فلا شك في انها كانت في ضمن الشعائر والطقوس الصحيحة السليمة الموروثة عن نبي الله ابراهيم الخليل عليه السلام المختلفة عما كان عليه اهل مكة من ممارسات منحرفة أو توقيات غير صحيحة، كطواف بعضهم حول البيت عارياً أو تفاخره بتعبده للأصنام والالوثان وشركه بالله تعالى.

قلنا ان النبي ﷺ وصل الى مكة في الرابع من شهر ذي الحجة، فكان اول اعماله في بيت الله الحرام انه استقبل الكعبة وحمد الله واثنى عليه وصلى على ابراهيم الخليل عليه السلام، ثم ابتداء بالطواف من الحجر، بعدها صلى ركعتين خلف مقام ابراهيم عليه السلام، ثم شرب من ماء زمزم وهو ربه قائلاً: «اللهم اني اسلك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاءً من كل داء وسقم» كان يردد هذا الدعاء وهو مستقبل للكعبة حتى انتهى عند الحجر الاسود، ثم خرج من تلك الناحية الى الصفا، وقال ان الصفا والمروة من شعائر الله تعالى، وكان المسلمون يظنون ان السعي بين الصفا والمروة من صنائع المشركين وطقوسهم<sup>(١)</sup>، لقد انزل الله تبارك وتعالى في شأن الصفا والمروة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ سَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>، فكان ذلك القول الالهي تشبيهاً لشعيرة السعي بين الصفا والمروة كونها من شعائر الحج الاساسية.

كان النبي ﷺ يكثر من الثناء والحمد لله تعالى والدعاء والتوسل في كل ركن وفي كل موضع وبكل شعيرة، فلما انتهى من سعيه بين الصفا والمروة، اخبر المسلمين بما جاء به جبريل عليه السلام أنه من لم يسق معه هدياً عليه ان يحل ولا يبقى محرماً، وكان النبي ﷺ قد ساق معه الهدى من المدينة لذلك استمر في إحرامه

(١) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ١٠٩٧-١٠٩٨؛ ابن سعد، الطبقات، م٤، ج٢، ص ١٢٥؛ الكليني، فروع، ج٤، ص ١٤٦، ١٤٨؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج٥، ص ٤٣٤-٤٣٥.

(٢) سورة البقرة، الآية (١٥٨).



ولم يحل لان سائق الهدى لا ينبغي له ان يحل إحرامه حتى يبلغ الهدى محله.  
في هذه الاثناء وصل امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الى مكة قادماً من اليمن ومعه من اهلها اعداداً غفيرة ممن دخلوا الإسلام، فقال له النبي ﷺ أبَقَ على إحرامك مثلي وانت شريكي في هديي.

بعدها نزل النبي ﷺ بالبطحاء من مكة، فلما جاء يوم التروية وعند زوال الشمس امر الناس ان يغتسلوا ويهلوا بالحج، فخرجوا حتى وصلوا منى ثم صلوا فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، بعدها توجهوا وافاضوا من المزدلفة<sup>(١)</sup>، فانزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>، هذه الاشارة الى موضع ومكان الافاضة السابق الذي كان الناس يفيضون منه، بعض المواضع وبعض الشعائر القديمة قد أُقرت كما كانت مع تعديل النبي ﷺ وتصحيحه وتصويبه. بعدها انتهى الى منطقة تسمى نمرة فضربت له خيمة وضرب الناس خيمهم واخبيتهم حتى زالت الشمس، فخرج النبي ﷺ ومعه المسلمون بعد ان اغتسلوا ووقفوا في المسجد يستمعون اليه يعظهم وينهاهم ويوصيهم بجملة من الوصايا، ثم صلى الظهر والعصر بأذان واحد وإقامتين، ثم مضى الى الوقوف بعرفات فكان الناس يلتمسون الوقوف الى جنبه وجنب ناقته حتى نهاهم عن فعل ذلك ودعاهم الى الوقوف في المكان غير المزدحم على اساس الوقار والسكينة. كان المشركون في السابق يفيضون قبل غياب الشمس من عرفات، فجعل النبي ﷺ وقت الافاضة بعد غروب الشمس.

بعد الخروج من عرفات توجه المسلمون الى المزدلفة وهي المشعر الحرام فصلوا المغرب والعشاء كذلك بأذان واحد وإقامتين، واقاموا هناك حتى صلاة الفجر فأمرهم النبي ﷺ بان لا يتم رمي الجمرة حتى يطلع النهار، فلما طلعت الشمس افاض النبي ﷺ حتى انتهى الى منى، فرمى جمرة العقبة وجاء بالهدي

(١) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ١٠٩١-١٠٩٣؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٠٢١؛ ابن سعد، الطبقات، ٤م، ج٢، ص ١٢٤-١٢٥؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ١٤٨-١٤٩.

(٢) سورة البقرة، الآية (١٩٩).

الذي ساقه من المدينة المنورة فنحره، وكان بحدود ست وستين ناقة، بعدها حلق رأسه الشريف وزار البيت الحرام ورجع الى منى فأقام بها حتى كان اليوم الثالث من اخر ايام التشريق، وبذلك انقضت تلك الشعائر وانتهت فريضة الحج بكل طقوسها وشعائرها.

لقد كان المسلمون في ذلك الوقت يطالعون النبي ﷺ بكل مفصل وكل ركن يستمعون اليه ويحفظون اقواله وادعيته ويراقبون حركاته وافعاله بحسب تسلسلها، فاصبحوا على اثر ذلك هم مصادر ومراجع هذه الفريضة لبقية المسلمين الجدد يعلمونهم ما تعلموه مباشرة من النبي الاكرم ﷺ<sup>(١)</sup>.

#### البيعة لعلي بن أبي طالب عليه السلام في غدير خم

لما انتهى المسلمون من هذه الفريضة وانتهى موسم الحج بنهاية ايام التشريق وتمازى هذه الشعائر جميعها بإشراف مباشر من النبي ﷺ، لم يتأخر في مكة بل خرج منها سريعاً الى المدينة ورافقه في ذلك اعداد كبيرة من المسلمين، فلما وصل ركب النبي ﷺ الى المنطقة المعروفة بغدير خم في الجحفة<sup>(٢)</sup> بين مكة والمدينة، نزل عليه الوحي بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾<sup>(٣)</sup>، فامر النبي ﷺ ان يتوقفوا في هذا المكان ويجهزوا له منصة مرتفعة عن الارض ليرتقي عليها ويخطب فيهم، فقام بعض المسلمين بقطع اغصان الاشجار وتنظيف الارض وإعداد هذه المنصة من آسنان الجمال، فلما اكتمل عملهم وحان وقت الصلاة صلى بالناس ثم قام يخطب فيهم، وفي ختام خطبته دعا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الى جواره

(١) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ١١٠٨-١١٠١؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٠٢٤-١٠٢٥؛ ابن سعد، الطبقات، م٤، ج٢، ص ١٢٥؛ الكليني، فروع الكافي، ج٤، ص ١٤٦-١٤٧

(٢) الجحفة هي قرية كبيرة على طريق المدينة من مكة على اربع مراحل وكان اسمها مهبيعة وانما سميت بالجحفة لأن السبل اجتحفها وحمل اهلها في بعض الاعوام وبينها وبين المدينة ست مراحل وبينها وبين غدير خم ميلان، للمزيد ينظر: الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ١١١.

(٣) سورة المائدة، الآية (٦٧).

فارتقى معه المنصة، عندها اخذ بيده ورفعها وخاطب الناس متسائلاً: من اولى الناس بالمؤمنين؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: اللهم من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره وأخذل من خذله»<sup>(١)</sup>. بعد ذلك انهى النبي ﷺ خطبته بهذا التبليغ الهام المتمم لأمر النبوة والرسالة الذي يصدق عليه قول الله تعالى: وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس.

كما امر النبي ﷺ ان تقام للإمام علي عليه السلام خيمة جلس فيها واخذ يتلقى البيعة من المسلمين، إذ توافدوا عليه تباعاً يهتفون ويسلمون عليه ويباركون له بإمرة المؤمنين وهذا التشريف الالهي العظيم، فكان من بين من قام بذلك الفعل نساء النبي ﷺ وكبار الصحابة من بينهم عمر بن الخطاب الذي قال له: «بخ بخ لك يا علي اصبحت مولاي ومولى كل مؤمنة»<sup>(٢)</sup>، بعدها عادوا الى المدينة المنورة، وكان ذلك في شهر ذي الحجة من العام العاشر للهجرة.

نتوقف هنا عند موضوع اختيار الإمام علي عليه السلام لولاية امر المسلمين بعد فريضة الحج وقبل اسابيع معدودة من وفاة النبي ﷺ، لنطرح جملة من التساؤلات المفيدة لنا في مسألة قبول هذه الحادثة أو رفضها، لأننا امام خلاف إسلامي كبير حول حادثة البيعة بالولاية والخلافة في غدير خم، هنالك من يؤكد على وقوعها

(١) ورد ذكر هذا الحديث في الكثير من المصادر نذكر منها لا على الحصر: ابن حنبل، ابو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني (ت- ٢٤١هـ / ٨٥٥م)، مسند احمد، تحقيق: شعيب الارنؤوط واخرون، (مؤسسة الرسالة، بيروت، د. ت)، ج- ٢، ص ٤٣٤، ٢٦٢، ح- (٩٥٠-١٣١١)؛ الترمذي، سنن، ج- ٦، ص ٧٩، كتاب المناقب/ ح- (٣٧١٣)؛ النسائي، أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت- ٣٠٣هـ / ٩١٥م)، خصائص امير المؤمنين علي ابن أبي طالب، تحقيق: أحمد ميرين البلوشي، (مكتبة المعلا، الكويت، ١٩٨٦)، ص ٩٦؛ النيسابوري، الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم (ت- ٤٠٥هـ / ١٠١٢م)، المستدرک على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (دار الكتب العلمية، ط ٢، بيروت، ٢٠٠٢)، ج- ٣، ص ١١٨، كتاب معرفة الصحابة/ ح- (٤٥٧٦)؛ ابن كثير، البداية، ج- ٥، ص ٢٢٧-٢٢٩؛ الهيثمي، نور الدين علي ابن أبي بكر (ت- ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت)، ج- ٩، كتاب المناقب، ص ١٠٣-١٠٤؛ الاميني، عبد الحسين احمد (ت- ١٣٠٩هـ / ١٩٧٠م)، الغدير في الكتاب والسنة والادب، (مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٤)، ج- ١، ص ٢٧-٣٠.

(٢) ابن كثير، البداية، ج- ٥، ص ٢٢٩؛ الاميني، الغدير، ج- ١، ص ٣٠.

ويُحمل الصحابة الذين حضروا هذه الواقعة مسؤولية التنصل وعدم الالتزام بما ورد فيها من بيعة تامة بحضور النبي ﷺ، في المقابل اخرون يصرون على نفي البيعة للإمام علي عليه السلام في غدير خم والتأكيد على ان رسول الله ﷺ لم يوص بالخلافة لاحد حتى وفاته. إذن نحنُ إزاء احداث وتفاصيل بحاجة الى التدقيق وإعادة النظر في سياقها العام لاسيما الاحداث والتطورات التي وقعت بعد حجة الوداع حتى يوم وفاة النبي الاكرم ﷺ.

السؤال الاهم هنا: هل كانت الامة الإسلامية بحاجة الى تحديد وتعيين شخص يقوم مقام النبي ﷺ بعد وفاته في عملية اكمال توضيح مباني هذا الدين؟ اذا كانت هنالك حاجة وضرورة لتحديد شخص ما وتعيينه ليقوم مقام النبي ﷺ بعد وفاته. يا ترى ماهي المواصفات التي يجب ان يتمتع بها هذا الشخص؟

من المعروف ان النبي ﷺ كان يؤدي ادواراً متعددة وبالغة الاهمية منها: دعوة الناس للإسلام وتبليغهم بأوامر الله تبارك وتعالى واحكامه وتشريعاته، وهذا التبليغ كان يتطلب في الكثير من الاحيان التفسير والتوضيح والتعليم، لان تلك الاحكام التي امر الله تعالى بها الواردة في نصوص القرآن الكريم كانت بحاجة الى عملية تفسير وتوضيح تفصيلية وتطبيق بعض تلك الاحكام على نفسه لتكون اكثر وضوحاً امام المسلمين كافة، إذن هو كان يمارس دوراً كبيراً في عملية الإشراف على فهم المسلمين لتلك الاحكام وتطبيقها تطبيقاً سليماً. كما انه كان يختبر المسلمين ليعلم درجة فهمهم واستيعابهم لما نزل عليهم من الاحكام والتشريعات في القرآن الكريم، فيستمع لبعضهم عند قراءة القرآن ويسأل بعضهم عن فهمه لتلك الآيات ثم يصحح لمن كان على خطأ، فضلاً عن التساؤلات الكثيرة التي كان يجيب عنها.

أدواراً آخر كانت له في رعاية المجتمع الإسلامي الناشئ وإدارة شؤونه، ذلك المجتمع الذي ابتداءً بحدود المدينة المنورة ثم اتسع ليشمل مكة والطائف وعموم شبه الجزيرة العربية، وكان النبي ﷺ يقوم بدوره كرجل مسؤول عن هذا المجتمع الإسلامي بأعداد نفوسه الكثيرة ومشاكله المختلفة التي تتطلب معالجات وحلول مستمرة، فضلاً عن ذلك كله كان يقوم بدور القيادة العسكرية لجميع التحركات

والانشطة المسلحة، فهو الذي يخطط ويوجه الجهود ويضع استراتيجيات التعامل مع الخصوم والاعداء، ومن ثم فان هذه المهام المتعددة التي كان يقوم بها النبي ﷺ انما تضعنا إزاء تصور واضح للإمكانات والقدرات العالية التي تمتع بها على مستوى الادارة والتخطيط والقيادة والتعليم، مكنته من النجاح في وضع الاساس لبناء مجتمع انساني صالح مختلف عن واقع المجتمع الجاهلي والشروع بعملية البناء السليمة التي استغرقت ما تبقى من حياته.

لقد شكلت وفاة النبي ﷺ في السنة الحادية عشرة للهجرة عملية إيقاف لكل حالات البناء والتطور على واقع المجتمع الإسلامي. إن غيابه عن الإشراف والقيادة والادارة والحكم كان بحاجة الى عملية تعويض من شخصية يتمتع بالإمكانات والقدرات التي تمتع بها، هذا ما لم يحصل بعد وفاته!! فالخليفة الاول أبي بكر وكذلك الثاني عمر بن الخطاب والثالث عثمان بن عفان لم يكن أي منهم بمستوى النبي الاكرم ﷺ في فهم الدين واحكامه أو قيادة الامة وادارة شؤونها وفق منهج سليم يحقق العدالة الاجتماعية.

إن الأعمال التي قام بها النبي ﷺ في بناء المجتمع على اسس صحيحة بالرغم من عدم اكتمال حالة البناء هذه بسبب وفاته، تشبه الى حد كبير عمل البناء وهو يقوم بتشيد جدار والمباشرة ببنائه بطريقة صحيحة، فلو افترضنا ان هذا البناء توفي قبل اكتمال الجدار، فانهم سيلجؤون الى بناء اخر بمستوى مهارة البناء الاول لإكمال الجدار من دون عيوب، والا فان اسناد العمل الى شخص اخر غير كفوء معنى ذلك ان الجدار سيكون مليء بالعيوب. في الواقع هذا ما كان المجتمع الإسلامي بحاجة اليه عند وفاة النبي ﷺ، كانوا بحاجة الى رجل بمستوى قدراته وامكانياته لإكمال قيادة الامة وتعليمها وبنائها بصورة سليمة خالية من العيوب، كانوا بحاجة الى رجل يفهم الاحكام والتشريعات القرآنية قادر على حل جميع الاشكاليات الطارئة في داخل المجتمع على وفق إرادة الله تعالى ومشيتته والمؤدية الى البناء السليم والعدل وعدم الانحراف.

في تقديري ان الصحابة مع كل الاحترام والتقدير لما قدموه من تضحيات عظيمة

لا يمكن إنكارها، فانهم لم يمتلكوا تلك القدرات التي تؤهلهم لقيادة المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ، لقد اثبتت الوقائع التاريخية اللاحقة ان من تولوا المسؤولية والحكم بعده لم يكونوا مؤهلين لا على مستوى فهمهم للتشريعات والاحكام الواردة في القرآن الكريم، ولا في قدرتهم على مواجهة التحديات والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي عصفت بالأمة الإسلامية، لذلك تساءلنا في مستهل الحديث عن حاجة النبي ﷺ واضطراره إلى تعيين من سيخلفه بعد وفاته، وهذا الاختيار والتعيين لاشك في أنه مرتبط بالقدرات والامكانيات، ولاشك في أنه اختيار الهي وليس اجتهداً من النبي ﷺ.

ان اختيار الله تعالى علي بن أبي طالب ﷺ لإتمام ما شرع به النبي ﷺ في مسيرة بناء المجتمع واصلاحه انطلاقاً مما يمتلكه من فهم ومعرفة عالية بنصوص القرآن الكريم وتشريعاته واحكامه وقدرته على تحقيق العدالة الاجتماعية التي هي الاساس في اكمال البناء السليم للمجتمع، لذلك جاء اختيار الله تعالى له، وبمنظرة افتراضية لو كان الإمام علي ﷺ قد تولى الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة في السنة الحادية عشرة للهجرة، فإنه سوف يستمر خليفة للمسلمين وولياً لأمرهم ثلاثين عاماً حتى لحظة استشهاده في سنة أربعين للهجرة<sup>(١)</sup> معنى ذلك ان الله تعالى قدّر حاجة الأمة الإسلامية زمنياً لاكتمال الاصلاح على يد الإمام علي ﷺ بحدود الثلاثين عاماً، وهي مدة كافية بما امتلكه الامام ﷺ من مقومات عقلية ومعرفية وإنسانية كبيرة لإكمال عملية بناء المجتمع الإسلامي على افضل صورة.

إن اختيار الله تبارك وتعالى للإمام علي ﷺ في ان يكون خليفة للنبي ﷺ هو جزء من الرعاية الالهية والطف الالهي بعباده، هذا الاختيار في تقديره كان توجيهياً وإرشادياً لمن اراد طاعة الله تعالى، ولم يكن مفروضاً على المسلمين لان الله تعالى ترك لهم حرية الاختيار، فأما ان يمضوا على وفق ما ارشدهم اليه رب العزة فيحافظون على مسارات البناء السليمة لمجتمعهم، واما ان يكون لهم خيار

(١) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٢١٢؛ الطبري، تاريخ، ج٤، ص ١٥٢؛ لمسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص ٤١١.

آخر مختلف عن ذلك التوجيه والإرشاد الإلهي فيتحملون مسؤولية الانحرافات التي ستصيب مسارات بناء المجتمع.

من اللافت هنا افتقارنا الى نصوص واضحة وصريحة وخالية من التلاعب للاحداث التي شهدتها المدينة المنورة في الايام التي اعقت حجة الوداع حتى وفاة النبي ﷺ، ان المطامح السياسية والتكتلات الضيقة التي شهدتها تلك الحقبة قد عملت على اخفاء كثير من الحقائق، فجاءت المرويات بسياقات غطت على بعض المواقف غير المقبولة عند الاجيال اللاحقة من المسلمين، كما أسهم ذلك في ابتكار وصناعة احداث ليس لها اي وجود على ارض الواقع، فإزاء حالات الغموض والتلاعب التي حفلت بها النصوص التاريخية لهذه الحقبة الزمنية القصيرة من حقنا ان نعلم حقيقة الاجواء التي خيمت على وجوه كبار الصحابة وقلوبهم بعد سماعهم النبي ﷺ في غدير خم وهو يقول ان اميركم ووليكم وخليفتي فيكم هو علي بن أبي طالب عليه السلام؟ هل نال هذا الخبر قبولهم ورضاهم الحقيقي ام انهم تظاهروا بالقبول إرضاءً للنبي ﷺ؟ هل شهدت جلساتهم الخاصة بعد وصولهم المدينة المنورة تداول هذا الامر ومناقشته؟ هل عبر بعض الصحابة لمن يثقون بهم عن رفضهم لولاية علي بن أبي طالب عليه السلام؟.

من الطبيعي ان تشهد جلسات الصحابة الخاصة مناقشة هذا الامر، والتداول فيمن يستحق تولي الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ ما أسهم كما نظن في تحشيد فكرة رفض ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام ونضوجها عند بعض الصحابة الكبار ولا سيما الطامحون إلى سدة الحكم، إننا إزاء شخصيات لها ثقل كبير وتأثير واضح في بعض المسلمين كزعماء الأوس والخزرج أو شخصيات مؤثرة من المهاجرين فضلاً عن وجود بعض زعماء القبائل الكبيرة الذين دخلوا في الإسلام حديثاً، هؤلاء كانوا في واقع الامر يرون في انفسهم انهم مؤهلون لقيادة الامة لذلك نعتقد انهم أسهموا بدرجة عالية في بلورة فكرة رفض ولاية الإمام علي عليه السلام وتنضيجها، الا ان فكرة الرفض هذه لم تُعلن ولم يجري الحديث فيها الا بين الثقة من الصحابة وبشكل خاص ومحدود جداً في الايام التي سبقت وفاة النبي ﷺ.



### عودة النبي ﷺ إلى المدينة (أيامه الأخيرة)

بعد عودة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة فيما تبقى من شهر ذي الحجة ثم شهر محرم من السنة الجديدة الحادية عشرة للهجرة وشهر صفر الذي شهدت نهايته وفاة النبي ﷺ، وكان واضحاً لدى أهل المدينة أن هذه المدة الوجيزة التي قضاها النبي ﷺ بينهم هي أيامه الأخيرة. السؤال هنا يوجه لمن يعتقد بأن النبي ﷺ لم يحدد شخصاً لخلافته وترك الأمر للمسلمين: لماذا لم توجه للنبي ﷺ في هذا الوقت بالتحديد أية تساؤلات من المسلمين بشأن خليفته فيهم من بعده!! ألم يُعبروا لهذا الأمر أية أهمية وهم جزء من ثقافة القبيلة والصراع على الزعامة والسلطة!! أم أنهم سألوا النبي ﷺ عن ذلك وأجابهم، فإن هي الإجابة؟ إذ لا نجد رواية واحدة تتحدث عن هذا الأمر، هل مُنعت وحذفت من كتب الحديث والسيرة والتاريخ؟ لا اعتقد ذلك، فمثل هذا السؤال لم يوجه إلى النبي ﷺ في أيامه الأخيرة لأن معظم أهل المدينة قد شهدوا تنصيب الإمام علي عليه السلام بالولاية في غدير خم، وأصبح معلوماً لديهم ولدى غيرهم ممن لم يشهدوا ذلك التنصيب أن الاختيار قد وقع عليه، إذن لم تكن هنالك من حاجة لطرح مثل هذه الأسئلة، ومن الغريب أن هذا النوع من الأسئلة كان يوجه لرسول الله ﷺ في سنوات دعوته الأولى حين كان يلتقي زعماء القبائل في موسم الحج بمكة ويدعوهم إلى الإسلام، ففي إحدى لقاءاته مع زعماء قبيلة كندة سبق أن أشرنا إليه في الصفحات السابقة، طلبوا من النبي ﷺ أن يكون المُلْك والحكم لهم من بعده ثمناً لقبولهم بدعوته، فأجابهم بأن المُلْك لله يجعله حيث يشاء. إذن التفكير بالحكم من بعد النبي ﷺ لم يكن غائباً عن أذهان أصحاب الطموحات السياسية من المسلمين وفي مراحل الدعوة وحيثُ شارفت على نهايتها.

إن الدافع الحقيقي في إيرادنا هذه التساؤلات وتقديماً رؤية افتراضية في بعض الأحيان هو عدم قناعتنا بما ورد في النصوص التاريخية، وليس المقصود من ذلك فرض ما نؤمن به أو تشويهاً للحقيقة التاريخية إطلاقاً. إذ أننا أدركنا العجز الواضح في المرويات فلم نعتمد منهج التسليم لكل ما ورد فيها من أحداث وأخبار، إنما



غايتنا الوقوف على الحقيقة على وفق القناعات الموضوعية المُحايدة وتقديمها الى القارئ كما هي، انا هنا لا نتبنى اي طرف ولا ننقل فكرة اي احد، نسعى الى تقديم سياق معتدل وسليم ومقبول للسيرة النبوية عند جميع المسلمين بمختلف توجهاتهم، لا نريد استفزاز احد ولا الميل لمصلحة احد.

قد يسأل بعضهم كيف لنا ان نصدق ان النبي ﷺ يخطب في الناس في غدير خم ويعلن الولاية والخلافة من بعده لعلي بن أبي طالب ﷺ ثم يبيع كل من حضر من المسلمين، بعدها يعودون الى المدينة المنورة ويقضون ما يُناهز الخمسة والسبعين يوماً، ثم يتصلون عن بيعتهم تلك، مع علمهم أنه أمر الله تعالى وليس اختيار النبي ﷺ؟ إزاء تساؤل منطقي كهذا: بيعة تمت في منتصف شهر ذي الحجة وحالة تنصل وإنكار في اليوم الثامن والعشرين من شهر صفر في يوم وفاة النبي ﷺ، بل قبيل وفاته حين اراد كتابة الوصية، هذا المقدار المحدود من الزمن لا يؤثر حتماً على مساحة الذاكرة ولا يؤدي الى النسيان، لذلك فان ما حصل يوم وفاة النبي ﷺ وما اعقبه كانت حالة تنصل مقصودة ستحدث عنها لاحقاً بالتفصيل.

قد يظن بعضهم ان النبي ﷺ حظي بمكانة كبيرة وقدسية عالية عند الصحابة - وهذا لا ينكر ابداً - ولكن من يظن ان هذه القدسية وهذه المكانة جعلت المسلمين يذوبون جميعهم في طاعته وعدم معصية اوامره، وإن أمرهم النبي ﷺ بمبايعة الإمام علي ﷺ بالخلافة من بعده فانه واهم جداً، فالصحابة في اكثر من حادثة وموقف خالفوا اوامر النبي ﷺ واعترضوا على قراراته ولدينا من الشواهد كثير فعلى سبيل المثال ما جرى في صلح الحديبية حين اعترض بعض الصحابة الكبار على عقد النبي ﷺ الصلح مع قريش، بحجة ان المسلمين في تلك المرحلة اقوى من قريش واقدر على كسر شوكتهم.

تكرار عدم الطاعة سجلتها أحداث غزوة تبوك باعتراض بعض المسلمين ورفضهم المشاركة والخروج في هذه الغزوة حين صدر الأمر من النبي ﷺ بشمول معظم المسلمين النفر إلى العدو والخروج لقتاله.

من اعتراضاتهم ومخالفاتهم أوامر النبي ﷺ تخلفهم عن الغزوة التي أراد إرسالها إلى أرض الشام بقيادة أسامة بن زيد قبل وفاته فلما أمر بتجهيز هذه الحملة والإسراع في الخروج من المدينة، ودعا معظم الصحابة الكبار إلى الالتحاق بها بإمرة القائد الصغير أسامة بن زيد الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره<sup>(١)</sup>، إلا أن الصحابة لم ينفذوا ما أمرهم به من الإسراع في الخروج بالغزوة وكانت هنالك مماطلات واضحة لتعطيل الخروج من المدينة.

إذن مسألة الاعتراضات كانت موجودة في حياة النبي ﷺ ويمكن أن نقول بثقة عالية أن الاعتراضات من داخل صفوف المسلمين أصبحت ظاهرة لا يمكن إنكارها بعد اتساع نطاق البيئة التي خضعت لسيطرتهم، فكلما وجدنا المسلمين يتوسعون في المساحة وعدد الداخلين في الإسلام وجدنا تزايد نسبة الاعتراض على قرارات النبي ﷺ.

لقد ألح النبي ﷺ كثيراً على الصحابة لأجل الإسراع بالخروج في جيش أسامة نحو الشام، وكان الإبطاء والتأخير سبباً في غضبه وسخطه. فلماذا كان النبي ﷺ يلح في ذلك الأمر؟ ولماذا اشرك جميع الصحابة الكبار في هذا الجيش واستثنى الإمام علي عليه السلام من الخروج؟ إن موقف الصحابة كان واضحاً في أنهم لم يرغبوا بمغادرة المدينة في هذا الوقت تحديداً لإدراكهم بأن تلك الأيام كانت الأخيرة من حياة النبي ﷺ وفيها سيتم تحديد مستقبل الخلافة وشكلها.

لقد أدرك النبي ﷺ حجم الاعتراض والرفض لولاية علي بن أبي طالب عليه السلام بعد الإعلان عنها في غدير خم، مع أنه لم يكن اعتراضاً معلناً إلا أن ذكاء النبي ﷺ وحنكته تؤهله لملاحظة هذا الأمر، لذلك فمن الطبيعي أن تكون له خطط عملية لمواجهة التيار المعارض الذي أخذ يتبلور وينضج بشكل تدريجي بعد العودة للمدينة المنورة، وإحدى تلك الخطط التي لجأ إليها لمواجهة المعارضين أنه فكر

(١) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ١١١٧-١١٢٠؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٠٢٥؛ ابن سعد، الطبقات، ٤م، ج٢، ص ١٣٦-١٣٧؛ يعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ١١٣؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ١٨٤-١٨٥؛ السهيلي، الروض الأنف، ج٧، ص ٥١٢.

في عملية افراغ المدينة من الصحابة الكبار الذين قد يشكلون معارضة قوية لضمان انتقال الحكم والخلافة إلى الإمام علي عليه السلام بشكل هادئ وسلمي، لذلك امر بإرسال جيش المسلمين إلى الشام على وجه السرعة ودعا كبار الصحابة للاشتراك فيه بإمرة اسامة بن زيد، إلا أن المماطلة وتأخير خروج هذا الجيش وبقاء الصحابة في المدينة أو بالقرب منها أمور أسهمت في إعاقة خطة النبي ﷺ.

فلما أصيب النبي ﷺ بالمرض واشتد عليه، ايقن أن العقبات ستكون كبيرة في انتقال الخلافة إلى الإمام علي عليه السلام، فلجأ إلى المحاولة الأخيرة في تثبيت الحجة بولايته ودفع أي شكل من أشكال المعارضة، فبينما كان النبي ﷺ على فراشه يعاني من مرضه تجمع حوله جماعة من أهل بيته وأصحابه، فطلب منهم أن يأتوه بدواة وقلم ليكتب لهم كتاباً (وصية) لعلها تكون طوق النجاة الأخير لهم، نعتقد أنها كانت التأكيد والتذكير على ما تم في غدير خم، لأنه لم يكن مطمئناً لما شاهده من تمرد في الأيام الأخيرة من حياته الشريفة، إلا أن طلب النبي ﷺ هذا لم يلقَ التفاعل والأصغاء، فقد عم اللغط وكثر الكلام من حوله، فقال عمر بن الخطاب (إن النبي غلبه الوجد) أو (إن الرجل ليهجر) عندنا كتاب الله، بمعنى أنه لا حاجة لنا بأية وصية مع وجود القرآن الكريم في إشارة واضحة إلى أن كل ما سيوصي به لن يكون من وعيه وأدراكه!!!<sup>(١)</sup>، بعدها اعترض من كان حاضراً من أهل بيته على هذا الكلام واختصموا وكثر اللغط عند النبي ﷺ، فقال لهم قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع<sup>(٢)</sup>.

### وفاة النبي ﷺ وسقيفة بني ساعدة

توفي النبي ﷺ في يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر صفر السنة الحادية عشرة للهجرة/ الثالثة والعشرين للبعثة<sup>(٣)</sup>، في مشهد مؤلم وحزين ومؤثر لقسم كبير من المسلمين، وتكاد تُجمع المرويات على أن النبي ﷺ فارق الحياة وهو

(١) ابن سعد، الطبقات، م، ٥، ج٢، ص ٣٦-٣٧؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ١٩٣.

(٢) ابن سعد، الطبقات، م، ٥، ج٢، ص ٣٧.

(٣) الواقدي، المغازي، ج٣، ص ١١٢٠؛ ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٠٢٥؛ ابن سعد، الطبقات، م، ٤، ج٢، ص ١٢٦-١٢٧؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ١٩٩.

في حجر الإمام علي عليه السلام كما رواه ابن سعد قائلاً: «توفي رسول الله ﷺ ورأسه في حجر علي»<sup>(١)</sup>. ثم انه تولى امر تجهيزه ودفنه في اليوم نفسه الذي توفي فيه بمساعدة رجال من بني هاشم وبعض اهل المدينة، اما كبار الصحابة ورؤوس القوم فقد كانوا منشغلين بامر الخلافة والنزاع في سقيفة بني ساعدة، ولم يحضروا تجهيز النبي ﷺ ولا دفنه.

يبدو ان تحركات المعارضة لولاية الإمام علي عليه السلام قد بدأت تتضح وتظهر للعلن في اللحظات الاولى من اعلان وفاة النبي ﷺ، فبينما كان امير المؤمنين وابناء عمومته منشغلين بتجهيز النبي ﷺ ودفنه، توجه الطامحون إلى سدة الحكم إلى مركز النزاع المتمثل بسقيفة بني ساعدة، ونحن لا نتحدث عن فريق واحد فالرغبة بالخلافة كانت موجودة وتتنامي بقوة عند جماعة من الانصار وبالمستوى نفسه عند جماعة من المهاجرين، فلما حان الوقت وقفوا يتنافسون ويتنازعون ايهم احق بها.

اما المرويات التي نقلها الطبري أو ابن إسحاق أو غيرهما من المؤرخين فلم تتمكن من نقل الحقيقة الكاملة، لان ما وصلنا لا يعدو ان يكون سياقاً مصطنعاً لا يكشف عن حقيقة الدوافع والاهداف التي حملها كل من حضر اجتماع السقيفة، فلم يتحدث كل من حضر السقيفة حول اسباب حضوره وموقفه بصراحة وصدق ولم يُظهروا دوافعهم الحقيقية في ذلك، كل فرد منهم حاول ان يقدم صورة مثالية عن دوافعه في حضور الاجتماع.

سقيفة بني ساعدة تقع في الجهة الشمالية الغربية من المسجد النبوي الشريف بين مساكن بني ساعدة وهم من بني الخزرج، هذه السقيفة هي عبارة عن مكان صغير تظله مظلة من سعف النخيل تتوسط مزرعة وبعض البيوت المتفرقة، وهي تعود لرجال من بني ساعدة يجتمعون فيه كمجلس لهم، وهو قد لا يتسع لعدد كبير من الرجال. هذا المكان في يوم وفاة النبي ﷺ اجتمع فيه الانصار وكانوا عازمين

(١) ابن سعد، الطبقات، م، ٥، جـ ٢، ص ٢٦٣.

على اختيار سعد بن عباد ومبايعته - وهو من شيوخ الخزرج - ليكون خليفة النبي ﷺ، كان سعد هذا رجلاً كبيراً مرهقاً عندما جيء به لحضور الاجتماع، هذه الاجراءات توحى الى وجود تيار معارض وقوي من بين اهل المدينة تحديداً من الخزرج لا يرغبون بتولي الإمام علي عليه السلام للخلافة ويطمعون بها لأنفسهم، على ما يبدو ان هذه التحركات كانت لها مقدمات مبكرة واتفاقات مسبقة، وهم كانوا يترقبون لحظة وفاة النبي ﷺ للمباشرة بإعلان موقفهم والسعي للحصول على السلطة والخلافة، معنى ذلك ان الاجتماع في سقيفة بني ساعدة لم يكن طارئاً كردة فعل عفوية، انما كان مخططاً له وهو جزء من محاولات انتزاع السلطة من المهاجرين ومبايعة سعد بن عباد بالخلافة<sup>(١)</sup>.

الامر الآخر موقف الصحابة المهاجرين من البيعة للإمام علي عليه السلام، ونخص بالذكر هنا أبا بكر وعمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح. الرواية تقول بعد اعلان وفاة النبي ﷺ وانشغالهم مع الناس بهول الخبر والصدمة والحزن، وقبل الإعداد للتجهيز والدفن علم عمر بن الخطاب ان الانصار مجتمعون في سقيفة بني ساعدة لامر يخص الخلافة، فقام بإبلاغ أبي بكر واصطحبته الى مكان ذلك الاجتماع وفي الطريق التقوا بأبي عبيدة بن الجراح فاصطحبوه معهم<sup>(٢)</sup>، ان مجريات هذا السياق لا تظهر أية دوافع شخصية لهذا الفريق من الصحابة، بل تجعل موقفهم من المواقف الشجاعة الساعية لمواجهة الاطماع الاخرى بالخلافة، ومن الغريب جداً ان كل الرواة لم يتحدثوا عن رغبة هؤلاء بالخلافة، بل جعلوهم من الزاهدين بها وهذا ما يدعو للشك في سياق ما وصلنا من مرويات حول طريقة توجه كل من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة الى اجتماع السقيفة.

اما عن التناقض الكبير في موقف عمر بن الخطاب من خبر وفاة النبي ﷺ وهول الصدمة التي اصابته عند اعلان الخبر، نجده بعد لحظات قليلة يُسارع الخُطى للحاق بمن اجتمع في سقيفة بني ساعدة وانتزاع الخلافة منهم!! فكيف

(١) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٠٧١-١٠٧٣؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ١٢٣؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٢١٩؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ١٨٩.

لشخص يصاب بالفاجعة والصدمة والحزن الشديد على اثر فقدان شخص غالي وعزيز يتحول في ذات اللحظة الى حالة من الوعي الكامل يناظر وينازع الاخرين حول السلطة والحكم!!.

نعود الى مجريات السقيفة حسب المرويات: كان الانصار مجتمعين عند سقيفة بني ساعدة حين اقبل عليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، فأخذوا يتداولون في فضائلهم وما قاموا به من نصرة رسول الله ﷺ والإسلام مما لم تسبقهم اليه قبيلة من القبائل، لذلك فهم الاجدر بخلافته ويجب ان يكون الامر فيهم، وكانوا قد اتفقوا على سعد بن عبادة لهذا المنصب بالرغم من كونه شيخاً مريضاً، ثم تولى احدهم الحديث نيابةً عنه فمن بين ما قاله: «ان يا معشر الانصار انتم لكم السابقة في الدين والفضيلة في الإسلام لم تكن لقبيلة غيركم من العرب ما كانت لكم وان محمد ﷺ قد بقى بضعة عشرة سنة مع قومه يدعوهم ولا يستجيبون حتى كانت لكم الفضيلة في تصديقه والايامن به وخصكم الله بهذه النعمة فرزقكم الايمان بدعوته وقد كتتم بأسيا فكم تدافعون عنه وقد فتح الله الارض بذلك الدور العظيم الذي قمتم به حتى توفاه الله عنكم وهو راض فلتلك المواقف يجب ان تكون الخلافة فيكم»<sup>(١)</sup>، ثم بعد ذلك تزايد الحديث بين المجتمعين حتى اقترح جماعة ان يكون امير من الانصار وامير من المهاجرين كأقصى ما يمكن القبول به<sup>(٢)</sup>. بعد ذلك تحدث أبو بكر بن أبي قحافة طويلاً مُعرباً عن فضل الانصار في نجاح امر الدعوة ولكنه دعا الى جعلهم بمكانة الوزراء واهل المشورة والمشاركة بالرأي اما الامارة فللمهاجرين من قريش، بعدها تحدث عمر بن الخطاب فقال: «هيهات لا يجتمع اثنان في قرن والله لا ترضى العرب ان يؤمروكم ونيها من غيركم ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين من

(١) الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٢١٨؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ١٩١-١٩٢.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٢١٨.

ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدَلّ بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة»<sup>(١)</sup>.

فاحتدمت المنافسة بين الانصار والمهاجرين واخذ احدهم يهدد الآخر بالقتل، حصل ذلك بين عمر بن الخطاب والحباب بن المنذر، فتدخل بشير بن سعد وهو من الاوس وقال: «يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً فإن الله ولي المنة علينا بذلك، ألا إن محمداً ﷺ من قريش وقومه أحق به وأولى وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم»، ان موقف بشير بن سعد هذا أسهم بدرجة عالية في ترجيح كفة المهاجرين على الخزرج، ولا نعلم على وجه الدقة دوافعه من اتخاذ هذا الموقف الا انه من الواضح كانت هنالك رغبة من رجال الاوس ان لا يتحول امر الخلافة الى الخزرج. ثم قام بشير بن سعد ومن خلفه بعض رجال الاوس وبايعوا أبا بكر بن أبي قحافة بالخلافة وقام أسيد بن حضير وهو من زعماء الاوس كذلك بايع أبا بكر وهكذا انكسر الطرف الثاني وفشل المؤيدون لسعد بن عباد في وصوله إلى الخلافة<sup>(٢)</sup>.

في اليوم التالي بويع أبو بكر البيعة العامة فكانت تلك البيعة تؤخذ بالإكراه أو الطوعية، بعد ان شكل عمر بن الخطاب فرقة للضغط على من يمتنع من المسلمين عن البيعة، اما موقف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وبني هاشم الذين كانوا منشغلين بدفن النبي ﷺ والحزن على فقده، فقد اعترضوا بشكل واضح وصريح على ما تم في سقيفة بني ساعدة، هذا الموقف الرافض كان كذلك لمجموعة من الصحابة الكبار الذين بلغ عددهم اثني عشر رجلاً هم: خالد بن سعيد بن العاص، وسلمان الفارسي، وابو ذر الغفاري، والمقدار بن اسود الكندي، وعمار بن ياسر،

(١) الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٢١٩-٢٢١.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٠٧٣-١٠٧٤؛ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ١٢٣؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٢٢١-٢٢٢؛ ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ١٩٣-١٩٤.

وبريد الاسلامي وهؤلاء جميعهم من المهاجرين، وكان من الانصار أبو الهيثم بن التيهان، وسهل بن حنيث وأخيه عثمان، وخزيمة بن ثابت، وأبي بن كعب، وأبو ايوب الانصاري وهؤلاء جميعهم من كبار الصحابة والمقربين من رسول الله ﷺ لتقواهم وطاعتهم العالية لله تعالى، شهدوا المواقف العظيمة وثبتوا فيها دون تردد، جاء رفضهم لبيعة أبي بكر تمسكاً منهم بالبيعة التي تمت في غدير خم، الا انهم لم يسلموا بموقفهم هذا، فالضغوط والتهديدات مورست ضدهم بكل اشكالها من اجل اجبارهم على البيعة لابي بكر<sup>(١)</sup>.



(١) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ١٢٤؛ ابن كثير، البداية، ج٥، ص ٢٢٩-٢٣٠.





## قائمة المصادر

- القرآن الكريم

أولاً: المصادر العربية

- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (ت - ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م).  
١ - الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧).
- الأزرق، أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت - ٢٥٠هـ / ٨٣٧م).  
٢ - أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح، (دار الأندلس، ط٣، بيروت، ١٩٨٣).
- الأميني، عبد الحسين أحمد (ت - ١٣٠٩هـ / ١٩٧٠م).  
٣ - الغدير في الكتاب والسنة والادب، (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٤).
- ابن إسحاق، حمد بن اسحاق بن يسار المطلبي (ت - ١٥١هـ / ٧٦٨م).  
٤ - سيرة ابن إسحاق (المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي)، تحقيق: محمد حميد الله، (معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرياض، لا. ت).  
• البغدادي، أبي جعفر محمد بن حبيب (ت - ٢٤٥هـ / ٨٥٩م).  
٥ - المحبر، تحقيق: ايلزه ليختن شتير، (دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت).
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت - ٢٧٩هـ / ٨٩٢م).

- ٦- فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦).
- البيهقي، أبي بكر أحمد بن الحسين (ت-٤٥٨هـ/١٠٦٥م).
- ٧- دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلنجي، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨).
- البيروني، أبي الريحان محمد بن أحمد (ت-٣٦٢هـ/١٠٤٨م).
- ٨- الآثار الباقية من القرون الخالية، (مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٨).
- الترمذي، أبي عيسى محمد بن عيسى (ت-٢٧٤هـ/٨٩٢م).
- ٩- سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦).
- ابن حنبل، أحمد بن محمد (ت-٢٤١هـ/٨٥٥م).
- ١٠- المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧).
- الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت (ت-٦٢٢هـ/١٢٢٩م).
- ١١- معجم البلدان، (دار صادر، بيروت، ١٩٩٣).
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت-٤٦٣هـ/١٠٧١م).
- ١٢- تقييد العلم، تحقيق يوسف الغش (د. مط، بلا. م، ١٩٧٤).
- الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان (ت-٧٤٨هـ/١٣٤٨م).
- ١٣- سير أعلام النبلاء، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١).
- الزرقاني، أبي عبد الله محمد بن عبد الباقي (ت-١١٢٢هـ/١٧١٠م).
- ١٤- شرح الزرقاني على موطأ مالك، (المطبعة الكاستليه، مصر، ١٨٦٣).
- الزمخشري، أبي القاسم محمود بن عمر (ت-٥٣٨هـ/١١٤٣م).
- ١٥- الجبال والأمكنة والمياه، (بريل، ليدن، ١٨٥٥).
- السجستاني، أبوبكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث (ت-٣١٦هـ/٩٢٨م).

- ١٦- المصاحف، تحقيق: آرثر جفري، (المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٣٦).
- ١٧- سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، (دار الرسالة العالمية، دمشق، ٢٠٠٩).
- ابن سعد، محمد بن منيع (ت-٢٣٠هـ/ ٨٤٤م).
- ١٨- الطبقات الكبرى، (دار التحرير، القاهرة، ١٩٦٨).
- السُّهيلي، عبد الرحمن (ت-٥٨١هـ/ ١١٨٥م).
- ١٩- الروض الآنف في شرح السيرة النبوية، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، (دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٧).
- ابن سيد الناس، محمد بن عبد الله بن يحيى (ت-٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م).
- ٢٠- عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، (مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦).
- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي البكر (ت-٩١١هـ/ ١٥٠٥م).
- ٢١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، (دار المعرفة، بيروت، لا.ت).
- الشهرستاني، أبي الفتح محمد بن عبد الكريم (ت-٥٤٨هـ/ ١١٥٣م).
- ٢٢- الملل والنحل، تحقيق: أحمد فهمي، (دار الكتب العلمية، ط ٢، بيروت، ١٩٩٢).
- الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت-٣٨١هـ/ ٩٩١م).
- ٢٣- الخصال، تحقيق: علي أكبر غفاري، (مؤسسة النشر الإسلامي، ط ٢، قم، ١٩٨٣).
- ٢٤- علل الشرائع، (المطبعة العلمية، ط ٢، قم، ١٩٨٨).
- الطبرسي أبي علي الفضل بن الحسن (ت-٥٤٨هـ/ ١١٥٣م).
- ٢٥- مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين، (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٥).
- الطبري، جعفر محمد بن جرير (ت-٣١٠هـ/ ٩٢٢م).

- ٢٦- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (دار المعارف، ط٢، القاهرة، ١١١٩).
- الطبري، محب الدين أحمد بن عبد الله (ت-٦٩٤هـ / ١٢٩٥م).
- ٢٧- ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، تحقيق: محمد أمين طناوي، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧١).
- الطوسي، أبي جعفر محمد بن الحسن (ت-٤٦٠هـ / ١٠٦٧م).
- ٢٨- الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، (دار الثقافة، قم، ١٩٩٣).
- القندوزي، سليمان بن إبراهيم الحسني.
- ٢٩- ينابيع المودة، (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٧).
- الكاشاني، محمد محسن الفيض (ت-١٠٩١هـ / ١٦٨٠م).
- ٣٠- التفسير الصافي، تحقيق: حسين الأعلمي، (مكتبة الصدر، ط٢، طهران، ١٩٩٦).
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت-٧٧٤هـ / ١٣٧٢م).
- ٣١- البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨).
- الكلبي، أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب (ت-٢٠٤هـ / ٨١٩م).
- ٣٢- جمهرة النسب، تحقيق: ناجي الحسن، (مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦).
- الكليني، محمد بن يعقوب (ت-٣٢٩هـ / ٩٤١م).
- ٣٣- فروع الكافي، (منشورات الفجر، بيروت، ٢٠٠٧).
- المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين (ت-٩٧٥هـ / ١٥٦٧م).
- ٣٤- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكرى الحياتي - صفوت السقا، (مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت، ١٩٨٥).
- المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت-٣٤٦هـ / ٩٥٦م).

- ٣٥- مروج الذهب ومعادن الجوهر، (دار الهجرة، ط٢، قم، ١٩٨٤).
- المفيد، محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم أبي عبد الله (ت-٤١٣ هـ/١٠٢٢ م).
- ٣٦- أوائل المقالات، تحقيق: ابراهيم الانصاري، (دار المفيد، ط٢، بيروت، ١٩٩٣).
- المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت-٣٨٠ هـ/٩٩٠ م).
- ٣٧- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (بريل، ليدن، ١٨٧٧).
- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد (ت-٨٤٥ هـ/١٤٤٢ م).
- ٣٨- امتاع الأسماع، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩).
- ابن مسلم، أبي الحسين مسلم بن الحجاج (ت-٢٦١ هـ/٨٧٥ م).
- ٣٩- صحيح مسلم، (دار الفكر، بيروت، د.ت).
- النسائي، أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت-٣٠٣ هـ/٩١٥ م).
- ٤٠- خصائص أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، تحقيق: أحمد ميرين البلوشي، (مكتبة المعلا، الكويت، ١٩٨٦).
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت-٧٣٣ هـ/١٣٣٣ م).
- ٤١- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: علي محمد هاشم، (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤).
- النيسابوري، الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم (ت-٤٠٥ هـ/١٠١٢ م).
- ٤٢- المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ٢٠٠٢).
- ابن هشام، محمد بن عبد الملك (ت-٢١٨ هـ/٨٣٣ م).

- ٤٣- السيرة النبوية، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (مكتبة محمد علي، القاهرة، ١٩٦٣).
- الهيثمي، نور الدين علي ابن أبي بكر (ت-٨٠٧هـ/١٤٠٤م).
- ٤٤- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت).
- الواقدي، أبي عبد الله محمد بن عمر (ت-٢٠٧هـ/٨٢٣م).
- ٤٥- المغازي، (بيتست مشن، كلكتة، ١٨٥٥).
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح (ت-٢٨٤هـ/٨٩٧م).
- ٤٦- تاريخ اليعقوبي، (دار صادر، بيروت، لا.ت).

#### ثانياً: المصادر العربية الحديثة

- أفاية، محمد نور الدين.
- ١- الغرب المتخيل - صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠).
- الخطيب، محمد عجاج.
- ٢- السنة قبل التدوين، (دار الفكر، بيروت، لا.ت).
- الدوري، عبدالعزيز.
- ٣- بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، (دار المشرق، بيروت، ١٩٨٣).
- العلي، صالح أحمد.
- ٤- دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الاسلام، (مؤسسة الرسالة، بيروت، لا.ت).

#### ثالثاً: المصادر الأجنبية

- ايرنست، كارل
- ١- على نهج محمد ﷺ إعادة التفكير في الإسلام في العالم المعاصر، ترجمة حمزة الحلايقة، (الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٨).

- بروكلمان، كارل
- ٢- تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، (دار العلم للملايين، ط ٥، بيروت، ١٩٦٨).
- بودلي
- ٣- حياة محمد، ترجمة محمد محمد فرج، (مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٨٩).
- بريمار، الفريد لويس دي
- ٤- تأسيس الإسلام بين الكتابة والتاريخ، ترجمة عيسى محاسبي، (دار الساقى، بيروت، ٢٠٠٩).
- بيترسن، أيلرنغ ليدوك
- ٥- علي ومعاوية في الرواية العربية المبكرة، ترجمة عبدالجبار ناجي، (مكتبة دار المجتبى، بيروت، ٢٠٠٩).
- فلهوزن، يوليوس
- ٦- تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام الى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده، (لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، القاهرة، ١٩٦٨).
- جولد تسيهر، اجنتس
- ٧- مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحلیم النجار، (مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٥).
- ٨- العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون، (دار الكتب الحديثة، ط ٢، مصر، د.ت).
- ريشار، يان
- ٩- الإسلام الشيعي عقائد وايدولوجيات، ترجمة حافظ الجمالي، (دار عطية للطباعة، بيروت، ١٩٩٦).
- لوبون، غوستاف
- ١٠- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، (مؤسسة الهنداوي للتعليم



- والثقافة، مصر، ٢٠١٣).
- ماسيه، هنري
- ١١ - الاسلام، ترجمة بهيج شعبان، (منشورات عويدات، ط٣، بيروت، ١٩٨٨).
- وات، مونتجمري
- ١٢ - محمد في المدينة، ترجمة شعبان بركات، (منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٥٢).
- ١٣ - محمد في مكة، ترجمة شعبان بركات، (منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٥٢).
- ولفسون، إسرائيل
- ١٤ - تاريخ اليهود في بلاد العرب: في الجاهلية وصدر الإسلام، (مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٢٧).
- *Caetani, Leone*  
-1 *Annali Dell Islam, (Milano, 1905).*

#### رابعاً: الدوريات

- الدافوقي، حسين علي
- ١ - «معركة طلس والصراع الحضاري بين العرب والصين» بحث منشور في مجلة دراسات للأجيال، العدد الثالث، (بلا.م، ١٩٨٧).
- الغزالي، مشتاق بشير
- ٢ - «نظرة تحليلية في كتاب حياة محمد للمستشرق وليم ميور» بحث منشور في مجلة السدير، كلية الآداب/ الكوفة، العدد الاول، (العراق، ٢٠٠٣).

بات من الضروري اليوم ان نعترف اننا ازاء تراث سيّري مليء بالمُدخلات والاضافات التي امتزجت مع ما فيه من الحقائق، لذا يتوجب علينا الشروع بإعادة الدراسة والتقييم لجميع الروايات الاسلامية وفق منهج علمي نقدي يقوم على فرز واستبعاد تلك الاضافات التي الصقت بالسيرة النبوية.

ان التأمل في أحوال الرواة الاوائل والوقوف على طبيعة الظروف التي احاطت بهم، وتباين مستوياتهم المعرفية وقدراتهم على الفهم والاستيعاب الدقيق لكل ما صدر عن النبي (ص) من اقوال وافعال، ثم تباين قدراتهم في التعبير عنها وايصال معانيها وفحواها وافكارها ودوافعها الحقيقية الى باقي المسلمين. كل ذلك يجعلنا نشك في امكانية هؤلاء الرواة التمكن من نقل دقيق لتفاصيل واحداث السيرة.

ثم ان هذا الخبر المنقول شفهيّاً سرعان ما تحول الى رواية مُدونة على ايدي المؤرخين مع بدايات العصر العباسي - بعد اكثر من مائة وثلاثين عاماً من وفاة النبي (ص) - ولم تسلم كذلك من التلاعب والاضافة والحذف تبعاً لأهواء وميول غير نبيلة وبدوافع شتى.

ثم جاءت الدراسات الاستشراقية لتتوقف عند كل نص ورواية فتسلط الضوء على ما يخدم مصالحها عبر تفسيرات وافكار غير موضوعية في اغلب الاحيان.

لذلك وجدنا انفسنا امام مسؤولية كبيرة تدفعنا نحو اعادة كتابة السيرة النبوية المطهرة على وفق نقد التراث الاسلامي وكذلك الرد على الآراء والافكار الاستشراقية.